أوتو سي. أرتباور



قراصنة الريف ووطنهم

الأخبار الأولى من عالم مجهول

قراصنة الريف ووطنهم

العنوان الأصلي:

Die Rifpiraten und ihre Heimat

Von

Otto C. Artbauer



قراصنة الريف ووطنهم

الأخبار الأولى من عالم مجهول

بقلم أوتو سي. أرتباور

دار النشر فون شتريكر وشرويدر

شتوتغارت

1911

Trans NBE

مقدمة

يختلف وطن قراصنة الريف عن بقية البلاد الإسلامية، ومن الجدير تخصيص كتاب صغير له. وإذا بدا أن الصورة المعروضة هنا غير كاملة، فلا يُلقى اللوم على قدراتي أو رغبتي، ولا على نقص المثابرة، بل على الظروف الصعبة. فلم يحن بعد وقت البحث حول منطقة الريف. كان من الصعب للغاية بالنسبة لي إعداد مسارات رحلات متفرقة، باستثناء تطوان بالطبع، فمن المستحيل تمامًا العمل باستخدام جهاز المسح أو إجراء تحديدات فلكية دقيقة للمواقع. كانت القياسات الأنثروبولوجية على سكان الريف غير ممكنة، وكان عليّ توخي الحذر الشديد عند جمع عينات الحجارة أثناء الرحلة.

كما سيفتقد البعض تفاصيل أكثر دقة عن ظروف التربة. لكنني أفضل تجاهل هذا الجانب تمامًا على تقديم معلومات مجزأة وغير كافية؛ فعلم الجغرافيا ليس من اختصاصي. وتجدر الإشارة إلى أن محتوى الكتاب بأكمله، بقدر ما يتعلق الأمر بالريف نفسه (أي باستثناء الجيوب الإسبانية وتطوان)، لم يأت بين عشية وضحاها، بل تطلب عملاً لا يوصف ومراقبة طويلة ومتواصلة. لا ينبغي أن ننسى أننا نتحدث عن أبناء قراصنة الريف المخيفين، عن أناس لا يثقون في الغرباء، ولا سيما الأوروبيين، عن أكثر شعوب المغرب - وربما كل أفريقيا الإسلامية - خبرة في الحرب وأكثرها نزوعاً نحو التمرد، عن منطقة تُعد، بالمعنى الحقيقي للكلمة، من أكثر المناطق المجهولة في قارتها. وإنني أؤدي واجباً ساراً عندما

أتوجه بالشكر الحار إلى دار النشر على تلبية رغباتي بتفهم، وعلى العناية التي توليها لإعداد كتبي.

لقد مر عقد من الزمن منذ أن وطأت قدمي لأول مرة أرض الشرق الرائعة. ومنذ ذلك الحين، قضيت وقتًا أطول بين المسلمين أكثر مما قضيته في وطني. فكما يشتاق البحارة دائماً إلى المياه الزرقاء، كذلك هو حال كل من شرب، مثلي، من مياه النيل والأردن ودجلة، وتجاوز، مثلي، القوقاز والأطلس، وقطع أميالاً لا حصر لها تحت الشمس الحارقة على جميع وسائل النقل التي تعرفها أراضي الإسلام الشاسعة. و"عيون الصحراء"، أي الواحات، هي كعيون النساء الجميلات: من ينظر إليها بعمق، لن تتركه أبداً! وهكذا أجد نفسي مرة أخرى عند نقطة انطلاق رحلة طويلة عبر الصحراء. وللمرة الأولى لست وحدي، فقد عهد إليّ رجلان شجاعان، وهما وبحكمة الله اللامتناهية سيساعدان في حل آخر وأكبر وأصعب مشكلة في استكشاف الصحراء، إن شاء الله! "بو اللحية" أطلق عليّ هذا اللقب منذ سنوات رجال السودان ذوو البشرة الداكنة. وظل هذا الاسم ملازماً لي إلى الأبد، حتى في الأماكن التي يربي فيها الرجال الفخورون لحى طويلة، كما هو الحال في المغرب. وأعتقد أنني أستطيع أن أقول بصدق إنه لم يترك ذكريات سيئة في أي مكان، ولن يفعل ذلك هذه المرة أيضاً.

طرابلس (شمال إفريقيا)، فبراير 1911

(في شهر صفر، عام 1330 للهجرة)

المؤلف.

تمهيد

صدرت في السنوات الأخيرة مؤلفات وفيرة عن المغرب الذي لا يفقد من أهميته أبدًا. ومع ذلك، ما زلنا نعتمد في معرفتنا بالإمبراطورية الشريفة على ما رواه رجال شجعان في الماضي، مثل جيرهارد رولفس وأوسكار لينز وغيرهم. وقد ساهم الفرنسيون بشكل خاص في إلقاء الضوء على هذا الجزء الأكثر عتمة في أفريقيا. لكن في الآونة الأخيرة، لم يقدم سوى الراحل ثيوبالد فيشر شيئًا جديدًا حقًا باللغة الألمانية، على الرغم من أن رحلاته في الإمبراطورية الشريفة لم تخرج أبدًا عن المسارات المطروق. لكن هناك منطقة واحدة تركها جميع الباحثين جانباً، ولم يتم التطرق إليها إلا بشكل سطحي في جميع الكتب والتقارير، وهي منطقة الريف! فهي تظهر على جميع خرائط المغرب باللون الأبيض تقريباً، ولا تظهر فيها الأنهار وسلاسل الجبال إلا بشكل ضئيل، ولا توجد أي بلدة داخلية محددة من الناحية الطبوغرافية. وما كان معروفاً عنها مستمد من روايات شفوية لأهالي المنطقة غير الموثوق بها. قلة من الأوروبيين رأوها من الداخل، عالم واحد سار غرباً، وآخر جنوباً، وكلاهما فرنسيان. لا يمكن لأي أوروبي أن يتباهى بأنه اجتاز سلسلة التلال الوعرة بطولها بالكامل، وأنا من ضمنهم!

ومع ذلك، أعتقد أنني مؤهل لوصف موطن قراصنة الريف، ولإيصال أخبار حقيقية من هذه منطقة. فقد عشت لسنوات عديدة بين المسلمين، وأتحدث وأكتب لغة القرآن كما يتحدثها أهلها. من وديان القوقاز، ومنحدرات البلقان وصولاً إلى منابع النيل، ومن

شواطئ المحيط الأطلسي ذات الأمواج البيضاء المتلاطمة وصولاً إلى الخليج الفارسي، لا تكاد توجد أماكن غريبة عني. قضيت ما يقرب من ثلاث سنوات بمفردي في المغرب الجميل. قليلون هم الذين يعرفون دار الإسلام بأكملها من خلال مشاهداتهم الشخصية. ومع ذلك، لم أؤلف أبدًا كتبًا ضخمة، كما يفعل كل من يعود من البلاد الإسلامية المتنوعة بعد إقامة دامت أسابيع. لأني أعلم أن السنوات بالكاد تكفي للتعرف عليها حقًا!

قضيت 15 شهراً كاملة في منطقة الريف. في البداية، مكثت أكثر من ثلاثة أشهر في مليلية، التي كنت أعرفها منذ سنوات، شأنها شأن أجزاء أخرى من المغرب. قمت برحلات استكشافية إلى قلعية وكبدانة، وزرت القبائل الشرقية الشجاعة، ومكثت في معسكر بو حمارة بالقرب من قصبة سلوان، وسافرت عبر سبخة بوعرك. ثم توجهت إلى تطوان، حيث أقمت لمدة تزيد عن 10 أشهر. ومن هناك، قمت برحلات طويلة على متن قارب ريفي بسيط (فلوكة) على طول ساحل الريف، ولم تكن الأمور دائماً سهلة! قمت برحلات إلى غمارة، وجبال جبالة، وإلى متيوة، وأنجرة، وغيرها، وكنت أذهب مع الريفيين في كثير من الأحيان للصيد في عزلة الجبال، واستمتعت بكرم الضيافة في قرى لا حصر لها، حيثما يسكن الأمازيغ على الساحل الشمالي للمغرب. كنت أستمع لساعات طويلة أمام بيوتهم، بجوار مواقدهم، وهم يروون أحداث الحياة اليومية بلغة القرآن الرنانة، مع تعابير مبالغ فيها بشكل شاعري. بعد أن تركت المسيحيين، لم أرَ لأشهر عديدة أي أوروبي، ولم أسمع أي لغة من لغاتهم، وعشت بين السكان

المحليين كواحد منهم. لقد أبدت لي جميع قبائل الريف كرم الضيافة، بنبل وتواضع، كأبناء الصحراء العربية السمراء. لم آتِ كغريب عن البلد، بل متأقلمًا مع العادات واللغة، ومستعدًا للمساعدة عند الضرورة. لقد ضمدت يدي الماهرة جروحًا كثيرة. قاتلت إلى جانبهم ضد بو حمارة، وتوسطت بنجاح عندما وقع أبناء الريف في قبضة السلطة، في أيدي المخزن. لكنني وجدت أيضاً لدى أهالي الريف، الذين يُزعم أنهم معادون للأجانب، كرم الضيافة، ووجدت أصدقاءً، كما يحدث في البلاد الإسلامية المتنوعة. إن الفترة المليئة بالمشقات التي قضيتها بين هؤلاء الأفارقة ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، تُعد من أكثر الفترات التي لا تُنسى من سنوات ترحالي حتى الآن.

1. معلومات عامة

التاريخ – اللغة – الشخصية – الريفيون المغتربون – الاختلافات القبلية.

ما هو الريف، ومن هم قراصنة الريف؟

قبل فترة وجيزة، لم يكن بوسع سوى قلة قليلة الإجابة على هذه الأسئلة، رغم أن المغرب ظل لعدة عقود يملأ صفحات الصحف بجميع اللغات دون انقطاع. فقد انطلقت على مدى نصف قرن بعثات استكشافية عديدة ومكلفة من جميع بلدان العالم الغربي، بهدف حل لغز النيل الذي دام ألفي عام، أو تحديد مسار نهر الكونغو، أو عبور الصحراء والأراضي الأفريقية، أو سبر أغوار أفريقيا الغامضة. شارك رجال من جميع الأمم في استكشاف أفريقيا. ولا حصر للأرواح التي أودت بها الأمراض وأسلحة الأعداء، والمعدات غير الكافية، والمشاق المفرطة بحياة رواد العلم والثقافة. لكن رجالاً جدداً كانوا يهرعون دائماً، مفعمين بالأمل، لينجزوا بعيداً عن وطنهم وفي ظروف بالغة الصعوبة ما بدأه غيرهم.

لكن في أقرب المناطق إلى أوروبا، والتي يمكن الوصول إليها بسرعة من جميع السواحل في شمال إفريقيا، بقيت بقعة مهمة لم يلتفت إليها أحد. لم يهتم الإسبان، الذين كانوا أول من وصلوا إلى هناك، إلا قليلاً بهذا العالم الغريب، الذي احتلوا بوابته الوحيدة وأغلقوها على مدى قرون. أما الألمان والإنجليز، الذين يعملون بجد، فقد ظلوا بعيدين دائماً، ولم يجرؤ سوى اثنين من الفرنسيين

الأكثر إقداماً على قضم قطعة صغيرة من أطرافه البعيدة. وعندما اندلعت مؤخرًا معارك عنيفة، كما حدث مرارًا وتكرارًا منذ أن تقاطعت حدود المغرب وإسبانيا، علم العالم أن جبال الإمبراطورية الشريفة الشاهقة تخبئ ثروات لا تُحصى، أُريقت من أجلها الآن الكثير من الدماء؛ ويسكنها شعب من الأبطال، الذين تراجعت أمام فنونهم الحربية الفريدة القوات الأوروبية المنضبطة؛ وأنه توجد أرض على أبواب أوروبا لا يعرف عنها العالم شيئاً.

إذا كان من الممكن القول إن المغرب هو أكثر بلدان العالم الإسلامي غموضًا وأقلها تعرضًا للتأثيرات الخارجية، فيمكن القول إن منطقة الريف هي أكثر غموضًا وأقل تعرضًا للتأثيرات الخارجية من بقية أجزاء المغرب. وإذا كان هذا يختلف اختلافاً كبيراً عن جميع البلدان الإسلامية الأخرى، فإن أرض الريف تختلف تماماً عن جميع أجزاء الإمبراطورية الشريفة الأخرى. لغوياً وسياسياً، ومن حيث الجغرافيا والأنثروبولوجيا، تختلف هذه السويسرا المغربية عن بقية أراضي المغرب وعن الشرق الحقيقي. ما يسري في أماكن أخرى، نادراً ما ينطبق على الريف. فليبحث المرء، في جبال الأطلس أو في أي مكان آخر، عن أشخاص سمر البشرة، أو ذوي شعر أشقر وعينين زرقاوين، أو حيوانات برية خاصة بالشمال. أو ليبحث عن أشجار النخيل. لن يكون هناك شيء أكثر عبثاً! ولماذا كل هذا؟ لأن جميع أهالي الريف، إلى جانب الاختلاف الطبيعي بين الأقاليم، حافظوا على خصوصيتهم الإثنية، وحموا أنفسهم من أي اختلاط بالدم الأجنبي، وصدوا بقوة التأثير غير المرغوب فيه للأوروبيين بكل الوسائل

المتاحة لهم. وقبل كل شيء، أخفى قراصنة الريف، الذين كانوا مرهوبين في السابق، بحكمة الثروة المعدنية الهائلة لجبالهم.

على من يبحث عن معلومات تاريخية عن تلك المنطقة من المغرب، التي نُطلق عليها اسم «الريف»، أن يقلب صفحات تاريخ الشعوب الأمازيغية في شمال غرب إفريقيا.

على عكس العرب الساميين، لا تنحدر سلالة الأمازيغ الكبيرة من بوتقة الشعوب الكبرى في آسيا الوسطى. فقد كانت جحافلهم الضئيلة للغاية، التي تمكنت من فرض طابعها على شمال إفريقيا ذات الأصول المشابهة، قد استنفدت قوتها في جبال الريف الخصبة ذات التضاريس الوعرة. في نواحٍ عديدة، يشبه المغرب، إذا ما أخذناه في أبعاده الأوسع، الشرق الإسلامي، حيث اخترق الإسلام كل الحواجز الكابحة، ووحّد الشعوب الموجودة، سواء كانت ضعيفة أو قوية. لكن في الريف، بقيت العقيدة وحدها راسخة لقرون طويلة.

لم تستطع حتى تعاليم مؤسس العقيدة الإسلامية أن تغير جوهر الإنسان الريفي! بل وأكثر من ذلك: فقد اختلطت جميع الشعوب المحيطة به، بشكل أو بآخر، بالدم الإفريقي، مع الفروع الشمالية للأعراق السوداء، وذلك قبل وبعد الغزو العربي. لكن الريفيون ظلوا بعيدين عن تأثير الشعر المجعد. مثلما لم ينسجم السكان المحليون أبدًا مع العرب، فهم كذلك لم ينسجموا مع الشعوب القادمة من الجنوب. ظلوا منعزلين في جميع الأوقات، ولا يزال هذا الشعب فخوراً بهذا الوضع الخاص حتى اليوم. والسؤال المطروح هو ما إذا كانوا قد استقبلوا غرباء في نسيجهم الإثني

على الإطلاق؛ على الأقل ليس في العصر القرطاجي، ولا في العصر الروماني، ولا في العصر العربي، ربما باستثناء مرة واحدة فقط، عندما تم طرد جحافل الجرمان من السواحل الغربية لشمال إفريقيا (انظر الخاتمة). وربما لم يكن الأمر كذلك في ذلك الوقت أيضًا، فعلى الأقل لا تزال الأدلة الحاسمة غائبة سواء لتأييد هذه النظرية أو لدحضها. وقد ظلوا كما كانوا منذ زمن سحيق: أمة قوية، جامحة، تعشق الحرية، ولا تتوانى عن المواجهة. كانت الرغبة الجامحة في الحرية هي التي دفعت سكان الريف إلى الدفاع بعناد عن الأراضي التي تأصلوا فيها في مواجهة كل من حاول إزاحتهم عنها على مر القرون. ورغم أن أمواج التاريخ العالمي المتتالية جرفت إلى السواحل الممتدة شعوباً متنوعة، لم يتمكن القرطاجيون أو البيزنطيون أو غيرهم من اكتساب نفوذ دائم. وبالنسبة للريف على وجه الخصوص: فقد أدارت روما موريتانيا القيصرية انطلاقاً من شبه الجزيرة الإيبيرية.

فقد كان من الأسهل على السفن البطيئة في ذلك الوقت عبور مضيق جبل طارق العاصف والإبحار عبره حتى مصب نهر ملوية، من أن تعبر الجيوش الرومانية سلاسل الجبال تلك! ولم ترتفع أبدًا النسور الرومانية أو الرايات البونية أو البيزنطية في السماء فوق منطقة الريف.

كان الأمازيغ في شمال إفريقيا يستغلون دائمًا أي فرصة لطرد الأسياد القدامى بمساعدة الوافدين الجدد — حتى أن الحكم الأجنبي لم يكن قائمًا إلا بالاسم فقط! وبمجرد أن فهم الوندال كيفية التعايش معهم إلى حد ما، منحوا القبائل التي وجدوها هناك درجة من الحكم

الذاتي أكبر من أي أحد آخر، وربما وجد أسلافنا المشتتون ملاذاً هناك، عندما طردهم آخر وميض من الإمبراطورية البيزنطية المتداعية.

اجتاحت ثلاث عواصف كبرى المغرب، تلك الأراضي الغربية الخصبة التي تشكل اليوم الغرب الإسلامي. كان على الشعوب الأمازيغية، التي استقرت هناك منذ العصور السحيقة، أن تتحمل ثلاث ضربات قوية. أولاً الرومان، أو بالأحرى الصراعات بين قرطاج التي سيطرت على البحار وروما التي سيطرت على البر. ثم توالت الهجرات مع عواقبها البعيدة المدى، وأخيراً العاصفة العربية التي هبت ثلاث مرات. في الضربة الأولى من تاريخ العالم، بقي الأمازيغ سادة أرضهم. وبعد الهجمة الثانية، حدث احتلال الوندال الذين طردوا من ديارهم، أما الهجمة الثالثة فقد أجبرت جزءاً من السكان الأمازيغ على الهجرة من السهول الخصبة الجميلة إلى الجبال الوعرة. ولم يغفر أحفادهم للعرب حتى الآن هذه الظروف الصعبة. في البداية، استقبل الأمازيغ الرحل بكرم الضيافة، لكنهم سرعان ما انقلبوا بغضب على الساميين الذين سرعان ما تصرفوا كأسياد. وعلى مدى عقود، اندلعت معارك مروعة بين اتحادات القبائل الأمازيغية ضد مبعوثي محمد العنيفين الذين جاءوا لنشر تعاليمه الجديدة.

معارك لا يوجد في تاريخنا ما يضاهيها في ضراوتها، ولا تزال أغاني رائعة ترنم بغضبها الرهيب حتى اليوم، وهي تتردد بأمازيغية الريف من جبال قلعية وصولاً إلى وديان غمارة الخصبة، وتمتد جنوباً بعيداً عبر ممر تازا الذي يتحكم بشبكة

الطرق، حيث يسكن أهالي غياثة الأشداء. وحتى في منطقة القبائل الجزائرية، على الحدود مع تونس، يمكن سماعها إلى جانب الأغاني التي تعود إلى زمن الأميرعبد القادر. ولا تزال الكاهنة ديهيا الشجاعة والقائد العاصف كسيلة خالدة في ذاكرة الشعب، تماماً كما بقيت قبل ذلك بوقت طويل أسماء "أمراء" الأمازيغ، مثل المغوار تكفاريناس والشجاع أكسيل، أعداء روما الأشداء والمظفرين.

في الصراع الذي دار آنذاك من أجل الهيمنة بين عرقين، قاومت الأمة الأمازيغية الصلبة بقوة، لدرجة أن الغزاة الساميين لم يتمكنوا هنا أيضًا، كما حدث على طول الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي، من فرض لغتهم ودينهم. خاصة في منطقة القبائل والريف. فغالبية الريفيين، وأغلب سكان القبائل - لا يفهمون لغة القرآن. وحتى يومنا هذا، يعتبر الرجُل الريفي عاراً أن يتقدم ابنه لخطبة فتاة عربية، ولا تدخل ابنة من أبناء الجبال الأحرار أبداً بيتاً عربياً أو تزيد من عدد حريم سكان المدن المغاربة. ومن هنا يأتي النقاء الإثني الرائع، والأجسام القوية المفتولة ذات العيون الزرقاء؛ سلالة بشرية تشبه سكان سواحلنا أكثر مما تشبه إخوانها ذوي البشرة السمراء الذين يعيشون وراء سلاسل جبال الأطلس المغطاة بالثلوج.

بعد المعارك الأخيرة بين العرب والأمازيغ، ساد صمت مريب الجبال والوديان التي دمرتها الحرب. ولم ترضخ القبائل المحلية لفن الحرب المتفوق لأعدائها إلا بعد الحصول على ضمانات قاطعة بالحكم الذاتي الكامل والعديد من الامتيازات الخاصة.

وتحول أتباع المسيحية الأمازيغ إلى مؤمنين بالإسلام بدرجات متفاوتة من التدين. لكنهم أصبحوا أيضًا حلفاء متعاونين مع قادة الجيوش العربية الذين تدفقوا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. على الرغم من أن أمازيغ الأطلس[1] يعانون اليوم من تخلف ثقافي كبير مقارنة بالمغاربة، وحتى مقارنة بالعرب الرحل، إلا أن القوة النقية هي التي ساعدت على بلوغ ذروة عظمتهم على الأراضي الإيبيرية. كان العربي محارباً، ولم يكتسب مكانة في تاريخ الثقافة إلا بفضل الدم الأمازيغي. وقد تكرر نفس السيناريو في أقصى أطراف العالم الإسلامي، حيث أدى الاختلاط بالشعوب الأخرى إلى ظهور المباني الفخمة التي زينت غرب الهند في خدمة تعاليم الإسلام، من لاهور إلى كولومبو، كخاتمة جديرة بنفس القدر لمنطقة انتشار هذا الدين، تمامًا مثل المغرب الكبير!

كان الجيش الذي قاده حنبعل عبر جبال الألب يتألف من أعداد كبيرة من الأمازيغ. وقد منح أحفادهم الجيوش الإسلامية قوة هجومية هائلة لم تُكسر إلا في ساحات معارك تور وبواتييه؛ وقد جلست السلالات الأمازيغية لقرون على عرش الحكم المتنازع عليه في المغرب، وكان الأمازيغ هم في المقام الأول من قاوموا جيوش الغزو الفرنسية في شمال غرب إفريقيا بشدة - وقد تلقوا دعماً لا يستهان به من منطقة الريف! أما إخوانهم من "القبائل"، فهم الذين قاتلوا تحت راية العلم الثلاثي الألوان ضد النمسا عام 1859، وضد ألمانيا عام 1870، بل إنهم اليوم يساعدون الفرنسيين الذين كانوا يكرهونهم بشدة في الماضي على قهر

[1] وقد صاغ هذه العبارة مؤخرًا عالم جغرافيا شاب يُدعى إ. بانس في براونشفايغ.

الأجزاء "المعادية" من وطنهم. تمامًا كما فعلت قبائل جرمانية قبل ألفي عام ضد روما التي كانت تسيطر على أراضٍ شاسعة.

تنقسم المجموعات الأمازيغية الكبرى في المغرب الحالي إلى ثلاث مجموعات، وتنقسم كل مجموعة منها بدورها إلى العديد من الوحدات ذات الأحجام المختلفة. ومن أبرزها القبائل التي تأثرت بشدة بالثقافة العربية على الساحل الأطلسي، والتي تبنّت اللغة العربية وعاداتها؛ بالإضافة إلى قبائل أمازيغ سوس، التي تسكن جنوب خط موغادور-مراكش، وتستخدم اللهجة التي تُعرف بنفس الاسم أو ببساطة باسم الأمازيغية، ثم سكان الريف، الذين يتحدث معظمهم الأمازيغية الريفية، وهي أيضًا فرع من عائلة اللغات الأمازيغية الضخمة.

أمام حجرة باديس. أوطو، بو اللحية، التطواني.



أمام حجرة باديس. أوطو، بو اللحية، التطواني.

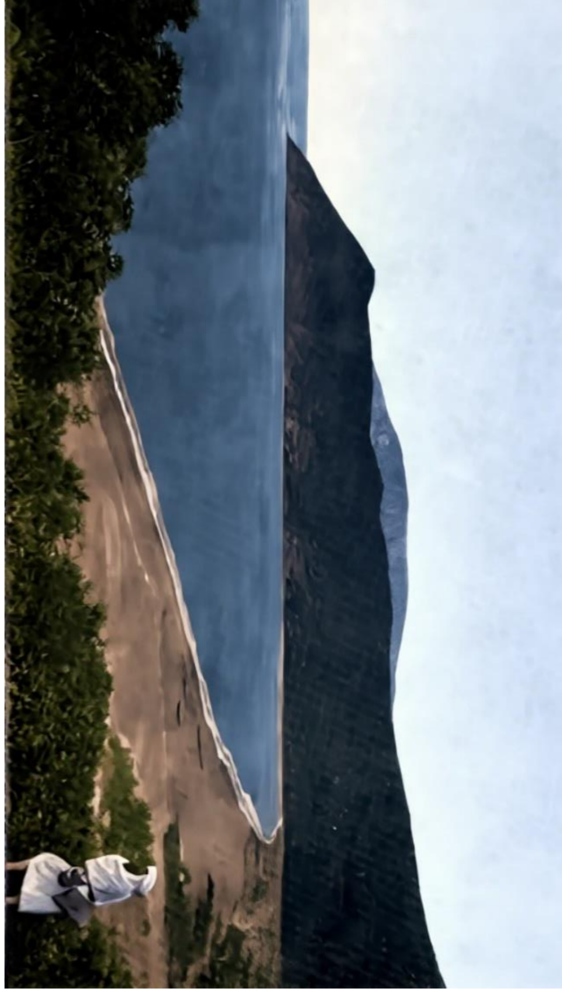


محارب من آيث ورياغر.

قراصنة المستقبل الريفيين.



قراصنة المستقبل الريفيين.



خليج واد لاو، التقطت الصورة من رأس عمارة (منكال)، على ارتفاع 100 متر، ويظهر المؤلف على اليمين.

وأخيرًا، نأتي إلى القبائل العظيمة التي تقع وراء جبال الأطلس، في منطقة تافيلالت، وفي أراضي توات تيديكلت التي ضمتها فرنسا، وما إلى ذلك، وهي قبائل مختلطة إلى حد كبير بالدم الأفريقي الأسود، وتربطها صلة قرابة بالطوارق والليبو، وصولًا إلى سكان وادي النيل.

ومن اللافت للنظر هنا أن الريفي يسمي نفسه باسم موطنه، بينما يطلق على لغته الاسم الذي يحمله أبناء جلدته الذين يعيشون بعيدًا إلى الجنوب.

يختلف ابن الريف اختلافًا كبيرًا عن المجموعات الأخرى ذات الأصل الإثني نفسه، كما تختلف جباله عن مناطق انتشار تلك المجموعات. ويطلق على نفسه اسم الريفي نسبةً إلى موطنه، دون أن يدرك من أين جاء هذا الاسم. أما نحن الأوروبيون، فنعلم أن هذه الكلمة الصغيرة مشتقة من الكلمة اللاتينية المتأخرة "*ripa*"، والتي تعني "الساحل". وقد اتخذت الكلمة الشكل المذكور أعلاه، لأنه من المعروف أن اللهجات الأمازيغية واللغة العربية لا تحتويان على حرف "p". ومن خصائص اللهجة الريفية أيضاً أن لسانها لا ينطق أبداً بحرف " اللام" الذي نعتبره نحن لا غنى عنه. تخيلوا كيف قد تبدو كلمة "الله"! حتى لو أقام الريفيون لسنوات في الغربة، وتعلموا العربية، وربما الإسبانية أيضًا، فسيظل هذا الحرف يسبب لهم صعوبات لا يمكن التغلب عليها![2]

[2] ويفسّر ذلك أيضاً بعض الخصائص اللغوية التي لاحظها الباحثون في لهجات سكان جنوب المغرب، مثل النطق اللين والمستدير لبعض الأصوات، من بينها صوت«ch» ، وغيرها من السمات الصوتية المميزة.

تتميز شخصية الرجل المنحدر من هذه المنطقة المنعزلة بسمات مميزة. فهو ذو قوام نحيل ومستقيم كأفخر عرب الشرق، متوسط الطول، بل صغير إلى حد ما، لكنه ليس نحيفًا أبدًا، على عكس إخوانه من نفس الأصول في أقصى جنوب المغرب وما وراء جبال الأطلس؛ أصغر من المغربي الذين يعيشون في المدن، لكنه ذو بشرة بيضاء مثله، قليل السمرة، لكنه قوي العضلات وذو قدرة تحمل لا تصدق. يستطيع الريفي أن يصوم لأيام طويلة إذا اقتضت الظروف ذلك! يتمتع بصدق صارم ومفاهيم شرف جديرة بأن يحتذى بها.

إنه يتفوق أخلاقياً على الكثيرين، ولا يبدأ أبداً أي نزاع دون إعلان حرب مسبق، ولا ينطق أبداً بكذب. فالأتراك والفرس يحبون الكذب، وغالباً ما يكون ذلك بدافع مجاملة غير ملائمة؛ أما العرب والرحل الآخرون فيخلطون غالباً بين ما هو لي وما هو لك، أما الريفيون فهم أفخر من أن يفعلوا أيّاً منهما. كما يتصرف الريفي بحذر شديد، بل أكثر تجاه أفراد عائلته منه تجاه الغرباء. وعندما يعود الريفي إلى دياره بعد غياب طويل، فإنه يرحب أولاً بشيوخ القبيلة ويخبرهم بكل ما يبدو أنه من مصلحة الجميع، ويسلمهم الأشياء التي عُهد بها إليه، وينقل إليهم الأخبار التي تلقاها. فـ«دْشار» يأتي أولاً، ثم «أربع»، وبعد ذلك فقط تأتي العائلة المباشرة. لا يكرس العائد إلى المنزل، بفضل حسه العائلي القوي، وقته لزوجته وأطفاله إلا في النهاية، ونادراً ما يرونه قبل وقت الخلود إلى النوم.

يتميز الأمازيغ في شمال إفريقيا، ولا سيما سكان الريف، بخصوصية إثنية بارزة، فهم ذوو مظهر خشن ولكنهم طيبو القلب. وقد أدت الظروف القاسية، والانعزال التام من جميع الجهات، إلى تقييد قدراتهم، بل وأكثر مما هو معتاد في بلاد الإسلام. أعتقد أنني مؤهل للحكم على سكان الريف، لأنني لا أعرف المغرب وحده، بل أعرف تقريبًا جميع الأجناس والشعوب الشرقية، أعرفها حقًا بفضل رحلاتي الطويلة. وأعتقد أنني أستطيع أن أؤكد أنه لم يخلق أي شعب إسلامي مفاجآت أكبر من تلك المفاجآت التي أحدثها سكان الوديان الطويلة الخصبة على ساحل المغرب، أولئك السكان الغريبون الذين صقلتهم العوامل الطبيعية، سادة القرصنة في ما مضى، سكان الريف. ما عليهم إلا أن يدخلوا التاريخ العالمي!

أرض قاسية تنجب أناسًا قساة. فقد أدى الصراع المستمر مع البيئة المحيطة إلى تكوين ذلك الجيل القوي الذي يسكن اليوم أقصى شمال المغرب وأكثر أجزائه وعورة. ومن النادر جدًّا أن تجد رجالًا خالين من الندوب، ولا تظهر السمنة أبدًا كنتيجة لحياة الرفاهية التي تضعف العزيمة. من اللافت للنظر قلة اللحى البيضاء في القرى، لأن الموت الطبيعي نادر الحدوث في هذه الجماعة الكبيرة من الناس المحبين للسلاح. ذات مرة، أثناء صلاة جماعية مهمة وسط رجال تمسمان الأشداء، أعربت عن دهشتي لغياب كبار السن. عندها نظر إلي جاري بصمت، وأعاد ربط حزامه، ثم سألني أخيراً بصوت خشن: "ألا تعرف هذه الجبال؟ نحن في الريف!" إذا دنت نهاية الريفي، فإنه ينهار صامتاً ويموت دون كلمات خلاص على شفتيه المطويتين بثبات. لا يهمس أي رجل ريفي، يشعر بأن نهايته تقترب، مثل المؤمنين الآخرين،

بالشهادة، ولماذا يفعل ذلك؟ لأن ملاذه وإيمانه، وسنده وملجأه، ومعينه في الشدة هو البندقية.

كلمة «خطر» غريبة على أمازيغي الجبال الشجاع. فقد جعلته النزاعات الدموية المتواصلة مستقلاً وجريئاً، ولا يتردد أبداً في التضحية بحياته إذا لزم الأمر. ولذلك، فهو لا يقدّر حياة الآخرين بنفس القدر الذي تقدّرها الشعوب الأخرى، التي لا يزال فيها الثأر واجباً مقدساً يمتد حتى الجيل الخامس! كثيراً ما أُخبرت بما يلي: هذا أطلق النار على ثلاثة أعداء، وذاك قتل اثنين في نزال فردي، وهذا أرسل في المعركة الأخيرة مع القبيلة المجاورة هذا العدد من الأعداء إلى العالم الآخر، والآخر عاد قبل أسابيع فقط من منفى طوعي، بعد أن أدى إخوته الدية. وخامس كلف أقاربه منح هذا العدد من البغال والماعز ككفارة، وذلك الرجل ميت لا محالة لأنه أطلق النار على أحد جيرانه. وبمجرد عودة أخيه أو زوجته من الغربة، سيكون قد انتهى أمر الجاني!

في الخارج، أي خارج منطقة الريف، لن تجد أبناءه مقيمين هناك بشكل دائم، بل بشكل مؤقت فقط. إما ليمنح أقاربه الوقت الكافي لتسوية الثأر، أو ليكسب رزقه في طنجة أو وهران أو أي مكان آخر. من غمارة ومتيوة، ومن تمسمان وتفرسيت، ومن بني خنوس وآيث سعيد، وجميع القبائل الريفية الأخرى، يهاجر سنوياً مئات الشباب، خاصة إلى الجزائر، حيث يحظون بتقدير كبير كعمال مجتهدين في مزارع الكروم والحقول. في جميع أنحاء مقاطعة وهران وما وراءها، يفضل المعمرون الإسبان والفرنسيون توظيف الريفيين، لأن العرب الجزائريين قد أفسدهم التأثير المدمر

للأوروبيين. يُفضل الريفيون على الجميع، لأنه لا يوجد في أي مكان في شمال غرب إفريقيا من هم أكثر اجتهادًا منهم، مع كونهم مكتفين بالقليل ومقتصدين ومتعطشين للتعلم. مثال: استعانت شركة هولزمان الألمانية، التي مقرها في فرانكفورت، في البداية بعمال إسبان لتنفيذ بناء ميناء طنجة. لكن كسلهم وعدم موثوقيتهم دفع الإدارة الألمانية إلى البحث سريعاً عن عمالة أخرى، من أبناء البلد. وبطبيعة الحال، كان في مقدمة هؤلاء الرجال ذوو البنية القوية الذين جاءوا من الجبال الشرقية مرتدين جلاليبهم البالية. وما أن عُرف ذلك، حتى تجاوز العرض الطلب. فالمغربي يفضل العمل عند الألمان على الإسبان المحتقرين والفرنسيين المكروهين. تم تشييد المبنى بأكمله على يد أهالي الريف فقط تحت إشراف ألماني، وقد نجح هذا العمل نجاحًا كبيرًا لدرجة أن الناس في مدينة العرائش ما زالوا يتبعون نفس الأسلوب حتى اليوم.

يسكن الجبال العديد من القبائل، التي تشكل في جوهرها أمة واحدة، تربطها رابطة لا يمكن إنكارها، وهي مجموعة مستقلة، منفصلة تمامًا عن محيطها بحدود طبيعية. وهي تشكل أقدم المجموعات الإثنية في شمال إفريقيا وأكثرها حفاظًا على أصالتها، وتتمتع بقدرة نادرة على الصمود ومقاومة لا تنكسر في مواجهة التأثيرات المدمرة. ولكن داخل هذا الإطار، تظهر خصائص مميزة لدى بعض القبائل. الاختلافات في اللهجات، والعادات المتباينة، والاختلافات الجغرافية، كلها تضفي طابعاً مميزاً على كل مجموعة. فبعضهم صيادون نشيطون، والبعض الآخر يشكلون غالبية البحارة.

يتمتع بنو بوفراح بقدر واسع من العلم، ويبعثون الفقهاء في كل الاتجاهات، أما المتيويون وبني بشير فيتميزون بقسوة لا تُصدق. تتمتع القبائل الساحلية، أكثر من القبائل الداخلية، بحسن الضيافة؛ وترسل القبائل الواقعة في الجنوب رجالها إلى كل مكان يشهد قتالاً ونهباً، كجنود مأجورين في القرن العشرين. وبينما تتنقل قبائل أنجاد وجيرانها مع ماعزهم، يتباهى الغماري بكونه أفضل المزارعين.

رجال قبيلة قلعية الغنية بالمعادن هم كيميائيون مشهورون، في حين أن آيت عمارت وآيت توزين يركزون كل طموحاتهم على تربية الماشية الجيدة. وإذا كان الورياغري يحمل لقب أفضل الرماة، فإن غياثة ومطالسة يمكن وصفهم بأنهم فرسان ماهرون. بينما يتوجه آيت سعيد بجد إلى الأسواق على جانبي جبال الريف، نادراً ما يخرج المزديوي والزروالي من جبالهم. وإذا كان رجال بقيوة وجيرانهم بحارة أبطالاً مخيفين، إن احتكاكهم العنيف مع شعوب ذات ثقافة أعلى قد منحهم مع ذلك لمسة ملحوظة من الرقي، فيمكن القول إن الخنوسي من بين أكثر البشر فجاجة. ولكن، على الرغم من اختلافهم في السمات الشخصية، فإن أبناء الجبال متشابهون في آرائهم عندما يتعلق الأمر بالمصالح المشتركة. فالشجاعة وحب القتال الدائم سمة مشتركة بينهم جميعاً. وعندما يهددهم خطر من الخارج، يهرعون دون تردد لمساعدة القبيلة التي ربما منعوها بالأمس من عبور أراضيهم. بقدر ما يتحاربون فيما بينهم، فإن عدم ثقتهم في الغرباء وفي أي سلطة مركزية هو أمر مشترك، فهم دائمًا حريصون على حريتهم العريقة. ومن يهددها، يتجه غضبهم القتالي إليه بشكل مباشر،

وغالبًا ما يكون ذلك في الوقت الذي لا يرغب فيه الخصم في ذلك على الإطلاق.

أنام حيثما يفاجئني الليل،

في مأمن من نزوات السلطان،

فجميع الحكام أطفال في عقولهم،

ولديهم مخالب أسود، فلا تثقوا بهم**!**

2. الريف

المصطلح الجغرافي. طبيعة الساحل. القبائل.

إن مفهوم «ريف» مرن للغاية، بل وأكثر مرونة من أمور أخرى كثيرة في المغرب، أرض التناقضات. من منظور محلي، يمكن فهمه على أنه كيان متكامل، منطقة مستقلة، لم تكن بحاجة أبداً إلى حاكم. وهي تمتد من نهر غمارة الشرقي، واد أورينغا الأخضر، حتى نهر ملوية الطويل. أما المنطقة الممتدة غرباً، والتي تصل تقريباً إلى أبواب مدينة فاس المحاطة بالأسوار، فهي معروفة باسم منطقة جبالة، والتي كانت هي الأخرى منذ القدم في علاقة تبعية فضفاضة للغاية مع العرش الشريف، ونادراً ما كانت تدفع الضرائب أو توفر الجنود.

الأمر يختلف عندما نتحدث من منظور جغرافي أو إثنوغرافي، أو حتى من منظور إسباني. ففي هذه الحالة، يُعتبر أن المنطقة

بأكملها تندرج ضمن هذا الإطار، بدءًا من أعمدة هرقل الجنوبية، مروراً بمدينة سبتة التي تعاني من ضعف النشاط التجاري، وصولاً إلى الحدود مع منطقة وهران، وإلى تازا التي تهيمن على الطرق البرية. إن إسبانيا ترغب في ضم أنجرة، المنطقة الواقعة مباشرة خلف سبتة، باعتبارها "الريف الإسباني"**!** ولكن بصرف النظر عن أن هذه المنطقة من الريف ليست "إسبانية" على الإطلاق، فإن هذا الأمر مبالغ فيه بشكل كبير.

وينطبق الأمر نفسه على المناطق الواقعة جنوب راس كبدانة، أو ما يُعرف لدى الإسبان ب«*cabo de agua*»، التي اجتاحتها القوات الفرنسية في السنوات الماضية، وهي مناطق احتلتها إسبانيا أيضًا.

يبدو لي أن الطريقة الأكثر منطقية لتحديد حدود الريف هي كما يلي: بدءًا من أسوار تطوان، التي تمثل عاصمة حقيقية للريف وإن كانت نائية، ومروراً بالساحل حتى نهاية السلسلة الجبلية، وصولاً إلى المنحدر الشرقي لجبل هرك، على حافة سهل كبدانة. "الريف" تعني الساحل ويجب فهمها على هذا النحو. وتشمل المنطقة جميع القبائل التي تربطها صلات بهذه الساحل، وجميع الأراضي التي تقطعها الوديان المتوازية شمالاً. ويمتد هذا شرقا حتى ملوية، وفي غربا حتى خط التقاء المياه بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. ويشكل هذا الجزء بحد ذاته كياناً متكاملاً، ويشعر سكانه بانتماء طبيعي ويؤكدونه في كل وقت، مهما اختلفوا في التفاصيل، ومهما كانت المعارك الدامية التي يخوضونها فيما بينهم.

قد تتواجه اليوم قبيلتان، وبأيديهما بنادق محشوة بالذخيرة، لكنهما ستقاتلان غدًا جنبًا إلى جنب ضد أعداء خارجيين مشتركين. سواء أراد المخزن المركزي إثبات سيادته المطلقة التي لم تكن موجودة قط في أي مكان، أم أن إسبانيا تستذكر حقوقًا "تاريخية" عفا عليها الزمن منذ زمن بعيد. غالبًا ما تحرم القبائل المتنافسة لقب "الريفي" على كل من يسكن غرب الشريط الفضي لنهر أورينغا؛ وينظر أبناء الساحل بازدراء إلى أولئك الذين ولدوا في الداخل؛ قد يتهم البعض سكان قلعية بـ"الصداقة مع المسيحيين" لأنهم يزودون سوق مليلية بالبضائع، بينما يتهم آخرون آيث سعيد وجيرانهم بـ" الخنوع "، حيث اضطروا أحيانًا إلى تحمل حكم السلطان، لكنهم جميعًا ينتمون إلى شعب واحد، ونسب واحد، متحدون في العادات والأزياء، وتربة الأرض متشابهة، ولهجاتهم من أصل واحد.

وجميع قبائل الساحل الشمالي بأسره، تتشابه في بنيتها الاجتماعية، وتؤدي الواجبات نفسها، وتمنح الجيران وأبناء القبيلة حقوقًا متساوية. إنهم شعب قادر على البقاء، متحد في مواجهة الخارج، وإن كان يعاني من تناقضات غريبة في الداخل. ولكن سواء كانوا يسكنون جبالة، أو الريف نفسه، أو المناطق الحدودية التي لم تعد تنتمي إلى أي منهما، أينما رعى قطعانهم، وعلى أي من الجبال الغنية بالمعادن تنتصب مساكنهم: هناك رابط موحد يميزهم جميعًا كشعب ريفي: التمسك بحريتهم التي لم تمس أبدًا، والريبة التي لا تقهر تجاه الغرباء. مهما كانت التسميات التي يطلقونها على أنفسهم، ومهما كانت العلاقة التي تربطهم ببعضهم البعض، فهم

جميعًا أبناء سلسلة الجبال المنعزلة عن العالم، ووطنهم جميعًا هو الريف.

كما ذكرنا سابقًا، فإن التقسيم السياسي والمصطلح المحلي يشيران إلى مقاطعتين: جبالة والريف. ويبدو لجميع الأوروبيين الذين أقاموا في المغرب لعدة سنوات أن وصف المنطقة الريفية وتحديد حدودها في هذا الكتاب هو الأصح. ويرجع ذلك إلى الخصائص المميزة للساحل المغربي على البحر الأبيض المتوسط ومميزات سكانه. بخط ساحلي يزيد طوله عن 250 كيلومترًا وعرض متغير يتراوح بين 50 و70 كيلومترًا، تبلغ مساحة الريف أكثر من 16000 كيلومتر مربع. ووفقاً لتقديراتي، لا يزيد عدد سكانه عن 11 مليون نسمة[3]، مما يعني أن الكثافة السكانية تبلغ 78 نسمة لكل كيلومتر مربع، مقابل 16 نسمة في المغرب ككل. وبالتالي، فإن الريف، إلى جانب سهول الغرب الخصبة، يعد من أكثر المناطق كثافة من حيث السكان في المغرب، ولكنه أكثر بكرية من أي أرض أخرى في البلاد، وأكثر غموضاً من أعمق أرجاء القارة السمراء.

ليس في نيتي على الإطلاق تقديم معلومات موثوقة تمامًا عن عدد أفراد القبائل وعدد القرى وانتشار القبائل المختلفة. فكيف يمكن ذلك في البلدان الشرقية؟ لا أريد سوى تقديم بيانات تقريبية، استنادًا إلى ملاحظات مسافر كثير التجوال عاش لسنوات طويلة بين المسلمين في مناطق عديدة كواحد منهم. تكمن قيمة هذه المعلومات

[3] رقم مبالغ فيه جداً ولا يستند الى أية إحصائيات

في أن التعرف على الشعوب الأجنبية والدراسات التمهيدية التي استمرت لسنوات عديدة في المغرب وفي أجزاء أخرى من أفريقيا وآسيا المسلمة لم تتأثر بالأوروبيين، بالإضافة إلى المعرفة العميقة باللغة المحلية، قد شحذت بصيرتي ودرّبتها. ولكن أكرر أنه لا توجد أي مصادر موثوقة حقًا بشأن هذا الأمر، وأن كل شيء يستند إلى ملاحظاتي الخاصة، ولكن لم يتم تسجيل سوى ما يمكنني تأكيده. وإذا كان لدي شك في أي شيء، فقد تم ذكر ذلك بشكل واضح.

وأود أن أشير هنا إلى أنني لا أستطيع أن أضمن دقة ترجمة أسماء القبائل الأمازيغية، لأن اللغة الأمازيغية التي يتحدث بها الريفيون غريبة عليّ بشكل شبه كامل.

سأمتنع عن تقديم وصف تفصيلي للساحل يتضمن جميع التلال الساحلية والخلجان ومصبات الأنهار، حيث إن هناك أمورًا أكثر أهمية يجب ذكرها. ومن يهتم بمزيد من التفاصيل، فليقرأ الخرائط. لكن تجدر الإشارة إلى أن الخرائط الإنجليزية الخاصة بالمغرب، ولا سيما تلك التي تغطي منطقة الريف، سيئة بشكل مذهل. كما أن الخرائط الإسبانية لا تتمتع بدقة كبيرة، في حين أن الخرائط الفرنسية جيدة بقدر ما تسمح به معرفتنا الحالية بهذه السلسلة الجبلية الحديثة التكوين.

تظهر قمم جبال الريف للمبحرين على الساحل كجبال بركانية قاحلة، حيث يتلألأ صخرها الحديدي العاري في الغالب باللون البني أو المحمر فوق المياه الزرقاء. على طول المسار بأكمله، تظهر بوضوح آثار التآكل البحري، حيث تندفع الأمواج بصخب

رهيب إلى تجاويف عميقة، أو تظل المياه هادئة لدرجة أنه يمكن التجديف تحت الجدران المتدلية. نادراً ما يمكن تمييز آثار السكان في أعالي الصخور أو في منخفضات الوديان، قرى صغيرة لا تكاد مساكنها المتآكلة تبرز عن التكوين البركاني الداكن، الذي تمتد منحدراته الصخرية العارية نحو السماء. من على متن الباخرة، لا ترى حتى العين المدربة سوى سواحل شاهقة ميتة، وتدرك أن أسطورة قسوة الريف التي تجعل الإبحار فيه مستحيلاً قد استمرت حتى وقت قريب.

فقط من يبحر بقاربه بسرعة على طول الساحل، ويرى الوديان المزهرة التي تنفتح قيعانها ذات التربة الحمراء نحو البحر، وتسود عند مصباتها حركة مفعمة بالحيوية، وتغطي قيعانها خضرة غنّاء، هو الذي يستشعر مدى خصوبة المناطق الداخلية التي تخفيها الشواطئ القاحلة، ومدى الثروات الطبيعية التي يمكن العثور عليها في حضن هذه الجبال وعلى سفوحها. لا يكاد العقل البشري يتصور تبايناً أكثر قسوة من هذا.

كما سبق ذكره، يُعتبر جزء من شبه جزيرة طنجة، الذي تقطنه قبيلة أنجرة الجامحة والمضطربة دائمًا، جزءًا من جبالة. ورغم أنها لا تنتمي إلى منطقة الريف، إلا أنها تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وترتبط بالريف في كل شيء، لذا يجدر ذكرها هنا. على الرغم من تقاربها مع السلطة المركزية، إلا أن هذه القبيلة نادراً ما تعترف بها، بل لم تعترف بها على الإطلاق خلال العقدين الأخيرين — فهي لا تطيع قائداً عينه المخزن، بل بالكاد تطيع قائداً اختارته بنفسها. لا توجد غارة مشتركة أبداً العشائر

الفردية، ومن غير النادر أن تتطاير الرصاصات الضالة عبر الوديان باتجاه سبتة، أو حتى إلى شاطئ طنجة، عندما يتشاجرون بسبب نزاعات قديمة في جبالهم الحدودية. نادراً ما يذهب المرء في طنجة أو تطوان إلى مقاهي السكان المحليين دون أن يسمع عن عمليات سفك دماء جديدة من قبل قبيلة أنجرة المستعدة دائماً للقتال. لا تهتم هذه العشائر التي تعيش بالقرب من المدن بالسلطة والقوانين، لدرجة أنها تبدأ أو تخوض النزاعات حتى داخل طنجة نفسها. هكذا كان الحال يوم 16 غشت 1906. التقى رجل من أنجرة في *السوق د برا* بطنجة بخصمه اللدود، الذي هرب من قبيلته والتحق بالجيش المخزني كجندي. وبدون تردد، وضع (الرجل الأنجري) البندقية على خده، وأطلق النار، فسقط خصمه، وبذلك تم إرضاء الثأر الدموي وفقاً لقانون غير مكتوب.

ولم يهزم الرجال السمر القادمون من الجبال إلا بعد أن هرع جنود الريسولي إلى المكان. فهربوا عائدين إلى الشاطئ ثم صعودًا نحو جبالهم، بعد أن تركوا وراءهم 16 قتيلاً في الموقع. - دليل آخر على قوة هذه القبيلة:

يُشغّل الإسبان يومياً قارباً بين سبتة وطنجة. ويقوم السكان المحليون الذين يتولون هذه المهام البريدية بممارسة أنشطة تجارية جانبية متنوعة مع قرى «الحوز» (المنطقة الواقعة بين المدينتين). في فبراير 1909، تلقى أحد هؤلاء السعاة من سكان " الحوز" نقودا لإحضار أقمشة من تطوان، لكنه أنفق المال على نفسه في " حومة الطالعة " (أي في الحي الذي يقع في أعالي تطوان، حيث تسكن المومسات) فقام السكان المحليون الذين تعرضوا

للنصب بضرب الرقاص وأخذوا جلابته كتعويض. وكونه في خدمة الإسبان، اشتكى هذا الأخير من الحادثة إلى القنصل الإسباني في تطوان، وحصل على تعويضات من الباشا: في يوم السوق التالي، تم القبض على بعض سكان أنجرة، الذين كانوا يزودون السوق بالبضائع، و" داروهم*في الحبس* "، أي تم إيداعهم السجن. ردت عشائر أنجرة بمقاطعة السوق، واحتلت المرتفعات المحيطة، وأجبرت سكان بني يدر وبني حوزمار المجاورين على فعل الشيء نفسه بواسطة الوعود والتهديدات، حتى أصبحت تطوان خالية من المواد الغذائية.

لذلك، تآلفت جمعيات الحرفيين في المدينة، التي كانت تتمتع في المغرب بنفس النفوذ الذي كانت تتمتع به عندنا في العصور الوسطى، وهددت القنصلية الإسبانية، وأجبرت أخيرًا القائد عبد السلام البخاري على الإفراج عن الأسرى. ولتجنب المزيد من الصعوبات مع الإسبان الجائرين، أعاد القائد حفنة من الدوروس (*duros*) من جيبه الخاص. هكذا هم أمازيغ أنجرة، الذين يفرضون طوقاً قاسياً على سكان سبتة، والذين، بسبب قربهم المزعج من الأماكن التي يسكنها المسيحيون، يسهرون على حرياتهم وحقوقهم بشكل أكثر غيرة من قبائل الريف نفسها.

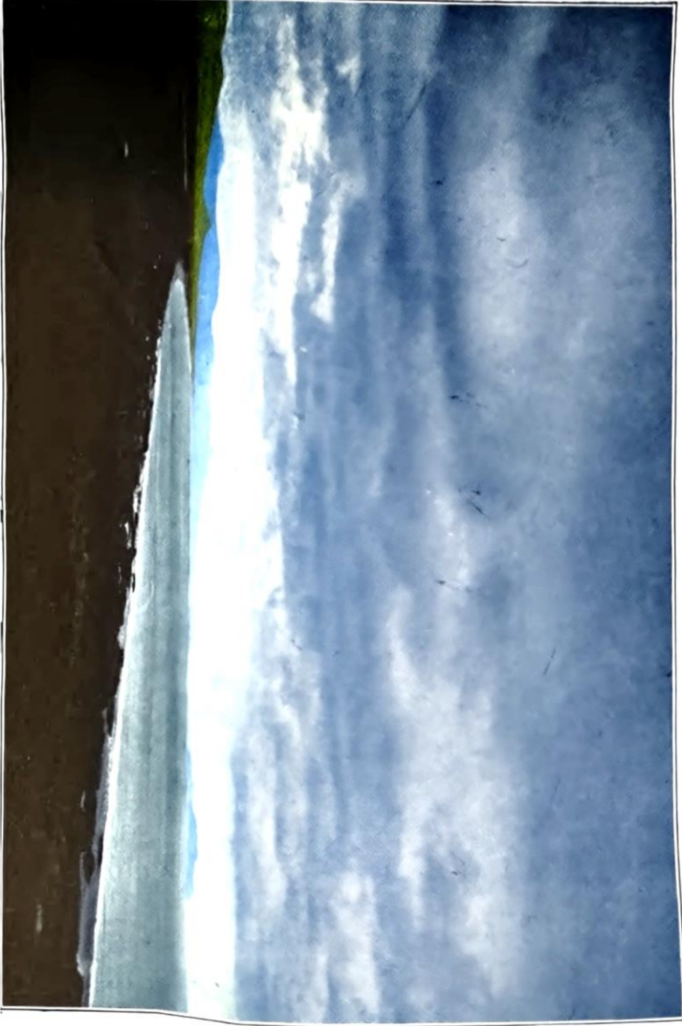
يوجد في منطقتهم، على بعد ساعتين جنوب غرب الجيب الإسباني، منجم للأنتيمون. وبعد مفاوضات استمرت لسنوات، حصل رجال الأعمال الإسبان على ترخيص للتنقيب مقابل دفع مبالغ زهيدة. وفي المقابل، تولت قبيلة أنجرة توفير المواد الغذائية وضمان الأمن لجميع العمال. لكن المال نفد من رجال الأعمال،

وعندما توقفت المدفوعات الشهرية، اضطر الإسبان إلى مغادرة المكان. ولا يزال المنجم مغلقاً حتى اليوم.

حول تطوان تسكن قبيلة بني حوزمار، التي تخضع لسلطة عمالة تطوان؛ وموطنها وادي مارتيل بأكمله، من الساحل وحتى وادي راس. كما أن قبيلة بني يدر المجاورة تخضع هي الأخرى للمخزن، وتبرم العقود وتحل النزاعات لدى حاكم تطوان، وتدفع الضرائب إلى الخزينة العامة هناك، وترتاد مساجد هذه المدينة. وتحتوي أراضي هذه القبيلة الصغيرة على معادن، وتحديداً فلزات نحاسية تظهر في عدة أماكن. في الماضي، كان استخراج المعادن الثمينة يتم في أربعة مواقع وتشحن عبر الشاطئ القريب.



قارب شراعي و زورق صغير، استخدمهما المؤلف في الإبحار لعدة أسابيع على طول ساحل الريف، في الخليج أمام باديس.



عاصفة رعدية فوق مضيق جبل طارق، التقطت الصورة من رأس الطرف. المرتفعات التي تظهر في الخلفية على اليمين هي مرتفعات سبتة التي تبعد 20 كيلومترًا.



عائلة مع حمار من بني سعيد.



علي، مرافقي الشخصي، وحصانه.

وبجوار بني حوزمار يعيش بني سعيد، الذين يستقر معظمهم على مقربة من سبتة. ومثل جيرانهم الغربيين، يمتلكون قطعاناً متواضعة من الماعز والأبقار، ويزرعون الحبوب، وينقلون الفحم الخشبي إلى تطوان على ظهور البغال. تربط بيعة فضفاضة هذه القبائل الثلاث بالمخزن، الذي كان يحصل على ضرائب منها، لكنه لم يتمكن منذ قرون من التباهي بنفوذ دائم. ينتمون إسمياً إلى عمالة تطوان. ويطل على منطقتهم المليئة بالغابات جبل مولاي

عبد السلام الذي يبلغ ارتفاعه حوالي 2000 متر. ويغطي الثلج حافته الحادة لمدة نصف العام، ويقع في منتصف ارتفاعه قبر الولي الشهير الذي أطلق اسمه على الجبل. يحظى بتبجيل كبير على طول الساحل الشمالي بأكمله، وتُقدم نذور لا حصر لها باسمه، وفي كل عام تتدفق الآلاف المؤلفة إلى المثوى الأخير لهذا الرجل صاحب المعجزات الذي يحظى بالتبجيل، وهي حشود متحمسة قد تهاجم بقوة أي كافر يصادفهم في غمرة اندفاعهم, الشيء الذي يعرض حياته للخطر. يتوافدون من جميع أنحاء المغرب، وليس الرجال والصبية المراهقون فقط كما هو الحال في أمور مشابهة، بل تشارك النساء والأطفال أيضًا في هذه المواكب الغريبة، رافعين الأعلام، على أنغام موسيقى الطبول والغيطة الصاخبة.

إن ضريح مولاي عبد السلام والحج إليه يشبهان إلى حد كبير الحج إلى مكة. فهنا كما هناك، يجب الالتزام بقواعد دينية معقدة، وتقوم أجيال من الشرفاء بحراسة المكان. وكما هو الحال في الحجاز، على الحجاج هنا أيضًا القيام بطقوس عديدة، ليست دائمًا منطقية، والفرق الوحيد هو أن الشمس في شبه الجزيرة العربية تحرق الرؤوس العارية بلا رحمة، بينما في جبال الريف يرتجف الأمازيغ المؤمنون من الخشوع والبرد.

تبدأ منطقة جبالة، التي تقع شرق بني سعيد - من الناحية السياسية ووفقًا لتصنيفات السكان المحليين -، وتضم قبائل غمارة باعتبارها القبائل الساحلية الوحيدة، وإن كانت ذات كثافة سكانية كبيرة للغاية وقوية ومحاربة، فقد تم ترحيل جزء كبير منها في عهد السلطان

إسماعيل، بعد قمع بعض التمردات، إلى أقصى جنوب المغرب، إلى وادي نون.

وقد اتخذت القبائل المعنية أسماءً أخرى، حتى غدا تحديد أصولها أمرًا عسيرًا لمن يجهل تراثها. غير أنّ قبيلة واحدة ما تزال تتيح للعارفين أن يستشفّوا جذورها؛ إنها قبيلة تستقر على ساحل المحيط الأطلسي، في عمق السهول الرملية الممتدة قبالة جبال الأطلس المتوسط. وبوصفها من أكبر القبائل، تضم قبائل غمارة عددًا هائلًا من المحاربين الأشدّاء، الذين كثيرًا ما يحتدم الخلاف بينهم إلى حدّ أن يحول بعضهم دون دخول البعض الآخر إلى أراضيه. ومع ذلك، فإن أسلحتهم تتجه بالإجماع ضد كل من يجرؤ على التعرض لهم، على نحوٍ يشبه ما هو قائم في منطقة الريف.

في حين يُستخرج النحاس عند بني يدير، والحديد (منخفض الجودة) عند بني سعيد، فإن منطقة غمارة تزخر بكميات هائلة من هذه الخامات. وتُستخرج عروق الرصاص السميكة المشبعة بالفضة وخامات الحديد الحمراء الجميلة من الجزء السفلي من منطقة بني بو بوزرع. يحتوي جبل بني سلمان المغطى بالضباب في قبيلة تحمل الاسم نفسه، وفقاً لعينات الصخور التي عُرضت عليّ، على رصاص قابل للتعدين من القاعدة وحتى القمة التي يبلغ ارتفاعها 1850 متراً. (لقد اصطحبني الغماريون إلى منطقتهم مرات عديدة، لكنهم منعوني دائماً من الوصول الى هذا الجبل). يقع جبل سلمان على الحدود مباشرة مع بني منصور، التي تنتمي إلى نفس الكونفدرالية. وبني سلمان يحرسون بعناية حقوق ملكيتهم، ويمنعون بشكل ناجح وصول المستثمرين الأوروبيين أو

قيام إخوانهم بتقديم عينات من المعادن للأجانب. وقد ظلوا حتى الآن غير متجاوبين مع أكثر العروض إغراءً من المضاربين الأوروبيين، الذين كانوا يرغبون في الحصول على ملكية الأراضي وبالتالي حق التنقيب في هذه البقعة الثمينة من الأرض. منذ عام 1908، بدأ الغماريون يتوددون ببطء إلى المنقبين الألمان، ولكن فقط لأنهم يرون أن الإسبان والفرنسيين المكروهين يلاحقونهم بإصرار! وتجدر الإشارة إلى أن يهود تطوان قد حصلوا على مناطق صغيرة على سبيل الرهن مقابل البنادق التي قاموا بتسليمها. لكن لا يمكن بيع هذه الأراضي أبدًا.

ولذلك أبرم اليهود عقودًا مع العائلات المقيمة في المناطق المجاورة، تنص على أن تقوم هذه العائلات بزراعة الحقول وتسليم حصص محددة من المحصول. وهذه علاقة مشابهة لتلك التي يتبعها التجار ورجال الأعمال الألمان على الساحل الغربي الخصب، حيث يحقق المالك المؤقت للأرض أرباحًا كبيرة. لا توجد طريق أكثر ازدحامًا من طريق غمارة، الذي يبلغ طوله نصف طول جبال جبالة. يمتد الساحل الصخري شديد الانحدار لمسافة 45 كيلومترًا، حيث تصب فيه مجاري نهرية شهيرة. وأكبرها وادي تكيساس الذي يحيط بجبل سلمان، والمياه الحدودية لواد لاو في الغرب، ووادي أورينغا في الشرق. جميع هذه الأنهار الثلاثة صالحة للملاحة بالقوارب الصغيرة في مجاريها السفلية، لكن لا أحد في القبيلة بأكملها يفكر في ذلك. بالكاد تدخل قوارب التجارة إلى المصب وتقطع مسافات قصيرة في اتجاه المنبع، لتتمكن من التحميل أو التفريغ بالقرب من القرى المحلية، أو لتكون

في مأمن من هبوب الرياح الشرقية والغربية العاتية. ومع ذلك، يبلغ عرض كلا النهرين الحدوديين أكثر من 40 مترًا، ولا يقل عرض نهر تكيساس عن ذلك بكثير! ومن بين المعابر القليلة التي تمر عبر نهر لاو، يعد المعبر المجاور لسوق السبت المزدحم أحد أعمق المعابر وأصعبها عبورًا التي عبرتها خلال رحلاتي التي استمرت ثلاث سنوات في السلطنة الشريفة. ولا يمكن عبوره على الإطلاق لعدة أسابيع في فصل الشتاء!

ولكن لا توجد أي بلدة ذات شأن في المنطقة بأسرها. في المقابل، توجد مجموعات عديدة من القرى الجميلة ذات المنازل ذات الأسقف المسطحة، المتراصة فوق بعضها البعض كأعشاش طيور السنونو على المنحدرات الخضراء المليئة بالأشجار. ويمكن تمييز الانتماء الدقيق لكل بيت على حدة. عند مداخل القرى، يجلس مسلحون يرتدون جلاليب بنية اللون، وبنادق ماوزر ومارتيني وغراس في متناول اليد، يراقبون جميع الطرق المؤدية إلى هناك من بعيد. وإذا لم يجدوا عملاً أفضل، فإنهم يحبون إظهار مهاراتهم في الرماية على جذوع الأشجار الجافة في التلال المقابلة. دائمًا ما يكون جميع رجال الدوار مستعدين للاندفاع من بيوتهم المنعزلة المحاطة الصبار عند أول نداء من هؤلاء الحراس. حيث لا توجد سلطة، يكون الجميع دائمًا في حالة تأهب، ولا يفارق أي رجل بندقيته ولو لدقائق، بل إنه من العادة في منطقة الريف بأكملها أن يأخذ المرء بندقيته معه حتى إلى الصلاة.

يتميز قلب منطقة غمارة بمناظر جبلية شبيهة بتلك الموجودة في منطقة تيرول وسويسرا والقوقاز والحبشة، والتي نادراً ما

يضاهيها أي مكان آخر في روعتها. لكن المنظر يبدو قاتماً من البحر، حيث توجد خلجان مظلمة، تشكلت من سواحل بازلتية حمراء أو بنية اللون (تحتوي غالباً على الحديد) تنحدر بشكل عمودي، وقد نحتت فيها أمواج البحر على مدى دهور طويلة خلجاناً فرعية عميقة. في الأعلى، على الصخور شديدة الانحدار، غالباً ما ترى أشخاصاً يرتدون عمامات يراقبون باهتمام كل قارب يمر. في كل مصب من مصبات الأنهار الصغيرة العديدة، وخاصة الكبيرة منها، يقف مسلحون دون انقطاع لحراسة الشاطئ، لمنع جميع البحارة الذين لا ينتمون إلى القبيلة نفسها أو على الأقل لا يرافقهم أشخاص مقربون على متن السفينة من النزول. يفعلون ذلك حتى في ظل العاصفة الشمالية الرهيبة. تشهد حطامات السفن العديدة، التي جرفتها الأمواج أو تطفو على مياه الخلجان الهادئة، على ساعات من المحن البحرية المريرة التي تعرض لها البحارة بسبب تراجع الضيافة التي تُعتبر مقدسة على اليابسة.

أنا أيضًا عرفت على ساحل غمارة معنى محن البحر. كنت أبحر في قارب صغير على طول الشاطئ، وكان طاقم السفينة يتألف من مساعدي الشخصي علي وخمسة ريفيين. كنا نستريح في ليلة مشرقة بالنجوم في خليج عميق ذي سفوح شاهقة، عندما ارتفعت فجأة موجة شمالية. لكن بسرعة مخيفة لدرجة أنه أصبح من المستحيل علينا الوصول إلى عرض البحر. لم يكن هناك في أي مكان في الخليج الضيق الذي ينحصر نحو الداخل أي مكان آمن يمكننا أن نرسو فيه، فقد كانت الجدران البازلتية شديدة الانحدار تهددنا من كل جانب. ضغط الربان على الدفة وأسنانه تصطك، وتلاشت أوامره دون أن يسمعها أحد وسط هياج العاصفة. كان

الشراع المتهالك قد انفصل وراح يندفع بقوة على سطح السفينة، لدرجة أننا خشينا أن نُقذف خارج القارب.

لففت الحبل بصعوبة حول ذراعي الأيسر، فانغرس الحبل بعمق في جسدي، لكن هبوب الرياح لم تترك لي أي فرصة لربطه حول أحد العوارض. وبيدي اليمنى، حاولت، مثل علي، أن أخفف من الصدمات المستمرة للقارب ذو الصاري الواحد على الصخور بواسطة المعاطف والبطانيات، وعندما نجحنا في الابتعاد قليلاً نحو عرض البحر، بدأنا نشطف المياه التي اندفعت إلى داخل القارب بواسطة قشور القرع. كان البحارة الأربعة يعملون على المجاذيف وهم يئنون ويلعنون ويصلون، حتى أن العوارض انحنت وكادت تنكسر، وأصدرت المجاذيف صريرًا مخيفًا. ربما لا يعلم سوى مولاي عبد السلام كم من النذور صعدت إليه من قشور جوزنا! وعندما بدا أن عنف العاصفة قد هدأ للحظة، ألقى أحد الرجال قطعتين كبيرتين من الخبز بعيدًا فوق قمم الأمواج كقربان موجه للولي الصالح التالي.



نساء من قبيلة بني يدر يبعن الحبوب في سوق السراس في تطوان.



أشخاص على شاطئ طنجة.



عبر البراري.



أربعة ريفيين، يسحبون قاربي «فلوكة» من نهر مارتيل.



المنعطف والشاطئ المقابل لتكيساس.

لكن سرعان ما رفعتنا قمم الأمواج الهائلة مرة أخرى ودفعت القارب نحو الشاطئ، في جهد شبه خارق. كانت الريح تنفخ الرذاذ المالح في وجوهنا، وكان الماء يتدفق من أجسادنا وكأنه جداول. بالكاد كنا قادرين على التغلب على صوت العاصفة الرهيب عندما كان ذلك ضروريًا. كان الوهج الفوسفوري للمياه المضطربة يظهر أحيانًا وجوهًا شاحبة ومشوهة، وكان الجميع يتساءلون وهم يئنون عما إذا كانت هناك نهاية في الأفق لهذه المعركة اليائسة. لو كان أي شخص قد توقف لثواني معدودة أو أظهر أي علامة على التعب، لكان ذلك قد أدى إلى هلاك الجميع. تُظهر مثل هذه المواقف ما تستطيع قوى البشر أن تفعله. مرت الساعة تلو الأخرى، وكنا نكافح حتى لا نتحطم على سواحل غمارة الصخرية. أخيرًا، أظهر ضوء الصباح الغيوم الكثيفة التي كانت تمر فوقنا. كان صراخ وأنين الريفيين قد توقف منذ فترة، وبركب مرتجفة وأسنان تصطك، كانوا لا يزالون يعملون بجرأة اليائسين على المجاذيف، عندما خفت قوة الرياح الشرقية الرهيبة. وبنفس السرعة التي جاءت بها العاصفة، سرعان ما هدأت الأمواج مرة أخرى. وهناك، سقطنا على أرضية الفلوكة، ونحن نرتجف من الإرهاق، وغطنا في النوم حتى تجاوزت الشمس ذروتها.

وعندما شرعنا، بعد ساعات، في إصلاح ما خلّفته العاصفة والأمواج من دمار في القارب الشراعي، كان أول ما خطر ببالي أن أسأل: أترى غزا الشيب شعري؟ وبعد أيام، حين عدنا إلى مصب نهر مارتيل الآمن، بذلنا جهدًا مضنيًا لنقنع عمال الميناء بأننا عدنا بأجسادنا، ولسنا فقط أطيافا.

كان الخوف من الهلاك بسبب الرياح الشرقية يلقي بظلاله على حياتنا.

بقدر ما يبدو الخط الساحلي قاتماً وعقيماً ومهدداً، بقدر ما تبدو المناظر الطبيعية الداخلية خصبة ومبهجة. وديان محاطة بجبال شاهقة تزخر بالحبوب، حيث تحدد أحواض الصبار الداكنة حدود الحقول الخصبة، وتطل أشجار التين ذات الأوراق الداكنة على سنابل الحبوب المتمايلة، فتفتح هذه الوديان مصباتها العريضة باتجاه الشمال. هنا على الشاطئ، يمكن العثور في أي وقت على أشخاص يعملون بنشاط مع اضطلاعهم بنوبات الحراسة المذكورة. إنهم يصطادون، أو يفرغون أو يحملون الفلوكات الخشبية البسيطة المجهزة للإبحار، أو يزرعون الحقول المجاورة. تمر مسارات مطروقة عبر شجيرات الدفلى صعوداً إلى المرتفعات، حيث تستمر كممرات للبغال إلى سلاسل الجبال المجاورة، وإلى العديد من القرى. وحتى ارتفاع 600 متر، تظللها شجيرات الدفلى دائمة الخضرة وأشجار الرمان، ثم أشجار البلوط والأرز والبندق.

تظهر حدائق شبيهة بالفردوس، مثمرة بمقدار تلك الموجودة في سهل فاس الميمون، على ضفاف نهر اللؤلؤ الخلاب. وتحيط بها نباتات الصبار الضخمة، وتمتد في الأعالي العديد من مزارع الكروم التي تعطي محصولاً وفيراً في شهر يوليو، وتعلوها أشجار البرتقال والتفاح. تتوج أشجار الأرز والسرو التي يبلغ عمرها قروناً سلاسل الساحل على علو لا تنمو فيه هذه الأشجار أبداً على الأراضي الإيطالية أو الإسبانية. على تربة فقيرة، تمتد بساتين

الزيتون الساحرة، أجمل من تلك المشهورة في مكناس، وكل شبر من الأرض يحمل ثماراً وفيرة - لكن المزارع بالكاد يستفيد من هذا الثراء الطبيعي الذي يمكن أن يجعله أسعد أفراد جماعته.

وهو، كأي ريفي آخر، يتجاهل الوفرة السخية التي تبارك بها الطبيعة الكريمة مرتفعاته وتلاله وسهوله. تتدفق حشود من شباب غمارة كل عام في فصل الصيف إلى طنجة بحثًا عن العمل، أو يبحرون شرقاً نحو الجزائر، ليعملوا في خدمة المعمرين الفرنسيين أو الإسبان الذين يكرهونهم، لكسب المال الذي يحتاجونه لشراء البندقية المتعددة الطلقات التي يحلمون بها، مع ذخيرتها، وحتى يتمكنوا من تخليص الفتاة التي يحبونها من وصاية والدها.

بالنسبة إلى قبيلة غمارة، يمكنني تقديم بيانات موثوقة إلى حد كبير: تمتد أراضيهم الإجمالية على مساحة تبلغ حوالي 1500 كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانهم بالتأكيد 200000 نسمة، وربما أكثر! وفي مجالي الزراعة والصناعة، ينتجون ما ينتجه إخوانهم في الشرق والجنوب.

في المناطق النائية المجاورة مباشرة لقبيلة غمارة، أي جنوب غربها بالضبط، تمتد مرتفعات قبيلة بني خنوس، التي تسكن منطقة أصغر قليلاً. في هذه الأراضي الأقل خصوبة، نجد رجالاً أشدّاء وأكثر جرأة، مستعدين دائماً لإطلاق النار. قبيلة شديدة العناد وذات سمعة سيئة، في صراع دائم مع القبائل المجاورة والمخزن، وهو تصرف لا يمكن تصوره من هؤلاء الرعاة الذين يحرسون قطعانًا من الماعز والأبقار. هم غالبًا أشخاصًا كئيبين وغير اجتماعيين، قاسيين كجبالهم. ولا يأتون إلا على مضض إلى المدن القريبة مثل

تطوان، القصر الكبير، أو وزان، التي تحيط جميعها على مسافة متساوية بموطنهم، ولا يصلون أبداً تقريباً إلى المدن الساحلية. ويفضلون بدلاً من ذلك التوجه إلى المزار المشهور الذي يرتفع على تلة خضراء. وعلى مقربة من هناك، عند جبل أفرنو، توجد قرية كبيرة، تشبه القرية السابقة بأسقفها المائلة التي تعشش عليها أعداد كبيرة من طيور اللقلاق. إن الطريق الذي يبدأ من تطوان ويمر عبر الشاون جنوباً وصولاً إلى فاس هو طريق جيد للبغال، ويستغرق الوصول سيراً على الأقدام بضع ساعات إلى قبائل مصمودة الأمازيغية الفخورة وبلدتهم الرئيسية الخلابة وزان، حيث يقيم شرفاء المغارب ذوو النفوذ الكبير. تشكل مرتفعات الأخماس خطوط فاصلة بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. هناك يعيش أتباع الريسولي، ذلك المحارب الكبير وزعيم قطاع الطرق ووريث الأولياء ومقاتل الإسبان. مزودين ببنادق ماوزر حديثة، يرافقونه دائمًا كأكثر أتباعه جرأةً ووفاءً. قام بتسليحهم تسليحًا ممتازًا عندما كانت الأوضاع جيدة، واحتمى بهم عندما ساءت، وهو يعلم أن سمعته تجذب إليه دائمًا كل من ينتمي إلى نفس القبيلة، مهما كان الخصم.

أما القبائل التي تقع جنوب القبائل المذكورة أعلاه، فهي لا تنتمي إلى جبالة ولا إلى الريف، وبالتالي فهي لا تدخل في نطاق هذا الكتاب.

يبدأ الريف الحقيقي عند وادي أورينغا وفقًا للتقسيم الإداري للمغرب. ويكتسي هذا الحد الشرقي لغمارة أهمية خاصة. فحتى هذا المكان تمتد لغة محمد، أما عندما تتجاوز هذه المنطقة، فإنها

لا تشترك إلا قليلاً مع العامية المغربية التي تُستخدم في المدن وعلى الساحل الغربي. ولم تتمكن العامية العربية من إزاحة الأمازيغية المحلية إلا بشكل محدود. لكنها لم تثبت أقدامها أبداً في النصف الشرقي من الريف، فهي تكاد تكون مجهولة هناك، ولا تُعرف إلا على مصبات الأنهار، في أماكن مثل سنادة، وباللكنة الجبلية فقط التي تكاد تكون غير مفهومة.

من غمارة شرقًا، حيث مطلع الشمس، مرورًا بواد لاو، لا يُسمَع إلا اللسان الأمازيغي؛ فقلّما يُحسن هؤلاء الرجال الذين أقاموا «في الخارج» العربية. وليس الاختلاف لغويًا فحسب، بل يتعدّاه إلى سائر المظاهر، إذ يفصل هذا النهر الجبلي بين عالمين متمايزين.

ومع أنّه—كما أُشير مرارًا—ينبغي، من الناحيتين الجغرافية والبشرية، عدّ الساحل كلّه من سبتة، أو على الأقل من تطوان إلى مليلية، جزءًا لا يتجزأ من الريف، فإنّ السلطات المغربية وسكان هذه الجهة قد أقاموا حدًّا فاصلًا واضحًا بين هنا وهناك.

فبينما يسود في الغرب الحايك الأبيض، مذكّرًا بلباس قبائل أمازيغية أخرى في جبال الأطلس، لا يعرف أهل الريف إلا الجلباب البني القصير؛ وهو رداء واسع الأكمام، تعلوه قلنسوة متصلة به.

فبينما يُستخدم في تلك الأنحاء غطاء رأس أبيض أو أي غطاء آخر، لا تُعرف هنا سوى العمامة البنية السميكة التي تُثبَّت على مؤخرة الرأس، وهي السمة الأكثر تمييزًا للريفيين. وكما هو الحال مع الملابس والأزياء التقليدية واللغة، تتغير جميع العادات

والمعتقدات خلف هذا الحاجز المتحرك. - يجب الاعتراف بأن التعبير المحلي "الريف الحقيقي" يفصل، لسبب وجيه، بين منطقة الريف وبقية الساحل الشمالي للمغرب.

هناك حقيقة واحدة أساسية: منذ أن دخلت قبائل الريف التاريخ، لم يتمكن أي غازي أجنبي من عبور هذا النهر.

وحتى حين اندفع الغازي عقبة بن نافع بحصانه إلى أمواج المحيط الأطلسي، يشكو إلى ربّه الذي جعل البحر حدًّا يقف عنده زحفُ عقيدة محمد، فإنّ هذه الربوع ظلّت عصيّةً على كل غازٍ. فعلى مرّ القرون، تكبّدت جيوش معاوية وغيرها—وقبلها وبعدها قوى شتّى، من تجّار صيدا النشطين إلى الأتراك والإسبان—خسائر فادحة في هذه الناحية من شمال إفريقيا، التي تبدو قاسيةً من ظاهرها، منيعةً في جوهرها، دون أن يطأ عدوٌّ واحد أعماقها.

وقد أسهمت السلاسل الجبلية الوعرة، والمرافئ البحرية الهادئة الخفيّة، في صدّ كل محاولة اقتحام. أمّا أهلها، قوم أشدّاء مولعون بالحرية، فلم يتردّدوا يومًا في خوض غمار المخاطر؛ إذ كانت القبائل تنتفض كالرجل الواحد كلّما مُسّت حريةٌ عزيزة، ولو تعلّق الأمر بفردٍ واحد.

وعلى الرغم من تفوّق خصومهم في كثير من الأحيان من حيث العُدّة والتكتيك، ظلّ الريفيون يندفعون إلى القتال بثباتٍ لا يلين، يرونه حقًّا لا مفرّ منه، مستعدين لبذل أرواحهم إن اقتضى الأمر. ولهذا كلّه، لم يعرف الريف قطّ وطأة حكمٍ أجنبي.

أبعدُ القبائل غربًا قبيلةُ متيوة، وبالتحديد «متيوة البحر»، تمييزًا لها عن «متيوة الجبل». ففي الداخل، بين الجبال المكلّلة بالغيوم، يقيم فرعٌ من هذه القبيلة؛ قومٌ لا يكادون يغادرون غابات البلوط التي تأويهم. هناك، في أعماقها، يتوارون في مساكن واطئة من طين، وراء جبل تزارين الذي يناهز ارتفاعه ثلاثة آلاف متر.

وعلى سفوحه يزرعون الذرة والفاصوليا البرية، ويرعون ماعزًا خشنَ الشَّعر. وهم قومٌ أشدّاء، على سجيّةٍ خشنة، يشبهون في طباعهم جيرانهم بني خنوس، إذ لا يشغلهم شيءٌ أكثر من صون حريتهم من كلّ شائبة. ومع ذلك، فهم على قدرٍ كبير من الفقر، حتى ليضطرّون إلى الاقتيات على الجوز والجذور أشهُرًا طويلة.

أما قبيلة «متيوة البحر» فهي أقل عددًا، لكنها مع ذلك أكثر انفتاحًا. وهم شعب صغير يمتهن الملاحة البحرية، ولا يختلفون في طباعهم عن جيرانهم من الجانبين، لطفا وفظاظة. ولا توجد حدود واضحة لموطنهم باتجاه الشرق، لأنهم يرتبطون بعلاقات أخوية وثيقة مع جيرانهم في تلك المنطقة. ورغم أنهم يمارسون الحراسة الشاطئية من حين لآخر مثل جميع القبائل التي تقع مساكنها البسيطة في الوديان التي تصب في البحر، إلا أنهم مضيافون للغاية. وهم يهاجرون كثيرًا إلى الأماكن البعيدة. وقد كانوا حتى وقت قريب أشجع قراصنة الريف، أما اليوم فهم بحارة ذوو خبرة كبيرة ومطلوبة، يتمتعون ببنية قوية وعضلات مفتولة وأجسام رشيقة، وشعر أشقر، ويمثلون نمط عيش سكان الريف.

كما أنّ موطنهم زاخرٌ بالمعادن. فواد "تيتول?" الهادر يحمل في مجراه رمالًا ذهبية، غير أنّ استخراجها عملٌ شاقّ قليل الجدوى لكثير من الفلّاحين؛ ومع ذلك، فهم في حاجةٍ إلى تلك الحبيبات اللامعة لتعويض ما تبخل به جبالهم. وتحتضن أرضهم أيضًا صخورًا زاخرة بالفضّة.

وقد درجوا، منذ زمن، على حمل قطعٍ من هذه الصخور النفيسة إلى صاغة الذهب والفضة في تطوان—وكان معظمهم من يهود البلاد—ليصوغوها نقودًا. غير أنّ حاملي هذه العينات الثمينة لم يكونوا يُفصحون قطّ عن مصدرها، فلا يذكرون أنّها من جبال متيوة. ومن أراد الوقوف على الحقيقة فعليه أن يستنطق رجال الريف الآخرين، ولن يُفلح دائمًا في ذلك؛ إذ كثيرًا ما يعجز حتى الوسطاء المقرّبون، خشيةً مبرّرةً من إفشاء أسرار بلادهم وبلاد إخوانهم للغرباء. فذلك شعورٌ مشتركٌ بين الجميع.

لا فرق، في نظرهم، أكان المرء من هذه الناحية من الريف أم من تلك، ولا شأن لهم أكانت جبالهم تخبّئ مناجم من أيّ نوع أم لا؛ فالريفيّ الأصيل يعرف متى يصمت إذا سُئل. وقليلٌ، من بين نحو خمسين ألفًا من أبناء القبيلة المتشعّبة إلى فروعٍ متباينة، من يتقنون لغة القرآن.

وهذا، في اعتقاد أهل الريف هو السِّمة الفارقة لمن يستحق هذا اللقب المشرّف؛ إذ حيثما تندثر اللغة أو تتبدّل، تبهت العادات وتفقد أصالتها. هكذا يخلص الريفيون، بفطرتهم السليمة، إلى هذا الحكم، وهو استنتاجٌ لا يخلو من وجاهة.

وبجوار قبيلة متيوة، الأكبر نسبيًّا، تمتدّ على مسافة تقارب ثلاثين كيلومترًا سواحلُ شديدةُ الانحدار، غنيّةٌ بالخلجان، تؤوي ثلاث قبائل أصغر شأنًا: بني جميل، وبني بوفراح، وبني يطفت؛ وهي قبائل لا يبلغ مجموع أفرادها عددَ أبناء متيوة.

وكما هو الشأن هناك، تنكشف خلف هذه السواحل الغامضة أوديةٌ بالغةُ الخصب، وسفوحٌ مزروعةٌ بالحبوب، وقممٌ جبلية تعانق السحاب، تكتسي بالخضرة حتى أعاليها. ولا يغيب عن العين في أي موضع أثرُ الجدّ والاجتهاد الذي يبذله الأمازيغ في عمارة أرضهم. وتنتشر دواوير آهلة، أشبه بتجمّعات قروية كبيرة، تقطنها عائلات قوية متماسكة.

ويُقال إن وادي مسطاسة، الفاصل بين متيوة وبني جميل، يحمل في مياهه شيئًا من الذهب. وعلى مقربة من الساحل، في مجراه الأسفل، تقوم بلدة مسطاسة على ارتفاع يزيد على مئتي متر فوق سطح البحر. وهناك تفصل أسوارٌ من الصبّار بين أفنية الأسر، وتتخلّلها مروجٌ خضراء وشجيراتُ عرعر. وتبدو الأغنام والماعز والبغال والخيول، وهي ترعى داخل البلدة في عنايةٍ واضحة، دليلاً على كثرتها ووفرتها.

وتشهد على أهميتها مساجدُ عدّة، يتميّز اثنان منها بمئذنتين بارزتين. ويقيم فيها على الدوام فقهاءُ يلتفّ حولهم الفتيان للتعلّم يوميًّا، كما تضمّ دكاكين وأسواقًا، وبوصفها مركزًا تجاريًّا معتبرًا، لا تخلو مسطاسة من رجالٍ يحسنون العربية، إلى جانب عددٍ من يهود الريف.

وخلف مسطاسة، ترتفع كتلةُ البازلت لجبل بو خشخاش حيث تحتضن أقصى امتداداته الشمالية بقايا أسوارٍ متهدّمة وأبراجٍ خاوية، تقف شواهدَ صامتة على فترةٍ وجيزة من الاستيطان الإسباني في هذا الموضع الساحلي.

في عزلةٍ موحشة، ينتصب هذا الصرح الذي شيّدته أيدٍ مسيحية، متسامقًا نحو زرقة السماء، وينعكس طيفه في مياهٍ تماثلها صفاءً. ويحضن الخليجَ الهادئَ نطاقٌ من صخورٍ شامخة، ترتفع من سطح الماء ما بين عشرين وأربعين مترًا، فتصدّ عنه الرياح الشرقية وتكفّ حدّتها. ومع ذلك، لم يعد يجرؤ اليوم إسبانيٌّ على توجيه قاربه نحو ذلك الموضع، أو تسلّق تلك المرتفعات الوعرة.

وترسم سلاسلُ الجبال الداكنة، في الوقت نفسه، خطًّا فاصلًا بين بني جميل وبني بوفراح. وعلى ساحلها، على بُعد أمتار قليلة شرقًا، تنتصب جزيرةٌ صخرية شاهقة تُعرف بجزيرة باديس، وهو اسم يوافق طبيعتها تمامًا؛ فهي كتلة صخرية صمّاء تقوم قبالة المصبّ الواسع لوادي تلا ن باديس، الذي يجفّ في الصيف، وترتفع من الماء ارتفاعًا عموديًّا من معظم جهاتها.

ومن الشرق، عبر رأس بابا شديد الانحدار، الذي يُعدّ بوابةً إلى أخصب أودية الريف، كان من الممكن لهذا الموضع أن يغدو مركزًا ملائمًا لتيسير التجارة وفتح أسواق الداخل. غير أنّ قِصر النظر السياسي، وما اتّسم به السلوك الأوروبي من تعالٍ، حالا دون أيّ تقاربٍ حقيقي بين الريفيين والإسبان؛ فلم تلتقِ طرقهم إلا

على مسافةِ طلقةٍ ناريةـــــوحينها كانت البنادق أسرعَ قولًا من كلّ تفاهم.

وعلى الضفّة المقابلة تمامًا للجزيرة، إلى الجنوب من المضيق البحري الضيّق، يمتدّ وادي تلا ن باديس عدّة كيلومترات في عمق اليابسة. ومن هنا تتشعّب المسالك الساحلية نحو أدوز وأجدير، ثم إلى خليج النكور الفسيح، قبل أن تواصل امتدادها بمحاذاة الشاطئ في اتجاه مليلية.

وفي هذا الموضع كانت تقوم قديمًا مدينة باديس الزاهرة؛ غير أنّ القذائف الإسبانية أحرقت معالمها إبّان احتلال صخرة باديس، فانسحب أهلها إلى الداخل، حيث شيّدوا بلدة سنادة الصغيرة الجميلة، الغنّاء بحدائقها، على مسيرة أربع ساعات.

واليوم، لم يبقَ من باديس أثرٌ يُذكر؛ فلا أطلال ولا أنقاض حجرية تدلّ على أنّ هذا المكان كان يومًا ميناءً نابضًا بالحياة، يؤمّه تجّار فاس ويزدهر بحركتهم.

لم يعد سكان الساحل المقيمون هنا يدركون اليوم أنّه يمكن الوصول من هذه النقطة إلى العاصمة في أقل من أربعة أيام، بينما تستغرق قوافل التجارة القادمة من فاس إلى أقرب ميناء، يليش، نحو خمسة أيام في أفضل الظروف، وستة أيام للوصول إلى طنجة، وأكثر من ذلك عند سوء الأحوال الجوية. وقد تدهورت طرق القوافل نتيجة عدوانية بعض سكان المناطق النائية. ومع ذلك، فقد سلكت بعثةٌ من ملك فرنسا لويس الرابع عشر، بقيادة

رولان فريجوس، هذه الطريق بالذات قبل نحو 250 عامًا في رحلتها إلى سلطان فاس آنذاك.

ولا يكاد يلوح من بين تلك الخضرة الوارفة سوى ضريح سيدي بو يعقوب البادسي، أبيضَاً متلألئًا، تحيط به هالةٌ من التبجيل، ولا سيّما عند البحّارة. وهو بناءٌ مكعّب كبير تعلوه قبّة، ليست مكلّلةً بهلال، بل مطليّةٌ بالأخضر، ويضمّ موضعًا للصلاة ومسكنًا لشريف حيّ يُقال إنّه من نسل صاحب الضريح.

ولا يُؤذى غريبٌ يقصده، ما دام أنّه يُظهر أنّه في طريقه للتبرّك بسيدي بو يعقوب؛ سواء أكان يرجو سلامة الرحلة، أم يحمل صدقة، أم يبتغي قضاء حاجةٍ لدى القائمين عليه. فله دائمًا أن يعبر آمنًا دون عائق. ولا يفوّت البحّارة، من جهتهم، فرصة التوقّف عنده لإقامة الأدعية والتضرّعات.

قبل قرنٍ من الزمان، كان جيشُ السلطان سليمان يُعسكر في القلعة المتهدّمة القائمة على قمة رأس بابا، وكان يستعين بالريفيين أنفسهم شركاءَ له في حراسة المنطقة من هجمات المسيحيين. وكان في مقدورهم، متى شاءوا، قض مضجع حامية باديس بنيران بنادقهم، ولم يكونوا أقلّ بأسًا في ذلك من الريفيين، الذين تولّوا ــــ ولا يزالون ــــ نوبات حراسةٍ صارمة على الصخرة، على مرمى حجرٍ من الجزيرة.

ويتكوّن هذا الحرس الريفي من رجالٍ قدموا من مختلف القبائل المجاورة، يحمل كلٌّ منهم بندقيته ذات الطلقات الخمس. وهم يقظين جداً، لا يدعون إسبانيًّا يطأ البرّ أو يمكث فيه برهة. وويلٌ

لمن تسوّل له نفسه عبور المضيق الضيّق بقاربه؛ فلن يُمهل حتى يبلغ الشاطئ، إذ قلّما تخطئ بنادق الريف أهدافها.



وادي تكيساس بالقرب من سوق الأحد.



منحدر صخري متآكل يحتوي على صخور غنية بالحديد، غمارة.



منطقة من متيوة البحر: تجمعات قروية على سفح الجبل.



النشاط الرعوي في منطقة متيوة البحر.

إلى الجنوب من المناطق المتقدّم ذكرها، تنبسط أراضي القبائل الجبلية الشرسة. وفي طليعتها قبيلة زرقت، وخلفها تتوالى قبائل أصغر شأنًا: بني بشير، ويليهم غربًا بنو سدات، ثم قسمٌ من بني خنوس، فبنو بونصر وتغزوت في أقصى الجنوب.

ويستقرّ أهل زرقت في رقعةٍ واسعة من الأرض، في حين لا تكاد القبائل الأخرى تضاهيهم عددًا ولا امتدادًا. وجميعها عشائر مقاتلة ذات بأس، غير أنّها تظلّ أقلّ تسليحًا من القبائل القاطنة قرب الساحل، حيث تنشط تجارة السلاح المهرّب وتزدهر.

قومٌ مسالمون متواضعون—ما داموا يُتركون وشأنهم—يرعون ماعزهم، ويقتاتون على الجوز والعسل البري، ونادرًا ما يغادرون جبالهم، تلك الغابات الكثيفة من البلوط والفلّين. وتضمّ البادية الداخلية مساحاتٍ شاسعة من الأحراش التي لا تُحصى، وسهولًا تكتظّ بالأشجار والشجيرات المتشابكة.

ولأغراض التسميد والقضاء على الأعشاب والنباتات التي تُضعف مردود الأرض عامًا بعد عام، يعمد السكان إلى إحراق غطاء السهول النباتي بعد الحصاد، فيتصاعد دخانٌ كثيف يعلو الجبال.

وتكمن في هذه السلاسل الجبلية ثرواتٌ كامنة لا تحصى، غير أنّها تظلّ بانتظار من يُحسن استثمارها؛ إذ إنّ أهل البلاد يفتقرون إلى رأس المال، فضلًا عن روح المبادرة والمثابرة التي يتطلّبها العمل المنجمي. ولا سيّما أنّ جبال تغزوت تخترقها عروقٌ من خامات الفضة تُعدّ من أجود الأنواع.

ومن المعلوم أنّ كمياتٍ كبيرة من قضبان الرصاص المستطيلة تُنقل من هذه الديار شمالًا نحو الساحل، وجنوبًا حتى نواحي غياثة، حيث تُستعمل في صناعة القذائف. كما تعتمد عليها قبائل الريف—التي لا تكاد تهدأ لها حرب—في ملء فوارغ الرصاصات المصبوبة حديثًا.

ومن أين يستمدّ صنّاع السلاح في تطوان ذلك المعدن العجيب اللّيّن، الذي يُصاغ ويُشحذ ببراعة؟ إنّه يُستخرج من جبال هذه القبائل، من تلك السلاسل الممتدّة التي لا يُدرك لها حدّ، تشقّها الأودية والأنهار، وتتناثر في أرجائها قرى ذات مساكن متينة راسخة.

لكن كلما توغلنا في أحشاء البلاد، ازداد وعورةُ تضاريسها وتعذّرُ بلوغها، واشتدّ اعتزازُ أهلها بنمط عيشهم البسيط. فلم يعرف هؤلاء السكان، على امتداد الألفيتين الماضيتين، خضوعًا لسيادةٍ أجنبية، أياً كان مصدرها؛ لا هم ولا القبائل الأخرى الممتدة شرقًا. ولم تطأ أقدامُ جيوش السلاطين ولا جموع المستعمرين هذه الجبال والوديان.

وعلى الرغم من وجود مسلكٍ يفضي إلى فاس، ما تزال هذه الربوع، إلى يومنا هذا كما كانت منذ قرون، أرضًا قاسية غير مروّضة؛ تختزن أراضي خصبة غير مستغلّة، وثرواتٍ معدنية عسيرة المنال. ففي أرجاء جبال الأطلس، من وادي درعة إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط، تنتشر مناجم واعدة تضمّ النحاس والحديد والفضة والرصاص والأنتيمون والذهب والمنغنيز، بل

وحتى الأحجار شبه الكريمة. غير أنّ هذه الثروات قلّما تجتمع بوفرةٍ مماثلة لتلك التي تزخر بها منطقة الريف.

كما سبقت الإشارة، دأب صاغةُ الذهب وتجارُ الفضة في تطوان وأدوز والشاون، بل وحتى طنجة، منذ أزمانٍ بعيدة، على البحث عن مصادر زهيدة للفضة. وكانوا يحصلون على أكياسٍ صغيرة من هذا المعدن النفيس من رجال الجبال، الذين يفدون ليلاً، في جلاليب بالية ممزّقة على نحوٍ يثير الشفقة.

فأهالي زرقت وتارجيست وتاغزوت يحملون ما بحوزتهم من معادن ثمينة في رُزمٍ من الحشائش المجدولة، مخيطة داخل أسمالٍ مهترئة، ليبادلوها بما تفتقر إليه بلادهم. وفي مقدمة ما يطلبونه الذخيرة، ثم حُليّ النساء، والكتان، والشموع، وعلب الثقاب، والسكر، والشاي.

ويعلم الجميع أن أرضهم تزخر بمعادن مطلوبة، غير أن السؤال عن مواضعها ضربٌ من العبث؛ إذ يكتفون بالقول إنها عطايا سخية من مجهولين، أو يلوذون بالصمت التام—على عادة المتيوي وأمثاله. وتحت جنح الظلام، يتسللون إلى حومة الطالعة، الحيّ المعروف بسمعة نسائه السيئة.

ثم يتقدّم الوسيط، فيفحص تلك القطعة الصغيرة بعينٍ خبيرة، ويشرع في مساومة ابن الجبال المعمَّم، حتى يستقرّ الأمر على ثمنٍ يرضي الطرفين. يدفع المال، ثم يفترقان في هدوءٍ تام، كما أتيا، متوارِيَين في أزقة تطوان الضيّقة المعتمة. وهكذا دأب الريفيون منذ أمدٍ بعيد، وما زالوا على نهجهم إلى اليوم.

ولكن لنعد إلى الساحل.

إلى جانب بني يطفت الشجعان، تقطن قبيلةُ بقيوة، وهي جماعةٌ وازنة لا تقلّ بأسًا عن جيرانها، تضمّ عددًا كبيرًا من العائلات الممتدة. وليس من المبالغة القول إن هذه القبيلة، التي تتوسّط السلسلة الجبلية، إلى جانب قبيلة آيث ورياغر في الشرق، تُعدّ من أشدّ قبائل الريف بأسًا وأكثرها نفوذًا على الساحل الشمالي للمغرب.

ففي هذه الربوع، أكثر من سواها، ما تزال العادات عصيّةً على التبدّل، والهوية الأمازيغية صافيةً في دمائها ولسانها. ويتميّز رجال الريف الأوسط بجرأةٍ لافتة وروحٍ قتالية ميّالة إلى المغامرة، وهم على استعدادٍ دائم للدفاع عن مواقفهم ولو كلّفهم ذلك حياتهم.

ومع ذلك، فعلى الرغم من شدة بأسهم ونزوعهم إلى المواجهة، وما توارثوه من تقاليد تمجّد جرأة الأسلاف، فإنهم يتحلّون بكرمٍ أصيل وروحٍ اجتماعية ودودة.

على مسافةٍ غير بعيدة من الساحل تنتصب بلدةُ أدوز الكبيرة، وقد بدت لي من على ظهر السفينة—إذ لم يتسنَّ لي دخولها—كأنها تجمّعٌ فسيح تغمره الحدائق الخضراء، يبرز بوضوحٍ على خلفيةٍ داكنة لجبل شامخ.

وتُعدّ هذه البلدة ملتقى لأبناء الريف القادمين من طول الساحل ومن أعماق الداخل البعيدة؛ ففيها مساجد ومدارس وخان، وأزقة رحبة بحقّ، تتراصّ على جانبيها الدكاكين في انتظامٍ يذكّر بمدنٍ عامرة.

ويجري نهرا غيس ونكور[4] عبر امتداد المجال القبلي، غير أن مصبّيهما يقعان ضمن الساحل التابع لآيث ورياغر، التي تبسط نفوذها على مسافة طويلة من الطريق المتجه جنوبًا نحو تازة. أما غابات البلوط والفلّين، شأنها في سائر أرجاء الريف، فتغطي مساحاتٍ شاسعة، وتأوي قطعانًا وافرة من الخنازير البرية.

إن العسل المستخرج من تلك الديار وفير لا يُحصى، ويفوق في جودته كلَّ عسلٍ يُنتَج في سائر مناطق الريف. وكذلك تحظى ثمار الزيتون والرمان وقرون شجر الخروب الغليظة، التي تنمو في المرتفعات، بالإقبال نفسه.

ويحمل هؤلاء، الذين كانوا يومًا قراصنة، شحناتٍ وافرة من هذه المنتجات إلى تطوان ومليلية وطنجة، بل وحتى إلى جبل طارق، غير أنهم يمتنعون عن نقلها إلى جزيرتي باديس والنكور القريبتين. والعجيب أن دخول مليلية لا يثير حفيظة ابن الريف المقاتل؛ إذ يجد فيها دائمًا من هم من بني جلدته. أما تجنّب تلك الجزر فقد غدا تقليدًا راسخًا منذ قرون: سار عليه الآباء والأجداد، فيمضي عليه الأبناء، ولن يحيد عنه الأحفاد.

ما قيل عن البقيويين وعن أرضهم يصدق أيضًا على الورياغريين، غير أن أراضي هؤلاء تبدو أكثر خصوبة، ورجالهم أشد بأسًا في ميادين القتال، كما تتمتع قبيلتهم بنفوذ أوسع

---

[4] نهرا غيس والنكور لا يخترقا أراضي قبيلة بقيوة

على السكان المحيطين بها مقارنةً بجيرانهم الغربيين. ولهم، فضلًا عن ذلك، قصة تميّزهم عن غيرهم.

فعلى الرغم من ضيق شريطهم الساحلي إلى حدّ كبير، فإنهم ينتشرون في مناطق داخلية شاسعة. وهم على قدر لافت من الكثرة، إذ يُقدَّر عددهم بنحو ربع مليون نسمة، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف عدد البقيويين[5]. ويتّسمون بجمال الهيئة وجاذبية الملامح، ويزعمون جميعًا انحدارهم من السلف الذي يحملون اسمه.

وبفضل ثروتهم الطائلة، المتأتية من كثرة المزارع المنتشرة في أراضيهم، استطاعوا أن يجهّزوا أنفسهم تجهيزًا كاملًا بأسلحة حديثة. وقد أتاح لهم ذلك، إلى جانب شجاعتهم المتدفقة، أن يتبوؤوا مكانة قيادية في مختلف المشاريع المشتركة.

لقد كانوا هم من بادروا إلى تنظيم ودعم مقاومة رجال قلعية في وجه الأعمال العدائية الإسبانية، فكانت حركتهم السبب في إلحاق أول هزيمة قاسية بالروكي بوحمارة، حين كان مقيماً في قصبة سلوان، ثم ما لبثوا أن جرّدوه نهائيًا من أي موطئ قدم في المنطقة.

وقد بلغ من مكانة آيث ورياغر وهيبتهم أن صاروا موضع احترام كبير، إلى حدّ أنهم يجرؤون على تأديب القبائل المتمردة في المناطق المجاورة.

ومن العسير أن يتسامح أحد في عموم الريف مع مثل هذا السلوك! فعندما كنت في أجدير، أفاد آيت أو ذرار أنهم، قبل أيام قليلة فقط،

---

[5] أرقام وهمية

أجبروا آيث بو ذاوذ، بقوة السلاح، على وضع حدّ لخصوماتهم المزمنة مع جيرانهم. غير أن آيث بو ذاوذ ينتمون إلى قبيلة تمسمان، وهم مستقلون عن آيث ورياغر.

لقد أسهمت الكثافة السكانية، ووجود عدد كبير من البلدات، إلى جانب النشاط الملحوظ في التبادل مع العالم الخارجي، في جعل هذه القبيلة من أكثر قبائل البلاد انفتاحًا وتسامحًا. كما يفسّر ذلك احتضانها، إلى جانب قبيلة بقيوة، لعدد وافر من المنشقين على أراضيها، وهم جنود إسبان فارّون من الجزيرتين.

وهم حُرّاس جبل حمام الشهير، ذلك الجبل المثير للجدل والزاخر بالأساطير، والمصون بعناية فائقة. يذودون عن أرضه بغيرة شديدة في وجه كل من يطمع فيها، سواء أكان من المسيحيين أم اليهود، أم حتى من أبناء البلاد أو من المخزن. ونادرًا ما وطئت قدمُ أجنبية أرضَ هذا الجبل الصخرية ذات الطبيعة البلورية.

كان مهندسُ المناجم الإسباني ميلغاريخو قد زعم، ذات مرة في طنجة، أنه زار منطقة الريف، فقوبل كلامه بهزّ الرؤوس استنكارًا من قِبل كل من خبر البلاد وأقام فيها زمنًا. ثم تمادى فادّعى أنه فحص أيضًا منحدرات جبل حمّام بحثًا عن المعادن، فعدّه العارفون بالأحوال قولًا لا يخلو من تعمّد الكذب.

غير أنني، حين رسا قاربي لاحقًا في خليج النكور، تحقّقت من حقيقة الأمر، فعلمت أنه، بعد مفاوضات دامت أسابيع، وبمساعدة حثيثة من بعض المنشقين المقيمين في البلاد ــــ مقابل أجرٍ باهظ ــــ أُذن له بالعبور من جزيرة النكور إلى الشاطئ. لكنه لم يستطع

قطّ تجاوز الشريط الرملي العريض الذي يطوّق الساحل هناك في شكل نصف دائري، ولم يُسمح له أبدًا بالتوغّل داخل البلاد.

ولم أُوفَّق أنا أيضًا في الاقتراب من جبل حمام، على الرغم من أن كثيرًا من الريفيين كانوا يعدّونني أخًا لهم، وقد غمرني الجميع بكرم الضيافة. ومع ذلك، كان الورياغريون يحرصون دائمًا على ثنيي عن التوغّل داخل البلاد، عبر وادي غيس أو النكور، نحو سفوح جبل حمام الغنية بالمعادن.

تمارس هذه السلسلة الجبلية جاذبيةً بالغة على كبار الرأسماليين الأوروبيين؛ فالإسبان والفرنسيون والإنجليز والألمان والهولنديون، جميعهم يسعون إلى نسج العلاقات وبسط النفوذ طمعًا في الحصول على حقوق الامتلاك وتراخيص التنقيب، غير أن محاولاتهم تبوء في الغالب بالفشل.

وحده الاتحاد الألماني لمناجم المغرب يلقى قدرًا أقل من العداء، ومع ذلك لا يستطيع أن يفاخر إلا بنجاحات محدودة، ويعود الفضل في ما تحقق منها إلى وقوف الأخوين مانسمان إلى جانبه. فاسمهما، الذي يحظى بصيت لافت في مختلف أنحاء المغرب، ويثير في الوقت نفسه حذر رجال الأعمال الفرنسيين وممثلي الحكومة، قد أتاح له بعض التقدم، وإن ظلّ محدودًا.

أما ما كان، زمنًا طويلًا، عامل الجذب الأكبر، فقد تلاشى منذ عهد بعيد؛ إذ كانت السيدة فاما تروي أن الجبل كان يتلألأ من كل جانب ببريق الذهب الخالص.

غير أنّ العينات التي جُمعت لم تُسفر عن ذلك المعدن الأحمر النفيس، بل كشفت عن كبريت عادي، وهو ما انطبق كذلك على معظم الأحجار المستقدمة من جبل حمام. وبهذا، فقد الجبل جانبًا كبيرًا من هالته الأسطورية وقيمته المتخيَّلة.

ومع ذلك، تظلّ المنطقة برمّتها جديرة بالاهتمام؛ ولا سيما جبل كوين. ففي أقصى الغرب، ضمن مجال فرقة آيث كمون، حيث يطوّقه نهر النكور وتحدّه مرتفعات تارجيست، يقوم ضريح سيدي بوخيار الموقَّر، في منطقة غنية برواسب الرصاص والحديد. وإلى الغرب منه تنتصب جبال يهيمن عليها آيث أوذرار، وعلى إحدى أعلى قممها، وبين أشجار السرو وبساتين الزيتون، تقوم زاوية هذه الطريقة التي منحت المرتفعات اسمها.

كما يضمّ جبل سيدي بوخيار، في مواضع متعددة، طبقات سميكة من النحاس، مما يزيد من الأهمية الجيولوجية لهذه الربوع.

فهي تتلألأ بأطياف الأخضر والبني في كل مكان، وكلما انكشفت طبقة التربة التي تغطيها، ولا سيما في المناطق الأعمق الغنية بالنباتات، ظهر المالاكيت البديع ضمن الكوارتز. وإلى الغرب، تنتصب قمم جبل شاهق تعانق السماء، عُرفت منذ زمن بعيد باحتوائها على رواسب الرصاص وخامات المنغنيز، وربما النحاس أيضًا—بحسب ما يرويه السكان المحليون. أما أنا فلم أعثر على شيء من ذلك، غير أنه لا يُستبعد أن تمتد هذه العروق من الجبل المجاور.

إن هذه الثروة المعدنية الهائلة وحدها تمنح منطقة الريف مكانة مرموقة داخل السلطنة الشريفة، وستوفر مزايا تجارية هائلة لمن سيتولى الحكم هناك يوماً ما بفضل قوته وروح المبادرة. لكن قبائل الريف لا تقدر قيمة هذه الكنوز المدفونة، لا قبيلة آيث ورياغر ولا متيوة ولا تمسمان ولا تارجيست ولا أي قبيلة أخرى. فما فائدة الذهب والفضة إذا كانتا كامنتين في الصخور؟ إنهما عديمتا القيمة لمن يعيش فوقهما، طالما أنه يحرس الكنوز خوفاً من الغرباء، وينطلق هو نفسه إلى الأفق ليقضي حياة غير مستقرة بعيداً عن وطنه من أجل حفنة من النقود المعدنية!

يمتدّ خطٌّ ساحليٌّ قصير يربط آيث ورياغر بالبحر، محتضنًا نحو ثلاثة أرباع خليج النكور الواسع. ويتخذ هذا الخليج شكل نصف دائرة، بعمقٍ استثنائيّ، حتى إن مرساة الباخرة التي ترسو فيه أسبوعيًا نادرًا ما تستقرّ في قاعه الصخري. ونتيجةً لذلك، تظلّ السفينة تنجرف وفق التيار السائد في تلك اللحظة؛ بل قد يحدث زمن الجزر أن تقترب بشكلٍ مقلق من الجزيرة، مما يضطرّ الطاقم إلى تشغيل المحرّك لاستعادة مسافةٍ آمنة.

ويحدّ الخليجَ من الشرق والغرب سلاسلُ جبلية شاهقة، بينما تنبسط جنوبًا سهولٌ لطيفة الانحدار، تتشعّب فيها مصبّات نهري النكور وغيس. وتغطي هذه السهول أشجارٌ متناثرة، وتخترقها مسالك الدواب. أمّا المنحدرات، فهي مرصّعة بأضرحة أولياء وزعماء متفاوتي الشأن، يُروى أن معظمهم قضى في معارك ضدّ المسيحيين.

وفي الأعالي، تلوح بيوت أجدير في الأفق؛ وهي، على الأرجح، من أكبر بلدات الريف، تضمّ مساجد ومدارس ومتاجر .ولا ينقص المكان سوى المتسولين، الذين يصعب العثور عليهم عادةً على الساحل الشمالي، ولا الحي اليهودي المعتاد.



صخر طيني بلوري ظاهر على السطح في بقيوة.



تعرية حوض وادي مارتيل. التكوينات الطينية بمنطقة بني حوزمار.



بئر في سهول أنجاد، بالقرب من قصبة العيون الشرقية.



مصب نهر تلا ن باديس. التقطت الصورة من أعلى جزيرة باديس.

هناك زقاق ضيق مليء بالمنازل الطينية المنخفضة المطلية باللون الأزرق المائل للبيضاء. وفي أرجاء الريف، حيث يعيش عدد قليل من السكان في تجمعات متقاربة، يقيم اليهود أيضًا جنبًا إلى جنب مع غيرهم من الأهالي. خاضعون وخانعون، بل وذوو لطف متملق، يستغلون دائمًا فرص النهب التي يوفرها المسلمون ليحصلوا على الثروة، غير أنّهم كانوا يحرصون على إخفاء ما يملكونه ويتظاهرون دائمًا بالفقر أو قلّة الحيلة. جميع تجار أجدير تقريبًا هم يهود[6]، وغالبًا ما يبحرون برفقة مرافقين في قواربهم إلى الجزر المحتلة من طرف الإسبان للتسوق. يسمي السكان المحليون مرسى المجاهدين، ذلك المرفأ، حيث أحدثت المدافع الإسبانية ثغرات في المباني خلال النزاعات مع العدو اللدود.

[6] معلومة مبنية على معلومات خاطئة

يمتدّ الخليج على عرضٍ يتجاوز خمسة عشر كيلومترًا، وعمقٍ يقارب عشرة كيلومترات، وهو مكشوفٌ تمامًا للرياح الشمالية، حيث ترسم رغوةٌ بيضاء كثيفة حدًّا دائمًا يفصل زرقة الماء عن اليابسة. ولا سيّما حين تعصف الرياح الشمالية العاتية، يغدو اختراق الأمواج الهائجة مغامرةً محفوفةً بالمخاطر.

وفي مثل هذه الظروف، يبدو أسلوب قوارب أهل الريف لافتًا وغريبًا. إذ يحمّلون فلوكاتهم على اليابسة بكل ما يلزم، ثم يدفعونها حتى تبلغ الماء. بعدها يخلع الرجال ملابسهم، ويقبضون بأسنانهم على حبالٍ من اللحاء، تُربط أطرافها الأخرى بالقارب، ويندفعون سباحةً عبر الموج. وحين يبلغون مياهًا أكثر هدوءً، يصعدون إلى القارب الذي جُرّ إلى هناك، ويستأنفون التجديف.

غير أنّه حين يشتدّ هيجان البحر، لم تعد تلك القوة كافية للتغلّب على أمواجه العالية التي تفوق طول الإنسان. عندئذٍ يندفع اثنان منهم سباحةً أبعد عبر الرغوة البيضاء، والحبال بين أسنانهما، فيما يلقي الآخرون بملابسهم في القارب، ويدفعونه وهم يصرخون ويحفزون بعضهم بعضاً، مستنجدين بكلّ الأولياء الذين يعرفونهم. يدفعونه خطوةً بعد أخرى إلى الأمام، بينما يحاول السباحون في المقدّمة كبح تراجعه، ممسكين بالحبال، كي لا تجرفه الأمواج إلى الخلف .إنها مهمة شاقة لا تنجح دائمًا، لكن الأسلوب يعكس شجاعة وقوة أحفاد هؤلاء القراصنة.

إلى الجنوب من القبائل الكبرى المذكورة آنفًا، تمتدّ سهولٌ خصبة تُبَسِّط وجه الأرض، وقد اكتست بزروعٍ وافرة من الشعير

الأخضر والذرة والفاصوليا والبطيخ، وتتناثر فيها أشجار الفاكهة والدفلى والصفصاف. وترعى في مروجها اليانعة قطعانٌ قوية من الماشية، إلى جانب أعدادٍ لا تُحصى من الماعز المعقوفة الأنوف، فيما تختزن الجبال المحيطة خاماتٍ معدنية متنوّعة.

وفي هذه الربوع تقطن قبائل آيث عمارت إلى جانب آيث مزذوي وجزناية. وهم أشدّ انعزالًا من جيرانهم على الساحل، ميّالون إلى القتال، دائمون في خصوماتهم مع القبائل المجاورة، وتكاد سماتهم تُشبه سمات سائر قبائل الداخل. ومع ذلك، لا تنقطع صلاتهم بالساحل، إذ يحصلون منه على ما تعجز أرضهم عن توفيره.

وكحال آيث ورياغر، يقصدون أحيانًا مليلية، حيث يُبدون امتعاضًا، على نحوٍ ساخر، من أنّ حكمة الله اللامتناهية ورحمته الواسعة لم تشأ أن يغمر البحر تلك الصخرة وما حولها.

ونادرًا ما يمدّون سوقها بسلعهم، إذ تثقلهم مشقّة المسافة، فضلًا عمّا تفرضه القبائل الواقعة في الطريق من رسومٍ على المرور. وكما هو الشأن في خليج الحسيمة، تنبت في الأودية العميقة نباتات الحلفاء ونباتات الأراضي المالحة، في دلالةٍ واضحة على طابعها شبه الجاف.

وعلى الرغم من اتساع أراضيهم، فإن القبائل الثلاث مجتمعة لا تقدّم سوى نصف عدد المحاربين الذين يقدّمهم جيرانهم آيث ورياغر وحدهم؛ ذلك أنّ قراهم متباعدة، قليلة العدد، صغيرة الحجم. ومع ذلك، لا يقلّون عن سواهم ممّن يفخرون بالانتماء إلى الريف شجاعةً وبأسًا في القتال.

وإلى الجنوب تمتدّ مساكن قبيلة جزناية، التي سيُفصَّل الحديث عنها لاحقًا مع قبيلة مطالسة؛ غير أنّ انتشار الخيامِ وسطها يوحي بطابعها الميال الى الترحال. أمّا على الضفة الشرقية لخليج النكور، فتقع قبيلة تمسمان.

وفي منطقة الريف، حيث تكثر الأسلحة وتشتدّ النزاعات، يبدو هذا المشهد نادرًا؛ إذ تربطها بقبيلة «أولاد الشيخ?» صداقةٌ وثيقة، على الرغم من أنّ هذه الأخيرة لا تبلغ سوى نصف قوتها، وإن كانت تعيش في ظروفٍ مماثلة تمامًا. وتمتدّ سواحلها المليئة بالخلجان لمسافة تقارب أربعين كيلومترًا، وتنتصب على مرتفعاتها أضرحةُ الأولياء مشرفة على البحر.

وعند كلّ نتوءٍ بارز، تلوح هذه القباب بوضوح فوق صخورٍ بنيةٍ مائلة إلى الحمرة، تمنح المكان وحشةً. غير أنّ خلف هذا المشهد المتقشف تنبسط وديانٌ على قدرٍ مدهش من الخصب والجمال. وهنا تتجلّى إحدى أغرب سمات الريف: مظهرٌ خارجيّ يوحي بالقسوة والجدب، يقابله في الداخل عالمٌ أقرب إلى الجنّة.

يشكّل رجال تمسمان قسمًا كبيرًا من أولئك الذين يتولّون، على مدار العام، حراسة الساحل شبه الدائري لخليج النكور. فليلًا ونهارًا، يرابط رجالٌ أشدّاء من قبيلتهم، إلى جانب رجالٍ من آيث ورياغر، وأحيانًا من بقيوة، على المنحدرات الغربية، متّخذين من أكواخٍ من الأغصان المضفورة ومساكنَ طينية مغطّاة بالقصب مأوى لهم. وهم يقظون على الدوام، حريصون على ألّا يتسلّل أيّ

مسيحيّ من «حجرة النكور»، عبر المضيق المائي الذي لا يتجاوز عرضه كيلومترات ويفصلهم عن البرّ المقابل.

ولا تفارق الحراس بنادقهم أبدًا، شأنهم في ذلك شأن سائر أفراد القبيلة، بل وسكان القبائل الجبلية المجاورة كآيث يطفت وتارجيست، وسواهم من أهل الجبال الوعرة. إنهم دائمًا على أهبة الاستعداد لعرقلة تحرّكات العدو في البحر، والدفاع عن أرضهم، والانقضاض نحو الساحل متى دعت الحاجة، في تأكيدٍ دائم على أنّ رجال الريف يقظون، يراقبون كلّ حركةٍ بعينٍ لا تنام.

في كل مرة ترسو فيها سفينة حربية، تحمل ألوان الأحمر والأصفر، تتعالى صيحات طويلة تتردد من قمة جبل إلى أخرى، فيما يقوم رجال يلوحون بالأعلام لنقل الأخبار بسرعة من مرتفع إلى آخر. ومع حلول الليل، تُشعل نيران ضخمة، تدثر أحيانًا بعباءات لتشكيل إشارات بصرية. وبأقصر وقت ممكن، ينتشر الخبر في أنحاء البلاد: لقد وصلت "فرقاطة"! إحدى السفن القديمة، التابعة للشعب الكاثوليكي والمزودة بالمدافع، تقترب من المرسى... أيها الحراس، ضاعفوا من يقظتكم!

ومن الغريب أنه خلال أشهر الحرب عام 1909، تم منع السفن التجارية الإسبانية من الاقتراب من الشاطئ عبر إطلاق النار من البر، إلا أن مدافع الجزيرة وسفينة "بينزون" التي هرعت إلى المكان لم تتمكن من تفريق الريفيين المتجمعين أو إحداث أضرار كبيرة. ولمساندة الإخوة القلعيين الذين كانوا يقاتلون أمام مليلية،

هاجم سكان ساحل جزيرة باديس وأولئك عند جزيرة النكور بشجاعة أطقم السفن في الجزر الواقعة قبالة الساحل.

يمر طريق تمسمان عبر مرتفعات صالحة للسير وفق المعايير المغربية، ويعد واحدًا من أكبر الطرق في منطقة الريف التي تعاني من نقص الشبكة الطرقية. إنه الطريق التجاري القديم الذي يربط منذ القدم مقر السلطان بأحد أقدم الحصون الإسبانية، متجنبًا المرور عبر ممر تازا. يبدأ الطريق من مكناس مرورًا بزاوية التفاح، ثم يعبر مرتفعات سنادة، متجهًا شرقًا عبر أجدير وجبل يرتفع نحو 600 متر وينحني تدريجيًا نحو البحر، قبل أن يمتد بمحاذاة الساحل حتى مليلية. ويظل الطريق على ارتفاع عدة مئات من الأمتار، بل ويصل إلى نحو 1500 إلى 1600 متر قرب زاوية التفاح.

تسود عداوة مستمرة بين آيث سعيد وآيث بو يحيي الذين يرتحلون جنوباً. تتناحر إحدى فرق هؤلاء باستمرار مع إحدى فرق القبائل المجاورة. على حد علمي، لم تهدأ الأسلحة في الربع الأخير من القرن الماضي إلا في عامي 1896 و1908، طالما كانت موجهة نحو الإسبان الذين كانوا موضع كراهية شديدة. لا أجرؤ على الجزم بما إذا كانت هذه الأخوة في السلاح قائمة أيضًا عندما كان الأمر يتعلق بمقاومة بو حمارة؛ فربما انحازت إحدى القبائل إلى جانب المطالب بالعرش في ذلك الوقت، فقط لتتمكن من إلحاق المزيد من الضرر بالقبيلة الأخرى! فهذا أمر ممكن على أي حال بالنظر إلى الكراهية المستعرة بينهما.

في دار القايد بو زيان، على مقربة من ساحل آيث سعيد، يُقال إن قبيلة آيث بو يحيي التي توغلت إلى هناك قد تعرضت «قبل 40 عامًا» (40 هو أقصى تقدير) لشر هزيمة. ولم يتمكن أحد من تحديد تاريخ أكثر دقة. هذه البلدة ليست سوى ساحة محاطة بسور، كان يقيم فيها زعيم القبيلة في ذلك الوقت.

تقع قبيلة آيث سعيد على ضفاف نهر كرط. يمتد خط ساحلها لأكثر من 25 كيلومترًا، وتمتد القرى التابعة لهذه القبيلة لمسافة مماثلة في الداخل. وهي منطقة غنية بالمياه، تضم مجموعات كبيرة من القرى وسلاسل جبلية ترتفع إلى ما بين 500 و600 متر. ويتدفق عدد لا يحصى من الجداول إلى البحر، صغيرة منها وكبيرة. (لا أفهم كيف يمكن لهوبنر أن يصف هذه المنطقة بأنها سهل جاف؛ وبالمناسبة، فهو يزعم أيضًا أن عشب الحلفاء ينمو على الصخور البازلتية، ويقول قبل بضعة أسطر أن الساحل القاحل تقطعه الجداول والينابيع والقنوات المائية.) ومن المؤكد أن نباتات السهوب قد بدأت تزهر، ويمكن رؤية الإبل متفرقة كرمز لا لبس فيه على وجود البدو الرحل. وربما تبدأ بوادر الصحراء بالظهور في المناطق الداخلية، لكن الجبال المحيطة بآيث سعيد لا تختلف في طابعها عن بقية مناطق الريف.

إلى الجنوب مباشرة من خليج النكور الكبير، وعلى بُعد نحو أربعين كيلومترًا من الساحل، تبدأ منطقة جزناية. وتمتد هذه المنطقة على جانبي الطريق المؤدي إلى تازة، متوغلةً في عمق البلاد. وتجاورها شرقًا قبيلة مطالسة.

ويبدو أن هاتين القبيلتين متقاربتان من حيث القوة، غير أنهما تختلفان في العادات وأنماط العيش؛ فقبيلة مطالسة ذات طابع رعوي متنقل، مما يجعل أسلوب حياتها البدوي، المرتبط بالمجال الطبيعي، أكثر قابلية للتأثر بالعوامل الخارجية. وتُظهر أراضيها بالفعل ملامح تأثير صحراوي واضح، إذ تتداخل مع مجالات جارتها، في أقصى الامتداد الشمالي للصحراء الكبرى.

وتجاور قبيلة مطالسة، التي لا يفصلها عنها سوى نهر ملوية، صحراء أنكاد الصخرية، القاحلة في بعض أجزائها، ما يضعها في تماس مباشر مع جبال الريف الخضراء الخصبة.

تخترق هذه المنطقةَ سلسلةٌ من التلال الشامخة، حيث ينتصب جبلُ الحسن بارتفاعٍ يبلغ 1800 متر، ويمتد جبل أزرو أقَشّار ليصل إلى 1600 متر، وأمامه يبرز جبل ربيبة—الذي سُمّي بهذا الاسم لوجود صخرتين شاهقتين—بارتفاع 1200 متر. وتشكل المنطقة بأسرها هضبة واسعة.

ويُلاحظ لدى بعض هذه العائلات الرعوية ميلٌ إلى ارتداء الملابس الفاتحة، إذ حلّ الحايك الأبيض والسلهام الأبيض محلّ الجلباب الداكن. كما تراجعت خيام الغوربي والنوالة المصنوعة من شعر الماعز البني، وتحوّلت أنماط العيش؛ فأصبح الرجل أقلّ كدحاً، باعتباره صياداً وراعياً في المقام الأول، فيما تأتي الزراعة في المرتبة الثانية. ونتيجةً لذلك، بات أقلّ تسليحاً، رغم تمكّن المهرّبين الإسبان من إيصال بضائعهم المطلوبة إلى هذه الجهات.

وفي حين تعتمد قبائل الريف الشمالية على الدفع نقداً، فإن رجال مطالسة يقدّمون الماشية مقابل الحصول على الأسلحة النارية.

جيران آيث سعيد ومطالسة هم بني بو يحيي. وينقسمون إلى عشيرتين رئيسيتين، إحداهما تسكن على يمين مجرى نهر كرط الأوسط، والأخرى تنتشر جنوباً على ضفاف نهر ملوية. وكما تختلف عشيرتا متيوة اختلافاً كبيراً في أسلوب الحياة ومستوى الثقافة، كذلك الحال بالنسبة لبني بو يحيي. تزرع العشيرة الشمالية العنب والفواكه الأخرى، وتزرع الذرة والحنطة، وتتواصل مع الساحل، أما الأخرى فتتنقل في مناطق صغيرة، وتربي الماشية، وتحب العزلة. نادراً ما يأتي رجال القبيلة الشمالية إلى الساحل، لكنهم يحافظون على علاقة مع أخوتهم القبليين تماماً مثل قبائل الجبل. لكن كلا العشيرتين تحبان القتال وتجيدان استخدام بنادقهما. وقد عانى الإسبان والفرنسيون من ذلك أكثر مما كانوا يرغبون! الأولون أمام مليلية، والأخيرون في صيف عام 1910 عند نهر ملوية، عندما احتلوا تاوريرت، "نقطة التقاء" جميع قبائل تلك الجهة.

ولا تزال قبيلة قلعية هي "القبيلة الريفية الحقيقية" التي تقطن أقصى شرق الريف.

يقطنون شبهَ جزيرةٍ تمتدّ لنحو خمسةٍ وعشرين كيلومترًا، تتقدّم شمالًا في البحر الأبيض المتوسط عند رأس هرك، المعروف لدى الإسبان باسم «رأس المذرات الثلاث». كما ينتشرون في المجال

الممتد من وادي كرط إلى ما وراء الطرف الجنوبي لسبخة بوعرك، مع امتدادٍ طفيف نحو الداخل.

وعلى شاطئ هذه المنطقة تقوم مساكن مليلية، متشبثةً بالصخور الرمادية كأنها أعشاش عصافير. وهناك يواجه القلعيون عدوّهم القديم منذ قرون، وقد خاضوا المعارك العنيفة التي اندلعت في العام الماضي، مسنودين بقبائل الجوار: بني بويحيى، وبقيوة، وآيث ورياغر، وتمسمان، وسواهم.

ورغم تأكيد رجال قلعية قدرتهم على حشد ما يصل إلى خمسة عشر ألف بندقية في الميدان، فإن أعداد المقاتلين الوافدين من القبائل المجاورة لم تكن أقل شأنًا، حتى بلغوا أسوار المدينة القديمة. وتتكوّن القبيلة من سبع عشائر شبه مستقلة، تتنافس فيما بينها حماسةً للقتال.

وقبيل اندلاع المواجهات، حرص المهرّبون الإسبان على تزويدهم بأحدث البنادق، مما زاد من حدّة الصراع واتساع نطاقه.

إنّ الثروةَ المعدنيةَ الهائلةَ الكامنةَ في جبال هذه المنطقة كانت السببَ المباشرَ في تجدّد القتال بين الأعداء القدامى؛ فمرتفعات جبل بوغافر في نواحي «قلوع جارة»، إلى جانب جبل هرك، تزخر بخامات الرصاص والحديد والفضة، وتبدو المعادن فيها ظاهرةً للعيان بجودةٍ ونقاءٍ نادرين.

وقد تولّت قبائل بني بويفرور، وبني بوغافر، وبني شيكر، وفرخانة، ومزوجة حراسةَ هذه الكنوز الجوفية بصرامةٍ شديدة، فظلّت ـــ حتى عهدٍ قريب ـــ عصيةً على الاستغلال من قِبل

الغرباء. ومع ذلك، عرضوا مرارًا على رجال أعمال من شتّى البلدان نقلَ مئات الحمولات يوميًا من الصخور المعدنية إلى مليلية أو إلى أيّ منفذٍ ساحلي آخر، شريطةَ ألا يُسمح لأيّ أجنبي بأخذ عيناتٍ بنفسه أو التوغّل في الجبال.

وقبل بضع سنوات فقط، كانوا قادرين على منع أيّ إسباني من مغادرة موطئه الساحلي المحصّن نحو الداخل. غير أنّ مرحلة بوحمارة، وما رافقها من سياساتٍ حازمةٍ انتهجها القائد العسكري لمليلية، الجنرال مارينا، أدّت إلى تحوّلٍ حاسم في موازين القوى.

ولو أنّ المضاربين الإسبان والفرنسيين التزموا قدرًا أكبر من النزاهة، لكان بالإمكان تفادي هذا القدر من الدماء التي أُريقت حول مناجم قلعية.

نتيجةً لمعاهدة السلام الإسبانية المغربية لعام 1860، كانت قبيلة قلعية الوحيدة في منطقة الريف التي استضافت القوات العسكرية المخزنية. وقد نقلت الباخرة «التركي» هذه القوات من طنجة، كما تزود أحيانًا الجنود بالضروريات.

توزّع الرجال على عدة مواقع؛ فعلى بُعد بضع كيلومترات غرب المدينة، كانت تقوم قصبة فرخانة، وهي بناء مربع مشيّد من الطين والحجارة ومكسوّ بالجير، لا تتجاوز مساحته بضعة أمتار مربعة. وكان يضم غرفة واحدة مسقوفة تؤوي الحراس في الأيام الممطرة.

وبجوار بوابته المتهالكة والمثقوبة، كانت توجد مصطبة مرتفعة يجلس عليها العامل نهارًا، حيث كان يفرض إتاوة تتمثل في بضع عملات نحاسية على زوّار السوق القادمين من مليلية. وكان هذا البناء الطيني، رغم اسمه الرنّان، يُفترض أن يؤدي وظيفة مكتب للجمارك.

أما الحارس، فلم يكن سوى جندي واحد، نادرًا ما كان يُرى.

في عام 1905، «استولى رجال الروكي على قصبة فرخانة»، فصار أحد المقربين منه يتولى جباية الرسوم بدلًا من موظف الجمارك التابع للمخزن الذي طُرد من منصبه. ولم يكن أيٌّ منهما يورّد ما يُحصَّل إلى خزينة المخزن المركزي.

وفي سبتمبر 1909، وقد كان وضع السلطان العلوي قد ازداد تدهورًا، قدمت جموع غفيرة من آيث سيدال ذات صباح، فطردت موظف الجمارك وأضرمت النار في المبنى، الذي لا يزال إلى اليوم خرابًا.

وكان هناك مركز ثانٍ يقع في الريستينغا، وهي أضيق نقطة في اللسان الرملي الفاصل بين البحر والبحيرة المالحة، حيث كانت الجدران الطينية تقي الخيام البالية من الرياح العاتية. وكان سكانه يعيشون بدورهم على ما يحصلون عليه من زوّار السوق العائدين إلى ديارهم.

غير أنّ اعتماد السكان المحليين على التنقّل في رحلات قصيرة، وتفضيلهم سلوك الطرق الجنوبية للسبخة، جعلا الموارد شحيحة

في أغلب الأحيان، فظلّت موائد سكان هذا المركز المتواضع تعاني قلّة الزاد رغم صمودهم

ويعود ذلك، على وجه الخصوص، إلى السلطان عبد العزيز، ذلك الحاكم الضعيف الذي اعتلى عرش العلويين، إذ لم يُرسل قطّ رواتب ولا ذخائر ولا غيرها من الضروريات التي تحتاجها الجيوش النظامية.

وقد نجت هذه القوات من الهزيمة سنة 1907، بعد تعرضها لهجوم من جحافل بوحمارة، بفضل تدخل الجيش الإسباني. ومنذ ذلك الحين، ظلت الراية القشتالية ترفرف فوق هذا البرزخ.

أما النقطة الثالثة، فهي قصبة سلوان، وهي فضاء واسع محاط بأسوار متهدمة، تتجاوز مساحته كيلومترين مربعين. وهنا أيضًا، كان على العامل أن يحافظ على النظام بمساعدة بضع مئات من الجنود.

غير أن رجال هذا الحامِيَة كانوا، في جزء كبير منهم، متزوجين في قلعية، ويعيشون حياة أقرب إلى حياة الفلاحين؛ إذ كانوا يزرعون الشعير والفول، كآباء أسر مجتهدين، أو يسعون إلى كسب قوتهم بشتى السبل، مهما شقّت، لأن أمير المؤمنين نادرًا ما كان يفي بإرسال الرواتب الموعودة بانتظام.

وحتى عندما كانت الأموال تصل، كان القائد نفسه في أمسّ الحاجة إليها، مما كان يزيد من تفاقم الوضع. ولهذا، لم يكن القائد يستطيع،

حتى يوم الجمعة عند صلاة الظهر، أن يجمع عددًا كافيًا من الرجال لأداء الصلاة.

استولى الروكي على هذه القصبة بسهولة، وكذلك على «الفندق» الكبير، وهو نزل قديم ذو طابع تقليدي يقع على بُعد بضع كيلومترات جنوب مليلية، حيث اعتاد رجال قلعية إيداع أسلحتهم قبل دخول الأراضي الإسبانية.

وقد عيّن بوحمارة في هذا المكان حارسًا من سلالة الأولياء، يُدعى عبد القادر، وهو رجل ذاعت شهرته. وكان يُروى عنه أنه لا يقتات، في حضرة الناس، إلا على الخبز والماء، وأنه قادر على شرب الماء المغلي، بل والنوم ساعة كاملة داخل فرنٍ ساخن.

وقد بلغت شهرته حدًّا من الرسوخ والانتشار جعل أحد سائسي خيلي يكاد يفارقني غاضبًا حين أبديت شكوكي في هذه القدرات الخارقة.

غير أنّه، ما إن اندلعت العاصفة ضد سيده، حتى تعرّض عبد القادر للضرب المبرح وطُرد من مكانه، على الرغم من مكانته الروحية وما كان يحظى به من تقدير.

إلى الشرق من قلعية، تمتدّ المياه الشاسعة لسبخة بوعارك، التي يُطلق عليها سكان مليلية الإسبان اسم «مار تشيكا»، أي «البحر الصغير». وتحيط بشواطئها مستنقعات وعرة يصعب اختراقها، فيما يتغير حجمها وشكلها بشكل دوري، على غرار السبخات الجزائرية.

فعند ارتفاع منسوب المياه، يصل طولها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي إلى أكثر من عشرين كيلومترًا، ثم لا يلبث أن يتقلص إلى النصف أو أقل. أما عرضها، فيتراوح بين خمسة وعشرة كيلومترات، مع تغيّر ملحوظ في شكلها العام؛ إذ قد يجفّ أحيانًا نصفها الجنوبي، وأحيانًا أجزاء من ضفتها الغربية.

في خريف عام 1908، بدت السبخة كلوحة فنية، ممتدةً على طول عشرة كيلومترات من الشمال إلى الجنوب. وقبل ذلك بعامين، تمكنتُ من امتطاء حصان لمسافة ساعتين على طول ضفة لم يتجاوز عرضها آنذاك أربعة أمتار.

ولا يفصل هذه البحيرة عن البحر سوى شريط رملي ضيق ومتغيّر، يتراوح ارتفاعه بين مترين وأربعة أمتار، بحيث يمكن اعتبارها بمثابة حوض تصريف متصل بالبحر. ويسلك سكان كبدانة هذا المعبر الرملي الأصفر في تنقلهم نحو مليلية، فيما يُطلق الإسبان على أضيق نقطة فيه اسم «ريستينغا»، وهي خاضعة لسيطرتهم منذ عام 1907.

كم يبدو اختراق هذا المضيق الرملي أمرًا يسيرًا؛ غير أنّ هذه الفكرة لا تخطر ببال القادة إلا عندما تبدأ بنادق الريفيين في إطلاق النار. وما إن تخمد أصواتها حتى يُعاد التخلي عن هذا التصور المغري.

ومع ذلك، فإن سبخة بوعارك، التي يبلغ عمقها في بعض المواضع نحو عشرة أمتار، يمكن أن تكون صالحة للملاحة بواسطة

القوارب المسطحة. وهي تستقبل مياه *إغزار ن ثياوث* العذبة، الذي تقوم على ضفافه قصبة سلوان.

ويشقّ هذا النهر مجراه في جزئه السفلي عبر السهل الرملي، فلا يحمل في الخريف إلا قدرًا يسيرًا من المياه، بل قد يجفّ تمامًا في بعض السنوات، ما إن يغادر القنوات الطينية العميقة التي تقوده نحو القصبة المتداعية.

وكانت طريق القوافل، التي كانت تعجّ بالحركة في الماضي، تنطلق من مليلية، مرورًا بقلعية وقصبة سلوان، ثم تعبر الناظور، حيث تنتهي اليوم سكة حديد المناجم التي توقفت أشغالها عقب الحرب.

تمتدّ هذه الطريق عبر سهل كارت القاحل، لتصل إلى ممر ملوية المفتوح شمالًا في اتجاه تاوريرت على وادي صاع، ثم تواصل مسيرها عبر دبدو وسهول الدشيرة، وصولًا إلى مدينة فجيج، تلك الحاضرة التي طالما شهدت صراعات على الحدود بين المغرب والجزائر.

وتشهد الخيول الأصيلة والإبل الكثيرة المنتشرة في أرجاء المنطقة على حيوية هذه المسالك في الماضي؛ إذ كانت قوافل لا تُحصى تشقّ طريقها شمالًا، محملة بالسلع على ظهور «سفن الصحراء» القوية، بينما كانت القوافل الكبرى تُنشّط حركة تجارية مزدهرة خلال فصل الشتاء، رابطةً بين الميناء البحري وبوابة الصحراء.

أما اليوم، فقد خيّم السكون على هذه الطريق، حتى كأنها قد ماتت. فمنذ عام 1902، أدّت الاضطرابات السياسية إلى انعدام الأمن، فتوقفت الحركة، وتحولت المسارات تدريجيًا نحو الأراضي الجزائرية، حيث بدأت ملامح خط السكك الحديدية الصحراوي الكبير تمتدّ بمحاذاة الحدود.

صحيح أنّ سكان فجيج لا يزالون يحملون شيئًا من روح الصحراء ويتمسكون بعاداتهم القديمة، إلا أنهم خضعوا، في الوقت ذاته، لحتمية الجغرافيا؛ فبدل أن يقطعوا مسافات شاقة نحو الساحل الشمالي كما كان في السابق، صاروا يصدّرون التمور وجلود الإبل وحزم الصوف إلى محطة بني ونيف في غضون ساعات قليلة.

وهكذا، لم تعد تلك الصفوف الطويلة من الجمال المثقلة بالأحمال تشقّ طريقها شمالًا كما كانت تفعل قبل عقد من الزمن. وبعد عقد آخر، قد ينسى أهل البلاد إمكانية سلوك هذه الطريق، كما نسي أهل الريف أن أقصر طريق يربط فاس بالبحر يمر عبر جبالهم.

إلى الجنوب من هذه القبائل، تنتشر قبائل أخرى عديدة. فإلى الغرب من فاس، تستقر قبيلة الحياينة المضطربة، التي لا تكفّ عن منازعة المخزن والدخول في صراعات معه. وتليها قبيلة صنهاجة، ثم قبيلة غياثة الجامحة، التي تُعدّ من أكثر قبائل المغرب تمرّدًا.

وخلال الفترة الممتدة بين سنتي 1902 و1905، انضمّت غياثة، في ما يشبه نزوة عابرة، مدفوعةً بسخطها الشديد على حكم

السلطان عبد العزيز الضعيف، إلى بوحمارة، فأسهمت في تحقيق أولى انتصاراته.

أما إلى الشرق، فتوجد قبائل تسول والبرانس ومكناسة، التي تنتشر أيضًا في مواضع متعددة تحمل الاسم نفسه، كما يتواجد عدد كبير من أبنائها داخل الأراضي الجزائرية.

وتعقب هذه القبائل جماعات أخرى كثيرة، بعضها كبير الشأن، غير أنها لم تعد تُعدّ من قبائل الريف. وهي، في مجملها، قبائل أطلسية تتميّز بارتداء الجلابيب السوداء، وتتحدث قدرًا يسيرًا من العربية، ولا تكاد تربطها صلات تُذكر بالساحل.

تتمثل محاورها الرئيسية في الطريق القديمة المتعرجة التي تخترق الوديان، وتنطلق من فاس مرورًا بمدينة تازة ذات الأهمية الاستراتيجية، ثم تواصل مسيرها نحو قصبة مسون، حيث تلتقي بطريق ثانية شمالًا.

وهذه الطريق الثانية تنحدر بدورها من فاس ومكناس، عابرةً مناظر جبلية وعرة ذات طابع بري أخّاذ، قبل أن تنفتح على سهول أنكاد القاحلة، ثم تمر عبر قصبة عيون سيدي ملوك، وصولًا إلى وجدة على الحدود الجزائرية.

وتُعدّ هذه الشبكة من الطرق المنفذ الطبيعي نحو فاس، التي تنظر إليها فرنسا باعتبارها بوابةً استراتيجية للولوج، وقد أخذت تتقدم في هذا الاتجاه ببطء، ولكن بثبات. وقد تمركزت قواتها بالفعل في

تاوريرت على ضفاف وادي صاع، كما سبق لها أن سيطرت على دبدو الواقعة إلى الجنوب.

لم تعد المنطقة الحدودية مع الجزائر تُعدّ جزءًا من الريف، لا من الناحية الجغرافية ولا اللغوية ولا السياسية. ومع ذلك، يمكن إدراج كبدانة ضمن هذا الوصف بحكم موقعها واتصالها بالمجال الريفي.

ويستوطن أهل كبدانة السهول القاحلة الممتدة من سبخة بوعارك إلى وادي كيس؛ حيث تنتصب من جهة مصبّ النهر أسوار قصبة السعيدية المتهالكة، بينما يشهد من الجهة الأخرى ميناء «بور ساي» الحديث النشأة حركةً تجارية نشطة استأثرت بمعظم المبادلات.

وفي هذا الامتداد، ينبسط سهل طريفة الكبير، وهو فضاء رملي متموّج تنتشر فيه المستنقعات المالحة. ولا يُشكّل سكان طريفة قبيلة مستقلة، رغم ما يُروَّج خلاف ذلك؛ إذ ينتمون في الحقيقة إلى قبيلة كبدانة، شأنهم شأن باقي فروعها التي تجوب المجال بحثًا عن مراعي شحيحة لماشيتها الهزيلة.

ويبدو التباين جليًا بين الريف والمجال الممتد شرق وادي ملوية، الذي يطغى عليه طابع من القحولة والكآبة. فبسبب طبيعة موطنهم الرملي، يعاني السكان فقرًا شديدًا، ولا يمتلكون سوى عدد محدود من البنادق الحديثة، الأمر الذي حال دون قدرتهم على مقاومة احتلال إسبانيا لجزئهم الشمالي، رأس كبدانة.

وعلى الرغم من أن الجبال هناك ترتفع عارية نحو السماء، فإنها تخفي في باطنها رواسب ضخمة من الرصاص، كادت أن تشعل صراعًا بين الإسبان والفرنسيين والألمان حول السيطرة عليها.

إلى الجنوب من ذلك، وعلى الضفة الأخرى لوادي ملوية، تنتشر قرى ومخيمات لا تُحصى تابعة لقبيلة آيث يزناسن، وهي قبيلة قوية احتلت القوات الفرنسية أراضيها الخصبة منذ يونيو 1907. وتضم هذه القبيلة عددًا من العائلات النافذة، وتمتلك ثروة معتبرة من الماشية والخيول الأصيلة.

وقد تأثر أبناؤها بعادات العرب، ودخلوا في صراعات متكررة وعنيفة مع جيرانهم المسيحيين على مدى عقود. وقبل ثلاث سنوات فقط، سالت دماء غزيرة قبل أن تتمكن القوات الفرنسية من بسط سيطرتها على وجدة.

غير أن من سمات هذه القبائل أنها تواجه، بقدرة لافتة على الصمود، عدوها اللدود—المتمثل هنا في فرنسا—بشكل منفرد في كثير من الأحيان. ولو كانت قبيلة آيث يزناسن، أو القبائل المجاورة لها جنوبًا التي خضعت بدورها للتوسع الاستعماري، تنتمي إلى قبائل الريف، لما تمكن الفرنسيون من رفع علمهم فوق القلعة القديمة التي تعود إلى عهد السلطان إسماعيل.

وفي صيف سنة 1910، وكأنها صاعقة مباغتة، انقضّت قبيلة آيث بويحيي على القوات الغازية عند اقترابها من «نقطة تجمعها»، أي السوق الأسبوعية التي كانت تقام في أراضي قبيلة أولاد ستوت

المجاورة. وقد حالت سرعة الهجوم دون استخدام الرشاشات في المعركة.

غير أن السؤال يظل قائمًا: ما جدوى هذه التضحيات، إذا كان المحتل يرى بأمّ عينه كيف يكافح الجيران، وهم يقاتلون، من أجل الحفاظ على حرية وطنهم وصونه من السيطرة الأجنبية؟

يفصل وادي ملوية بين قبيلتي آيث يزناسن وكبدانة، ويُعدّ من أكبر أنهار السلطنة المغربية. ينبع من أعالي القمم الجبلية، حاملاً معه كميات وافرة من مياه الثلوج، غير أنّه لا يفرغ في البحر إلا جزءًا يسيرًا منها، إذ يتبدد قدر كبير من مياهه بفعل التبخر.

وفي مجراه الأدنى، تُضعف السهول الرملية—كأنجاد وتسول وكارت—قوة النهر إلى حدٍّ يجعله غير صالح للملاحة، على الرغم من اتساع حوضه، وحتى في حال غياب العوائق عند مصبّه.

وقد شكّل هذا النهر حدًّا طبيعيًا منذ عصور سابقة للعهد الروماني، إذ كان مجراه الأدنى يفصل بين مقاطعتي موريتانية، قبل أن يتحول لاحقًا إلى خط فاصل بين مجالات نفوذ حكام شمال إفريقيا.

واليوم، يشكّل هذا الخطّ الجغرافي حدًّا فاصلاً بين عالمين، ويمثّل الحدود الطبيعية بين مستعمرة فرنسا في الجزائر وسلطنة المغرب. ولو أنّ فرنسا، آنذاك، وسّعت نفوذها حتى نهر ملوية عقب معركة إيسلي، لكان من الممكن تفادي عقودٍ طويلة من التوتر. غير أنّ الجمهورية تعمل اليوم، ببطءٍ ولكن بثبات، على تصحيح هذا الخطأ؛ إذ تتقدّم قواتها تدريجيًا نحو هذا الخط، الذي حُدِّد مؤخرًا كحاجزٍ فاصل بين مناطق النفوذ الفرنسي والإسباني،

وكمحاولةٍ واهية لاسترضاء قشتالة المخدوعة. فضعفها لا يمكّنها من السيطرة على أسواق كبدانة، غير أنّ التجار الجزائريين يمدّونها، بدعمٍ من الحكومة، بما تحتاجه، وبنجاحٍ يفوق ما تستطيع الصناعة الواهنة في شبه الجزيرة الإيبيرية تحقيقه.

3. إسبانيا في الريف

المسلمون والمسيحيون. سبتة. جزيرة باديس. جزيرة النكور. مليلية. جزر الشفارين. الإسبان والريفيون.

منذ أن اجتاحت قوات طارق بن زياد الظافرة مملكة رودريخ القوطية في مطلع القرن الثامن، لم تهدأ، إلا نادرًا، رحى الصراع العنيف بين الصليب والهلال. وحتى في الفترات التي حافظت فيها الكيانات السياسية على ضفّتي مضيق هرقل على شيءٍ من السلم، ظلّت عناصر فردية من الجانبين تسعى إلى تقويضه والحيلولة دون استمراره طويلًا.

ولم تقتصر أصداء تلك المعارك على سكّان القارتين الإفريقية والأوروبية فحسب، بل امتدّت أيضًا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث انخرط ملوك الممالك المختلفة في صراعاتٍ لا تقلّ حدّة فيما بينهم. وعلى امتداد الحقبة التي حكم فيها المسلمون أجزاءً من إسبانيا الحالية، ازدهرت التجارة والصناعة، وبلغت الفنون والعلوم أوجها، حتى غدت تلك البلاد مقصدًا للطلاب من شتّى أنحاء العالم المسيحي، يفدون لنهل العلم على أيدي العلماء المسلمين في مختلف ضروب الحكمة والمهارات.

لقد عُرف المسلمون بتسامحهم تجاه أتباع الديانات الأخرى، وباستعدادهم لتقاسم ما راكموه من معارف ومهارات ثرية. غير أنّ النجاحات العسكرية التي حققها المسيحيون دفعت حَمَلة هذه

الحضارة الرفيعة إلى التراجع تدريجيًا نحو الجنوب. وبعد مرور نحو تسعة قرون على وطأة أول قدمٍ مسلم أرض أوروبا، عادوا إلى الضفاف الدافئة لإفريقيا التي تشاركهم العقيدة، فانطوى بذلك عهد ازدهار المقاطعات الجنوبية من إسبانيا الحالية.

وقد مضت على تلك الأحداث أكثر من ثلاثة قرون، ومع ذلك لم تستعد الأندلس وإشبيلية بعد عافيتهما من الصدمة العنيفة التي خلّفها التعصّب والتطرّف الديني.

وإذا كانت السيوف قد تصادمت يومًا على أرض إسبانيا والمغرب، فإنّ رحى الصراع قد انتقلت اليوم انتقالًا حاسمًا إلى القارّة السمراء.

ولم تكن الأسلحة في تلك الربوع تهدأ إلا نادرًا؛ إذ ظلّت الاشتباكات المحدودة بين السكّان المحليين والقوات المرابطة في الحصون تتجدّد بلا انقطاع، وكثيرًا ما كانت تتحول هذه المناوشات إلى معارك ضارية، بل وأحيانًا إلى حملات عسكرية مكتملة. وكان الإسبان، في الغالب، الطرف الخاسر في تلك المواجهات.

ولم تثمر تلك الهزائم سوى ضغوط دبلوماسية مورست على سلاطين فاس، لم تُفضِ بدورها إلا إلى إنشاء بعض «المناطق المحايدة» أو إدخال تعديلات حدودية أعقبت الانكسارات التي مُنوا بها. وتكشف المادة السادسة من معاهدة السلام المبرمة عقب الحرب الإسبانية-المغربية الأخيرة سنة 1859 عن مدى ضعف وهشاشة العلم الأحمر والأصفر الذي يرفرف فوق تلك المواقع الصخرية القاحلة:

"وعلى تخوم المناطق المحايدة التي خصّصها السلطان المغربي لحصني سبتة ومليلية، يلتزم بتعيين قائدٍ أو عاملٍ، تدعمه قوّات مغربية، لدرء اعتداءات القبائل. كما سيُرابط حرّاس السلطان المكلّفون بحماية جزيرتي باديس والنكور على الساحل".

وهكذا يبدو أنّ تاج قشتالة عاجزٌ عن صون هذه البقايا الباهتة من إمبراطوريته السابقة بقدراته الذاتية. فأيّ حصونٍ تلك المنتشرة على السواحل الشمالية للمغرب؟ إنها، في حقيقتها، خمس نقاطٍ معزولة، جاثمة فوق صخورٍ قاحلة، تتشبّث على نحوٍ غريبٍ بساحلٍ وعرٍ وقاسٍ.

وتبرز سبتة على وجه الخصوص، بوصفها العمود الجنوبي لهرقل، والنظير المهدِّد لجبل طارق. غير أنّ هذه المدينة، على الرغم من تعداد سكانها الذي يبلغ نحو عشرة آلاف نسمة، تبدو كأنها مدينة خامدة؛ يخنقها الحرّ، تنعدم فيها الشروط الصحية، اتُّخذت ملاذًا لمنبوذي الأندلس، ومقرًّا لنفي أولئك الإسبان الذين أثقلتهم تبعات سفك الدماء أو اشتهروا بجرأتهم في اقتراف السرقات.

هنا تتجلّى ملامح الإجرام بوضوحٍ نادر، لا يكاد يُرى له نظير في مكانٍ آخر، بهذا التنوّع المثير للاشمئزاز وذلك العدد المفزع. فالسجناء يتحوّلون إلى تجّارٍ وكتبةٍ وعُمّال مرافئ، ويتجوّلون في الشوارع متقمّصين أدوار صنّاع المظلّات وباعة الحلوى المشبوهة والمشروبات الفاترة.

وأمهر حلّاق في سبتة رجلٌ أشيبُ الرأس، يخلع قبعته المستديرة التي تُعدّ وسمًا للعقوبة، ويمارس حرفته التي يشتدّ الإقبال عليها، إذ تضمّ صفوة المدينة زبائنه. أمّا الحامية فتتكوّن في معظمها من سرايا تأديبية، وحتى الضبّاط، من أدناهم رتبةً إلى القائد العام، يكاد لا يخلو أحدٌ منهم من ماضٍ يثقل كاهله.

إنّ هذه الحامية جديرةٌ بالشفقة؛ فقلّما يُرى في أرجاء البحر الأبيض المتوسط وضعٌ أشدّ بؤسًا واضطرابًا، أو سكّانٌ أكثر تشرّدًا وضياعًا من أولئك القاطنين في ميناء سبتة.



منطقة ساحل آيث يطفت، غرب جزيرة باديس.



حراسة عند حدود القبيلة.



أطفال قلعية



سبتة، عمود هرقل الجنوبي.

أُنشئ أوّل مصنع للورق في الغرب على يد مسلمٍ تعلّم هذه الحرفة في الصين، كما أُقيمت أولى مزارع القطن على سفوح جبل أتشو قرب سبتة. ومع ازدهار التجارة، تدفّقت الثروات، فازدهرت العلوم والفنون بمختلف ضروبها. وعندما استولى البرتغاليون على هذه المدينة الساحلية في غارةٍ ليلية بعد سبعة قرون، كانت تُعدّ آنذاك أهمّ مدن المغرب.

وبعد أكثر من قرنٍ ونصف، في أعقاب معركة وادي المخازن الدامية سنة 1580، فقدت البرتغال استقلالها لصالح إسبانيا، وبدأ العلم الأحمر والأصفر يرفرف فوق سبتة أيضًا. ومنذ ذلك الحين، أخذ النفوذ المسيحي يفقد موطئ قدمه في شمال إفريقيا، وشرعت سبتة مسار انحدارٍ متواصل لا يكاد يتوقّف. وقد حاصرها مرارًا

أمراء المغرب الأمازيغ، غير أنّها لم تسقط، وظلّت إسبانيا تبسط سيادتها على عمود هرقل الجنوبي حتى يومنا هذا.

وكما أشرنا، فإنّ شبه الجزيرة تتخذ شكلًا معويًّا؛ وهناك، عند موضع اتصالها بالبرّ الإفريقي، تمتدّ كتل البيوت المتراصّة، حيث تنتشر معالم المدينة الفقيرة.

يمتدّ عبر المدينة شارعٌ فسيحٌ وجميل نسبيًا، يشقّها بطولها من التحصينات البرّية في الجهة الغربية وصولًا إلى الميناء، ثم يواصل صعوده بانحدارٍ لطيف حتى منتصف سفح جبل أتشو. وتتفرّع عنه أزقّة ضيّقة، لا يتجاوز عرض الواحد منها مترًا، تنحدر شمالًا نحو الخليج المفتوح في اتجاه جبل طارق، بينما تنتشر على الجهة المقابلة ثكناتٌ عسكرية متداعية وأكواخٌ متواضعة للصيادين.

وعند أقصى طرف الشارع الرئيسي يبدأ ممرّ جبلي يقود بدوره إلى الحصن، ثم إلى رأس ألمينا، القائمة على قمّة تلٍّ قاحل. ومن ناحية البرّ، تبدو سبتة محصّنةً بإحكام بفضل أسوارها وسواترها الترابية ومدافعها الثقيلة الحديثة (إذ لم تكن، قبل عام 1908، تضمّ سوى قطعٍ قديمة خفيفة). وأمامها تمتدّ تلالٌ يتخلّلها طريقٌ متعرّج يعبر المنطقة الإسبانية وصولًا إلى الحدود.

وتتوج المرتفعات المغطّاة بالأشجار أبراجٌ أسطوانية شبيهة بالطبول، بينما تحرس الطرق المؤدية إليها حصونٌ متفرّقة. ولا تزال أطلال قلعةٍ مغربية منهارة قائمةً داخل الأراضي الإسبانية، محصورةً بين صخورٍ شاهقة، وخلفها تمتدّ سلاسل جبال أنجرة.

وتقطن هذه الربوع قبيلةٌ أمازيغية تحمل الاسم نفسه، عُرفت على الدوام بروحها القتالية؛ إذ تخوض صراعاتٍ متكرّرة مع سبتة، تتفاوت حدّتها بين كرٍّ وفرّ، وغالبًا ما تكون وليدة اعتداءاتٍ إسبانية، ونادرًا ــــبل نادرًا جدًا ــــما تنشأ نتيجة أفعال السكان المحليين.

تتمتّع شبه الجزيرة بموقعٍ طبيعي شديد التحصين؛ إذ تضمّ نحو ثلاثمائة منزلٍ صغير، قديمٍ ومتهالك، تتجمّع مع الكنيسة ومبنى السوق والنادي العسكري لتشكّل نسيج البلدة بأكمله. وقد شُيّدت بعض هذه المباني على هيئة مصاطب، بحيث لا يمكن قصفها بفعالية إلا من جهة الخليج الشمالي، فيما تبقى بمنأى عن النيران المباشرة القادمة من الجنوب.

ويقع المرسى المتاخم للطريق الرئيسي على مستوى مرتفع، في حين يظلّ رصيف الرسو صغيرًا ويسهل الدفاع عنه. وحتى لو نجح الخصوم في تنفيذ إنزالٍ بحري، فإن اختراق المدينة لن يكون بالأمر الهيّن؛ إذ لا يقود إلى قلبها سوى درجٍ ضيّق محفور في الصخر يصعد نحو البلدة القديمة. ويمكن استهداف موقع الإنزال هذا من ثلاث جهات، كما يمكن عزل المدينة القديمة مجددًا برفع الجسور الممتدّة فوق البرزخ.

وإذا أضفنا إلى ذلك موقعها الجغرافي الفريد عند واحدٍ من أكثر المضائق ازدحامًا في هذا النصف من العالم، أدركنا الأهمية الاستراتيجية البالغة لشبه الجزيرة هذه. ولولا وقوعها تحت السيطرة الإسبانية، لكانت ندًّا خطيرًا لجبل طارق.

ومن جهة البرّ، تكاد سبتة تكون بمنأى عن الهجوم وفقًا لمقاييس الحرب الحديثة؛ وليس من قبيل المصادفة أن السلطان إسماعيل حاصرها ستةً وعشرين عامًا كاملة في مطلع القرن السابع عشر دون أن يظفر بها. كما أنّ المنشقّ الهولندي، والجنرال الإسباني السابق ريبيردا، هاجمها سنة 1732 مستخدمًا ما كان متاحًا آنذاك من فنون الحصار، غير أنّه أخفق في إخضاعها.

وعند القدوم من البرّ، يقطع الزائر سلسلتين من التلال، تعلو قممَهما حصونٌ أسطوانية تشبه الطبول. وتؤمَّن المسالك الصاعدة إليها بحصونٍ ومخابئ وأبنيةٍ خشبية محصّنة، شُيِّد بعضها أو نُحت في الصخر نفسه. ومن جبال أنجرة يهبط طريقٌ متعرّج يقود إلى المدينة، يحدّه صفٌّ من البيوت الخشبية الصغيرة والسواتر الطويلة. وعلى تخومها، يستقبل الوافدين شباب بملابس رثّة، يُعرفون باسم «موتشاتشوس» (أي: الفتيان)[7].

يتولّى هؤلاء تفتيش الوافدين من السكّان المحليين تفتيشًا جسديًا دقيقًا، ويصادرون العصيّ وكل ما قد يُعدّ سلاحًا ممّن يرغب في الدخول. ويقود إلى المدينة منبسط فسيح، يبلغ طوله نحو خمسمائة متر، ينحدر تدريجيًا نحو الأسوار التي تنتصب عليها المدافع بكثرة. ثم يعبر الداخل جسرًا متحرّكًا ليبلغ المدينة القديمة، مارًّا فوق قناةٍ مائية، بحيث يبدو هذا الجزء من سبتة كأنّه جزيرةٌ قائمة بذاتها، تحيط بها منحدراتٌ حادّة تجعلها حصنًا طبيعيًا منيعاً.

---

[7] جنود المشاة الإسبان

وعند الممرّ الثاني—وكلاهما من صنع الإنسان—يمتدّ سدٌّ حجريّ ضيّق يلبّي، على تواضعه، حاجات العبور. وعلى الضفّة الأخرى يرتفع جبل أتشو، شامخًا بقلعته الكبيرة وبطارياته المنتشرة في جميع النقاط المكشوفة، إلى جانب منارته ذات الضوء الأبيض. تلك هي سبتة: حصنٌ متين، وركنٌ من أركان بوابة أعمدة هرقل، قادرٌ على إيواء أقوى الفيالق العسكرية، عصيٌّ على قوةٍ كالمغرب، ولا يلوح في الأفق ما يبشّر بإمكان إخضاعه بسهولة.

"جبل طارق ثانٍ"—موقعٌ مهيب يبعث على الرهبة—غير أنّ قيمته تبقى محدودة ما لم تُدعمه إرادةٌ دبلوماسية صلبة. فإذا كانت إسبانيا، في أوج عظمتها، قد عجزت عن استثماره على النحو الأمثل، فإنّ قدرتها على ذلك اليوم تبدو أشدّ تضاؤلًا.

على الرغم من قربها الجغرافي من أوروبا، تكاد المدينة تخلو من أي نشاطٍ تجاري أو صناعي يُذكر. فالتواصل مع السكان المحليين منعدم، ولا يتجاوز عدد الوافدين إليها يوميًا بضعة أشخاص. ومن بيوتهم الحجرية، يراقب أحفادُ زمن محاكم التفتيش—وقد ألفوا حياةً متقشّفة—كيف يعمد أحفادُ الأندلسيين إلى تحميل بغالهم وخيولهم، قاصدين طنجة في رحلةٍ شاقّة تستغرق يومين عبر أراضٍ وعرة تخلو من الطرق، لينقلوا إليها ثمار جهدهم ويقضوا حاجاتهم من أسواقها. فهم يفضّلون عناء المسير أيامًا على التعامل مع عدوٍّ يعتبرونه متعجرفًا.

هكذا يفكّر ويتصرّف قومٌ أحاطت بهم أراضي قشتالة لأكثر من أربعة قرون. ولا يكاد أي إسباني يجرؤ على مغادرة نطاق مناطق

السيطرة الإسبانية دون أن يتهيّب خطر الرصاص، إذ يعيش الجميع في حالة حصارٍ دائم. وفي مثل هذه الظروف، يبدو مفهومًا أن يُترك للمجرمين قدرٌ من حرية الحركة؛ فهم عاجزون عن الفرار بحرًا، أمّا البرّ فقلّما يغامر أحد بسلوكه.

ولا يُزرع على السفوح الخارجية سوى قدرٍ يسير من الخضروات، يُنتج بجهدٍ بالغ. وحتى الأراضي التي خُصّصت للزراعة لا يفلحها إلا الجنود، وغالبًا ما يعملون في مجموعاتٍ صغيرة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مسلّحين ببنادقهم. أمّا إيصال المؤن إلى حاميات الحصون الأمامية، فتتولّاه دورياتٌ مسلّحة تجوب المكان—في مشهدٍ يكاد يعكس استمرار حالة الحصار، حتى بعد مرور أربعة قرون.

أمّا الطريق البرّي إلى طنجة فقد انقطع تمامًا في الوقت الراهن؛ ذلك المسلك الذي لم يعرف يومًا كثافة في الحركة تدهورت حالته حتى غدا مهجورًا، لا يكاد أحد يجرؤ على سلوكه. وليس حال الطريق المؤدي إلى تطوان، على بُعد خمسةٍ وثلاثين كيلومترًا، بأفضل منه، إذ يظلّ هو الآخر شبه خالٍ من المارّة.

وفي الوقت الذي يشهد فيه الطريق بين طنجة وتطوان عبور ثلاثة إلى أربعة سعاة بريد يوميًا في كل اتجاه، لا يمرّ على الطريق بين سبتة وتطوان سوى ساعٍ واحد، ينصرف اهتمامه إلى التهريب المربح وسائر الأنشطة الرائجة في البلاد أكثر من انصرافه إلى أداء مهام التوصيل.

تتعدّد النزاعات التي تُثيرها الأنشطة الجانبية للرقّاص الإسباني، حتى تكاد لا تُحصى. فلا تنطلق قوافل تجارية قطّ من سبتة إلى طنجة، وعندما تجرّأتُ ذات مرّة على القيام بهذه الرحلة برفقة بعض الريفيين الذين أعرفهم منذ زمن، لم يقتصر الخبر على الانتشار في صحف طنجة، بل أُرسلت منه برقيات إلى باريس ومدريد أيضًا (إلى «لوماتان» و«إيل موندو» و«كورّيسبوندنسيا دي إسبانيا»).

ونادرًا ما تتحرّك مجموعة من الحامية الإسبانية جنوبًا نحو تطوان المغربية؛ إذ تفرض السلطات قيودًا صارمة على التنقّل برًّا، خشية أن ينشأ أي تواصل مع الخارج، بسبب مناجم الأنتيمون المنتشرة في المنطقة. إلى هذا الحدّ يبلغ ضيق الأفق في سياسات المجلس العسكري بسبتة، رغم أنّ الشركات الإسبانية نفسها قد هجرت تلك المناجم بعد توقّف استغلالها بسبب نقص التمويل.

ومع هذا الانقطاع شبه التام في التواصل بين تطوان وسبتة، أخذت بعض الأوساط الأرستقراطية الإسبانية، في الآونة الأخيرة، تطرح فكرة مدّ طريقٍ وسكّة حديدية تربط بين الموقعين.

في تمام الساعة التاسعة صباحًا ترسو سفينة البريد اليومية—باستثناء يوم الأحد—وهي باخرة حكومية لا تلبث أن ترفع مرساها مجددًا عند الثالثة بعد الظهر، متجهةً إلى الجزيرة الخضراء في رحلةٍ تدوم نحو ساعتين، لا تخلو من صخبٍ دائم.

ومرّةً واحدة في الأسبوع تصل سفينةٌ ساحلية متهالكة تُدعى «الخيمة»، فيما ترسو مرّةً واحدة في الشهر سفينةٌ تابعة للخطّ

الإيطالي–الإسباني قادمة من برشلونة. وذلك، في مجمله، هو حجم حركة الملاحة في هذا الموضع الذي يتمتّع، بأهميةٍ استراتيجية وجغرافية وتجارية بالغة.

على بعد نحو 120 كيلومترًا جنوب شرق سبتة، ترتفع جزيرة صخرية صغيرة، يعرفها الريفيون باسم «جزيرة باديس»، بينما يسميها القشتاليون «بينون دي فيليس دي لا غوميرا». وهي تابعة لإسبانيا منذ عام 1563.

يا لها من لوحة طبيعية مهيبة وساحرة! فالأمواج المتوجة بالرغوة تتهاوى بعنف على الصخور البازلتية التي تعلو نحو مئة متر، حتى مع أضعف نسيم، لتنهش قاعدة الجزيرة ببطءٍ وثبات. وعندما تهدأ المياه الزرقاء الهادئة كالمرآة حول الجزيرة، تتجلّى بوضوح آثار التآكل المستمر للمياه المالحة، شهادةً على قوة الطبيعة التي لا يُمكن إيقافها.

تضرب الشمس الأفريقية بلا رحمة الصخور الرمادية، فتظلّ عارية، لا تبهج العين الباحثة عن أي شجيرة متواضعة، ولا حتى عن حزمة عشبٍ وحيدة. وتزداد حرارة الأشعة شدّة، ليتضاعف وهجها على المنحدرات. في أعلى هذا المنحدر الصخري الحاد، حيث جرى تسوية مساحات قليلة بصعوبة لبناء المساكن، تتلاصق المباني المتداعية كأعشاش السنونو، وكأنها تتشبّث بالحياة من بين الشقوق.

ويمرّ طريق وعر متعرج يقود إلى القمة، حيث يتدلّى جرس صغير على سقالة صدئة قرب منزل القائد العسكري، كحارسٍ

متواضع للمسيحية، لكن صوته الذي يرن منذ أربعة قرون يتلاشى سريعًا بين المنحدرات الوعرة لجبال الريف القريبة. وهناك، على نتوء صخري عاري، تقف أشكال ترتدي جلابيب بالية بألوان باهتة، ممسكة ببنادق طويلة وقصيرة في أيديها. إنهم الريفيون الجريئون، سكان الغابات الوعرة والوديان الخصبة، حراس سلسلة الجبال الغريبة، الذين يحرصون على ألا تطأ قدم الإسبان البغيضين أرض الريف الحرة منذ الأزل.

رصيف ضيق وبسيط، جُمعت كتلُه الصخرية الخشنة بشكل متواضع، وملئت الفراغات بينها بالرمل وحطام الطوب، يكاد يكفي لتلبية الاحتياجات المحدودة لهذا المكان المعزول عن العالم. هنا ترسو القوارب، وبقفزة جريئة يمكن الوصول إلى الصخور الزلقة التي تغمرها مياه المد المالحة باستمرار.

وتنتشر أخبار وصول أي غريب في الجزيرة كشرارة كهربائية. من كل ثقب يمثل نافذة أو بابًا، يطل رجالٌ متهالكون ونساءٌ فاسقات، جميعهم يتفحّصون بدهشة هذا الزائر الغريب، ذلك الكائن العجيب الذي اختار طواعية أن يزور وطنهم البائس.

نصعد إلى المرتفعات عبر الطريق الذي كان مرصوفًا في الماضي بالطوب الأحمر. في كل مكان يتسكع أشخاص رثو الثياب، ذوو مظهر حزين، لا يحب المرء أن يلتقي بهم وحيداً في الأدغال، وجوه شاحبة، ملابس ممزقة، مستعدون دائماً، عند اختلاف الآراء، إعطاء آرائهم التأكيد المطلوب بواسطة السكين المحبوب.

إنهم مجرمون سابقون، تم نفيهم لسبب ما إلى هذه الصخور القاحلة، أناس قضوا عقوبتهم منذ زمن طويل، لكنهم وجدوا عملاً متواضعاً على هذه الجزيرة الحزينة ذات الاسم الرنان، وبقوا فيها طواعية. لا يحب الجنوبيون الكسالى[8] العمل الشاق على الإطلاق، لا سيما في الأماكن التي تحرق فيها الشمس الصخور القاحلة. أما النساء اللواتي يعشن على الجزيرة، فينتمين إلى حثالة جنسهن، شخصيات فاسقة ومهملة، بشعر أشعث، ويرتدين ملابس رديئة للغاية.

الشارع الوحيد خالٍ وخانق الحرارة، تنبعث روائح السمك والزيت النفاذة من مداخل المنازل المظلمة المليئة بالأنقاض، وتلمع أعين أشخاص غامضين وغارقين في النوم. أما المسافر الغريب، فيقدّم لهم مادة دسمة لأحاديث مرحّب بها، تكفيهم لشهور طويلة!

يتمايل السكارى وهم يصرخون من حانة إلى أخرى، وفي مكان ما يتردد صوت غناء أجش لأحد السجناء. عند كل زاوية، وعلى كل نتوء صخري، يقف حراس يرتدون صنادل من اللحاء البالية، بينما تتدلى السجائر المهربة بين شفاههم الشاحبة.

يمرّ ضابط متكئًا على الحائط بلا مبالاة، مادًّا يده اليسرى لتحية كتف اليمنى—أو ربما لا يفعل! وما الفائدة، إذ أنّ الرئيس لا يرى ذلك على أي حال، فيسرع بلا مبالاة إلى الحانة التالية، منتظرًا

---

[8] سكان جنوب أوربا عموماً والإسبان خصوصاً حسب المنظور الجرماني

وصول الباخرة التالية حاملةً أخبارًا من هناك، من الوطن، من العالم الخارجي.

مرة واحدة كل أسبوع، يتم الاتصال بالوطن الأم عبر السفينة الساحلية الصغيرة البيضاء«Sevilla»، المستأجرة من قبل الحكومة. في صباح كل يوم أربعاء، ترسو هذه السفينة أمام جزيرة باديس، حاملةً البريد والمواد الغذائية، وحتى مياه الشرب من مالقة، ونادرًا ما تنقل ركابًا، شريطة أن يكون الطقس هادئًا وألا تكون سفينة أخرى في الميناء.

وفي حال تعذّر وصول«Sevilla» ، يظل سكان الجزيرة معزولين عن العالم الخارجي أسبوعين أو ثلاثة، وأحيانًا أكثر. وعندما يُتوقع وصول السفينة، يستيقظ الجميع في الصباح الباكر قبل موعدهم المعتاد بساعة، في حالة من الترقب والانتظار.

إنه يوم عطلة للكبار والصغار، وفيه يقل العمل أكثر من المعتاد. أخبار، أخبار من هناك!



جزيرة النكور



جزيرة باديس

مدينة مليلية، عام 1905.



مدينة مليلية، عام 1905.

مرّةً في الشهر ترسو إحدى السفن ـــكـ«Pinzón»أو «Extremadura»، أو غيرهما من الطرادات العتيقة المتهالكةـــفي زيارةٍ عابرة، وقد تظهر أحيانًا سفينةُ صيدٍ متّسخة، لكنها لا تمكث في المرسى إلا أقصر وقت ممكن. ومع ذلك، تقع الجزيرة في خليجٍ عميق، محميٍّ على نحوٍ جيّد من الرياح الغربية والشرقية، ويتّخذ الساحل شكل نصف دائرة مفتوحة نحو الشمال الغربي.

ولا يفصلها عن البرّ الرئيسي سوى مضيقٍ ضيّق لا يتجاوز عرضه مئة متر، غير أنّ السياسة الإسبانية عجزت، عبر القرون، عن تجاوز هذا الحاجز المائي الضئيل. فنادرًا ما تصل قوارب من يابسة الريف، وإن وصلت قلّما تحمل مؤنًا تُذكر. وحين يشاء الريفيون، يقطعون حتى تلك الإمدادات الشحيحة أصلًا من البيض والدجاج والفحم، فلا يلبث الإسبان، على ما يعتزّون به من كبرياء، أن يجدوا أنفسهم مكتفين بما تبقّى لديهم من المعلّبات والأسماك.

وهذا الأمر لا يُعدّ نادر الحدوث، بل يتكرّر مرارًا. بل إنّ المياه العذبة نفسها لا بدّ من جلبها من الوطن الأم، كما أشرنا آنفًا؛ إذ يُمدّ خرطومٌ سميك يربط خزّانات اليابسة بخزّان السفينة، بينما تتكفّل مضخّة بخارية بنقل هذا المورد الثمين.

ولهذا، فما إن يشعر رجال الريف بالإهانة مرةً أخرى، حتى يتخذوا مواقعهم خلف الصخور الآمنة، ويشرعوا في إطلاق النار من بنادق «ماوزر» التي لا تفارقهمـــوهي مفارقة لافتة إذ

هُرّبت أصلًا إلى البلاد بأيدٍ إسبانية ـــ مستهدفين الخرطوم الذي ينقل الماء!

وماذا يمكن أن تقدّمه لهم جزيرةٌ يسيطر عليها عدوّهم اللدود؟ سوى القليل: السكر والشموع والكتّان، وهي حاجاتٌ محدودة يستطيع الريفي أن يستغني عنها بسهولة. أمّا في أوقات الضرورة، فإنّ كلّ قارب «فلوكة» ينقل الجلود أو المصنوعات أو سلع المقايضة إلى طنجة أو تطوان، يعود محمّلًا بما يلزم.

فما الداعي إذن إلى التعامل مع الإسبان المكروهين، الذين لا يقيهم من ثورات غضب السكان المحليين سوى اعتبارهم، في نظر هؤلاء، أقلّ خطرًا نسبيًا، بخلاف الفرنسيين المقيمين في المغرب الذين يواجهون احتكاكاتٍ يومية وتوتراتٍ مستمرة؟

يعيش نحو ثمانمائة نسمة على تلك الصخور القاحلة حياةً يغلّفها البؤس؛ نصفهم من العسكريين، وغالبيتهم من فرقٍ عقابية لا يشغلها سوى انتظار ساعة العودة إلى الوطن. أمّا السكان المدنيون، فيتكوّنون في معظمهم من أصحاب سوابق، لفظتهم الحياة إلى هذا الركن المنسي.

وتتصدّر الفئة الأعلى شأنًا في هذا المجتمع البائس فئةُ أصحاب الحوانيت، الذين يقدّمون مشروباتٍ كحولية ونبيذًا رديئًا لا قيمة له. ويعرض آخرون علبًا من المعلّبات الفاسدة أو خضرواتٍ ذابلة، فيما يكسب أحدهم رزقه بنقل مياه الشرب من الخزّان العام إلى البيوت. وهناك صيّادون، وآخرون يعملون لدى تجّارٍ يهود يتوسّطون في تجارةٍ محدودة مع سكّان الريف.

ويكدح بعضهم في أعمال البناء، يكسرون الحجارة ويحملون الملاط بصبرٍ إلى مشاريع لا تنتهي، بينما ينشغل آخرون بصنع صنادل من لحاء نبات الحلفاء المستورد من البرّ الرئيسي—وهو الحذاء الأكثر شيوعًا، في حين تمشي الغالبية حفاة الأقدام. وليس غريبًا، في مثل هذا المكان، أن يذوي صانع الأحذية الوحيد ويموت من الملل.

ويمضي هؤلاء جميعًا بمحاذاة الجدران في صمتٍ خجول، كأنّهم شهودٌ بائسون على سياسةٍ أشدّ بؤسًا.

حتى أولئك الضبّاط الذين لم يُنفَوا إلى هنا كعقوبة—وهم في الأصل قلّة نادرًا ما تُرى في الجزيرة—يعدّون الإقامة فيها ضربًا من السجن المقنّع، عقوبةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وهم في ذلك غير مُخطئين. فوالله، لا في فاشودة، تلك البقعة المستنقعية الموبوءة بالحمّى على ضفاف النيل الأبيض، ولا في محطّات الصحراء القاحلة التابعة للإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، ولا في جحيم مصوّع حيث يخدم الضباط الإيطاليون، ولا في أيّ بقعةٍ أخرى من العالم الإسلامي، رأيتُ حالًا أشدّ بؤسًا من حال تلك الحاميات الإسبانية في سبتة وجزيرتي باديس والنكور، حيث يتآكل الرجال ببطءٍ تحت وطأة العزلة والملل.

وعلى بُعد نحو خمسين كيلومترًا إلى الشرق، في خليج أجدير الواسع، تبرز من المياه الداكنة ثلاث جزرٍ صخرية صغيرة. وأقصاها إلى الشمال—وهي الأكبر حجمًا والأبعد عن الساحل—

جزيرة النكور، ثالث المستعمرات الإسبانية على الساحل الشمالي للمغرب.

يبدو هذا المكان، عند مشاهدته من على متن السفينة، أقلّ كآبةً مما هو عليه في جزيرة باديس، غير أنّ واقعه لا يقلّ حزنًا. ففي الداخل، تتناثر الأنقاض والحطام في كل ناحية، وتتكدّس أكوام القمامة في الأزقة الضيّقة القليلة. أمّا الحرّ الخانق والهواء البحري الثقيل، فيجعلان المكان يبدو قاحلًا ومُنهكًا، على غرار جزيرة باديس.

ويتّسع الشارع الوحيد عند أعلى نقطة ليشكّل ساحةً متواضعة، حيث يظهر جزار الموقع مرّة واحدة في الأسبوع—يوم الجمعة—عارضًا لحم الماعز والضأن الخالي من الدسم. أمّا عدد السكّان، وهو أقلّ من عدد سكّان الجزيرة السابقة، فيتكوّن من العناصر نفسها تقريبًا؛ وهنا كما هناك، يحتكر القائد العسكري، برتبة رائد، مختلف الصلاحيات المدنية في يده.

ويعيش الناس متزاحمين في غرفٍ مظلمة تفتقر إلى التهوية، بينما تُكمل المشهد الكئيب بضعُ حاناتٍ واطئة، قائمة في فضاءاتٍ أشبه بالأقبية.

نادرًا ما يُرى البشر في ساعات الحرّ اللاهب، فلا تدبّ في المكان حياةٌ تُذكر إلا حين تزوره سفينة «Sevilla» في رحلتها الأسبوعية. ومع ذلك، فكثيرًا ما تعجز هذه الباخرة عن إنزال الركاب بسبب غياب أرصفة قادرة على مقاومة العواصف، فتُضطر إلى الإبحار دون أن تُفرغ حمولة أو تتسلّم بريدًا.

وعندما تعلو الأمواج، يصبح إنزال الجسرين المتحرّكين—وهما منفذا الوصول الوحيدان إلى الجزيرة—أمرًا مستحيلًا، إذ قد يتحطّمان تحت وطأة عنف الأمواج. وفي الليل تُرفع هذه الجسور وتُحرس بإحكام، بينما يطلّ نهارًا، من خلف الحصون المتهالكة، شبّانٌ مسلّحون يرتدون قبعاتٍ من قماشٍ مخطّط، في مشهدٍ يزيد من رهبة هذا المكان المنعزل.

اسمها باللغة العربية «حجرة النكور»، ونادرًا ما يسمع المرء من السكان المحليين تسمية «الحسيمة». ومع ذلك، فقد تبنّى الإسبان هذه اللفظة، وصاغوا منها الاسم المتداول اليوم: «Alhucemas».

صحيح أنّ في الجزيرة جبًا، غير أنّ مياهه شحيحة؛ شأنها في ذلك شأن سائر موارد العيش، إذ لا بدّ من جلب معظم الاحتياجات من الوطن الأم البعيد.

نادرًا ما تعبر سفينةٌ تجارية إسبانية هذا الخليج، أمّا البواخر الأخرى التي تمخر عباب الساحل المغربي فلا تكاد تُرى إلا كنقاطٍ ضئيلة في الأفق البعيد، تلاحقها بنظراتٍ متلهّفة عيونُ أولئك الذين حكم عليهم القدر القاسي بالبقاء عالقين في حجرة النكور.

تتميّز الجزيرة بتاريخٍ فريد من نوعه؛ إذ قلّما نجد على وجه الأرض موضعًا تنازل عنه المسلمون طوعًا لقوّةٍ مسيحية كما حدث هنا. ويُروى أنّ السلطان عبد الله، ابن السلطان إسماعيل قاهر المسيحيين، عرض هذه الجزر على التاج القشتالي، غير أنّ

هذا الأخير لم يقبل سوى أكبرها. فقد كان سلطان المغرب، آنذاك، أشدّ خشيةً من إخوانه في الدين، الأتراك، منه من الإسبان[9].

وقد جلب الإسبان موادّ البناء من وطنهم، وأقاموا منشآتٍ متواضعة لا تزال قائمة إلى اليوم، ومنذ ذلك الحين ترفرف الراية الحمراء والصفراء فوق البرج الشاهق. وعلى الرغم من أنّ هذه الصخرة لم تُصبح إسبانية نتيجة نصرٍ عسكري، فإنّ سكّانها لم يقيموا سوى صلاتٍ محدودة مع المناطق الداخلية، الغنية بالزراعة والزاخرة بالقرى، والتي تبدو من البحر كسهلٍ متموّج.

ومع ذلك، تبدو الحياة في جزيرة النكور أكثر حيوية بقليلٍ مما هي عليه بين جزيرة باديس والبرّ الرئيسي، لأن المسافة إلى تطوان، أبعد نقطةٍ غربية على الساحل الشمالي، بعيدة نسبيًا.

ومع ذلك، وعلى الرغم من بُعد المسافة، يفضّل سكّان الريف تحميل قواربهم الصغيرة بالجلود والحبوب والدواجن، والتوجّه بها إلى سوق تطوان، حيث يبيعون بضائعهم بأثمانٍ أدنى ممّا كان يمكن أن ينالوه على مسافة لا تتجاوز كيلومترات معدودة من سواحلهم لدى الإسبان. وهناك—أو في طنجة—يقتنون حاجاتهم المتواضعة من الشموع والفتائل والسكر والأقمشة الصوفية من التجّار المسلمين، متجنّبين التعامل مع جيرانهم القريبين.

بل إنّ قبيلة آيث ورياغر، وهي من أغنى قبائل الريف وأكثرها بأسًا، كانت في بعض الأحيان تمنع اليهود الذين يتاجرون في

---

[9] كل هذه المعلومات تخص جزيرة باديس في العهد المريني/الوطاسي وليس جزيرة النكور في العهد العلوي

أراضيها من التزوّد بالبضائع من جزيرة النكور. ومع ذلك، وبسبب بُعد المسافة الى تطوان، تتمايل القوارب المحلية يوميًا أمام البوابتين البحريتين للجزيرة، في حين يندر أن يُرى مثل هذا النشاط أمام الرصيف الصغير لجزيرة باديس.

يُلزم التجّار المقيمون في الجزيرتين، بموجب قرارٍ حكومي، ببيع بضائعهم للسكّان المحليين بأسعارٍ محدّدة والاكتفاء بهوامش ربحٍ متواضعة، مقابل امتياز نقل جميع السلع التي يستوردونها من مالقة مجانًا على متن الباخرة الحكومية.

وهو ترتيبٌ يبدو، في ظاهره، معقولًا ومتوازنًا؛ غير أنّه يظلّ عاجزًا عن تحقيق فاعليته ما دامت روح الجشع وانعدام الثقة المتبادلة هي السائدة.

على بُعد نحو مئتي كيلومتر شرق سبتة، يبرز رأس «المذرات الثلاث» الخلّاب على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، مشكّلًا الطرف الشمالي لشبه جزيرة جبل هرك، وهي سلسلة جبلية تمتدّ قرابة خمسةٍ وعشرين كيلومترًا، وتتميّز بكثرة أوديتها. وعلى المنحدر الشرقي لهذه السلسلة، تقوم على صخرةٍ منخفضة بارزة قليلًا في المياه الزرقاء، مدينةٌ عريقة هي "روساديرون" القديمة، التي عُرفت في العصر الروماني باسم "روسادير."

ومن هذا الاسم اشتقّت العربية تسمية "رأس الدير"، التي أُطلقت لاحقًا على الطرف الشمالي لشبه الجزيرة. أمّا الاسم المتداول اليوم فهو «مليلية»، في حين تُعرف في الأمازيغية الريفية باسم "مريتش" أو "مليلت."

قبل خمسة قرون، أقام في هذا الموضع أسقفٌ مسيحي، وذلك يكاد يكون كل ما تنقله المصادر عن مليلية إلى أن استولى عليها دوق ميدينا سيدونيا (مدينة شذونة) لصالح تاج قشتالة وليون سنة 1496.

وبفضل موقعها المتميّز وظروف مرساها الملائمة—إذ لا ينفتح الميناء إلا نحو الجنوب والشرق—غدت مهيّأة على نحوٍ فريد على الساحل الشمالي للمغرب لتكون صلة وصلٍ مع الداخل. ففي هذا الموضع كانت تنتهي طريقٌ تجارية نشطة، تعبرها قوافل كبيرة محمّلة بالتمر والجلود قادمة من فكيك، كما كانت تتفرّع منه طريقٌ عامرة تصل إلى قصر السلاطين في فاس.

غير أنّ هذه الشرايين التجارية قد غدت اليوم مهجورة. ويُعزى ذلك جزئيًا إلى الاضطرابات التي أثارها بو حمارة، الذي أُزيح مؤخرًا، كما يرتبط أيضًا ببدايات مشروع خط السكك الحديدية الكبرى عبر الصحراء، الممتدّ من وهران الجزائرية بمحاذاة الحدود المغربية، مرورًا بفكيك، نحو أعماق الداخل.

وهذا وحده كفيلٌ بإماتة دروب القوافل؛ فحتى أبناء الصحراء، على ما عُرفوا به من صبرٍ وارتيادٍ للمسافات، يخضعون للقانون الكوني البسيط: البحث عن أقصر الطرق وأيسرها.

تتكوّن مليلية اليوم من ثلاثة أقسام: المدينة القديمة القائمة على نتوءٍ صخري مكشوف، والضاحية الحديثة الممتدّة عند سفحها، ثم المدينة الجديدة التي نشأت في السنوات القليلة الماضية.

وقبل عقدٍ من الزمن، لم يكن هذا الحصن سوى سجنٍ كبيرٍ كسائر المواقع المشابهة؛ إذ لم يكن يُسمح لأي إسباني بتجاوز تلك الحدود التي كانت تحدّدها حجارةٌ كبيرة مطلية باللون الأبيض، تشير إلى نطاق المنطقة المحايدة. ولم يتغيّر هذا الوضع إلا مع ظهور المتمرّد بو حمارة في المناطق المجاورة، حيث أدّت آفاق استغلال المناجم القريبة إلى جذب عددٍ من المستوطنين، ومنحت المكان دفعةً قوية نحو النمو.

تبدو المدينة، عند رؤيتها من على متن السفينة، في هيئةٍ خلّابة، شأنها شأن معظم المدن الساحلية في المغرب. ويُقدَّر عدد سكّان المدينة القديمة بنحو ألفي نسمة. ويقود ممرّ واسع، يعبر بواباتٍ ضخمة، إلى الأعلى حيث تقع دار البريد، ومقرّ القيادة، وكنيسة صغيرة، ومزار متواضع.

هناك ساحةٌ وحيدة شبه خالية، وأزقّة ضيّقة متعرّجة—وإن كانت أقلّ التواءً ممّا في جزيرة باديس—تنفتح بعض المواضع على مشاهد بديعة للبحر الممتد جنوبًا نحو البحيرة المالحة، بينما ترسل المنارة ضوءها إلى مسافات قاصية.

ولا يُسمح بدخول هذا الجزء من مليلية إلا لفئةٍ محدودة من السكّان المحليين المقرّبين، ويتم ذلك غالبًا برفقة إسباني. وتنتشر نقاط التفتيش في كل مكان، فتمنع أبناء الريف من العبور، حتى وإن حملوا سلالًا صغيرة من البيض لبيعها في الأحياء العليا بأسعارٍ أقل من تلك التي تسود في سوقها المعتاد. بل إنّ دليلي الذي يعرفه

الجميع في المدينة كان غالباً ما يُمنع من الدخول، حتى حين كان يتوجّه لتسلّم أو إرسال البريد نيابةً عنّي أيام وصول البواخر!

فقط من جهة الغرب، تلتصق المدينة-القلعة التي تعود إلى العصور الوسطى عبر برزخ ضيق من البازلت يربطها بالبر الرئيسي. ويُمكن الوصول إلى الهضبة الصخرية التي تصعد نحو أقصى طرف المدينة الجديدة عبر الجسور والأسوار، حيث تعلو التلال القلاع المهيبة التي تهيمن على المكان.

بجوار الميناء، الذي يُخطط لتوسيعه بشكل كبير، تنتصب مستودعات ذات تصميم إنجليزي، ومستودعات جمركية واسعة، ويضم المرفأ تجهيزات جيدة، رغم قيض الموقع لكونه مواجهًا تقريبًا للجنوب. كما يوجد فيه نادي عسكري والعديد من الحانات. خلف الميناء تمتد الضاحية بشوارعها النظيفة والواسعة، وتحتضن قاعة السوق، والثكنات العسكرية، وما يشبه شارع البازار، حيث يدير اليهود المحليون والتجار المغاربة القادمون من طنجة أكشاكهم المتنوعة، ويبدو أنهم يجنون منها رزقًا معقولًا.

في صباحي الأحد والخميس، يمتلئ السوق بالحركة والحيوية، إذ يتوافد إليه الناس من كل أنحاء المنطقة. تحيط بالضاحية الجدران والبوابات الحديدية عند المداخل، ويقف الحراس على الحصون لتفتيش السكان المحليين الراغبين بالدخول، ومصادرةً الهراوات والأسلحة عند الحاجة. ومع غروب الشمس تُغلق هذه البوابات بإحكام، ولا يُسمح لأي شخص بالمرور بعد ذلك. وتُظهر هذه الإجراءات الاحترازية الصارمة مدى شعور الإسبان الدائم بعدم

الأمان أمام أي هجوم مفاجئ، رغم احتلالهم المكان منذ نحو 420 عامًا.

تمتد المدينة الجديدة أمام البوابة. توجد هنا حدائق تم الحفاظ عليها بجهد كبير، ونخيل صغير، تتطلب رعايته في هذه المدينة الفقيرة أموالاً طائلة وجهداً هائلاً. في مبنى خشبي صغير، تُعزف الموسيقى العسكرية مساء أيام الأحد والخميس، وفي فترة ما بعد الظهيرة خلال أشهر الشتاء. هذا من إبداع الجنرال مارينا.

أمر ببناء مسلخ حقيقي، وأعاد ترميم الحلبة الأساسية لمصارعة الثيران، حيث يتبارى سنويًا «بومبيتاس» و«ماشاكيتوس» و«بيبيتوس»[10] وغيرهم من أبطال هذه الرياضة أمام جمهور متحمس، بتوجيه الطعنات للثيران الشرسة بأسلوب فني — أو يتركون أنفسهم يُنطحون. توجد هنا منازل منخفضة شُيدت على عجل، وأكثر حداثة من تلك الموجودة في البلدة القديمة، جيدة التهوية، ومزودة بشرفات. في عامي 1906-1907، تولى مساعدو صانعي الأحذية العاطلون عن العمل تشذيب الألواح الخشبية نظرًا لندرة النجارين المتخصصين في البناء. يصعد الشارع الرئيسي قليلًا ثم ينحدر مجددًا نحو الوادي حيث أقيم الحي اليهودي الجديد والمتواضع، هو عبارة عن أكواخ طينية لفقراء الطائفة، في حين يسكن الأغنى منهم منازل المدينة الجديدة. ومع ذلك، تظل هذه المساكن أكثر أناقة من مساكن الإسبان الذين استقروا في كهوف أرضية قريبة من هناك.

---

[10] عائلة من مصارعي الثيران المشهورين في جنوب إسبانيا.

يمكن القول إن مليلية تُعدّ مدينة متحضرة، وجود أربعة فنادق جيدة وفقًا للمعايير الأندلسية، أي معايير جنوب إسبانيا يبرهن على ذلك. أما سبتة، فليس فيها سوى نزلين بائسين للغاية. وعلى سلسلة التلال المحيطة بالمدينة، ترتفع قلاع صغيرة على شكل طبول، شبيهة بتلك الموجودة في سبتة، إلا أن السيطرة على المناطق الداخلية أصبحت ممكنة بمجرد إطلاق النار من المنحدرات الجبلية الأعلى. تمر مسارات ضيقة فوق الصخور لتصل إلى هذه الحصون، التي كانت ذات أهمية كبيرة في زمن كان فيه إطلاق الرصاص أو الحجارة لمسافة 200 خطوة أمرًا صعبًا. أما اليوم، ومع امتلاك كل فرد من القبائل عددًا لا يُحصى من بنادق ماوزر، فقد فقدت هذه الحصون جدواها العسكرية. كل قلعة حجرية متصلة هاتفيًا بالقيادة، وتقوم دوريات الفرسان بحراسة الأراضي التي تفصل بينها، سواء في أوقات الحرب أو في أوقات السلم.

عند اندلاع الأعمال الحربية في صيف عام 1909، كان عدد سكان مليلية يُقدّر بنحو 12,000 نسمة، نصفهم من العسكريين المنتمين إلى مختلف الفرق، ومن بينهم كتيبة عقابية. في كل صباح باكر وبعد الظهر، بدءًا من الساعة الرابعة، يمكن رؤية الجنود يتدربون على المرتفعات الصخرية جنوب المدينة وفي ساحة التدريب الكبيرة، خاصة في الجزء الأكثر انحدارًا، الذي تمت تنقيته قبل نحو عشر سنوات من كل الكتل الصخرية التي كانت تعيق الحركة والتدريب.

منذ عام 1907، لم تعد مليلية، شأنها شأن الجزيرتين، مجرد مكان للترحيل، وهو ما ساهم بشكل ملحوظ في تحسين أوضاعها

وتخفيف النقص الحاد في عدد النساء. اليوم، لم تعد هناك أي مستعمرة للسجناء سوى في سبتة. علاوة على ذلك، أصبحت مليلية، مثل جميع الحصون الأخرى، ميناءً حرًا منذ عام 1896، ومع ذلك يواجه المسافرون تفتيشا مزعجا، بحثًا عن أسلحة مزعومة! وفي الوقت نفسه، يمارس الإسبان تهريب الأسلحة بنشاط مستمر على طول ساحل الريف، معتبرين هذا النشاط الاقتصادي حقًا أصيلًا لهم ويدافعون عنه بحرص شديد. كما تخضع جميع البضائع المستوردة، رغم حالة الميناء الحر، لرسوم جمركية متفاوتة (*Arbitrios del puerto*) ، ما يؤدي أحيانًا إلى رفع أسعار البضائع بنسبة تصل إلى 10%. إنها بداية غير حكيمة على الإطلاق!



مليلية من الجنوب، التقطت الصورة من الساحة.



الشاطئ بالقرب من مليلية؛ على اليمين حصن سانتياغو، وعلى اليسار حصن لورينزو؛ التقطت الصورة من أقصى نقطة جنوب شرق المدينة القديمة.



أشخاص على رصيف ميناء مليلية.



تحصينات ضاحية مليلية، مع مخيم الريفيين الذين يزورون السوق أمامها. وقد اجتاح السكان المحليون المدينة الجديدة يوم23 يوليو 1909، واقتحموا هذا الحصن.



"موتشاتشوس" (جنود فرقة المشاة الإسبانية) في مليلية.

"في يومي الثلاثاء والجمعة، تربط باخرة حكومية (السفينة القديمة «Mahon ») المدينة بمالقة. كما ترسو مرتين شهريًا باخرة تابعة لشركة «Compagnie Mixte» («Touache») في طريقها من وهران إلى طنجة، دون أن تعود في الاتجاه المعاكس. وبالوتيرة نفسها، تصل باخرة أخرى تابعة لشركة «Bland Line»قادمة من جبل طارق.

ومؤخرًا، بدأت سفن إنجليزية تابعة لشركة «James Power»، وأخرى ألمانية تابعة لشركة-«Oldenburg Portugiesische Gesellschaft»، بالرسو كل أسبوعين. ويُعدّ هذا التطور محل ترحيب كبير، إذ أن حيوية العقول الإنجليزية والألمانية تُسهم، على الأقل، في خلق منافسة صحية.

ويستفيد التجار الذين يستوردون ساعات الجيب والمجوهرات من ألمانيا من وصول شحناتهم سليمة، في حين أن ما بين 20% و30% من البضائع كانت تضيع أثناء عبورها عبر إسبانيا قبل بلوغ وجهتها.

سعيًا إلى تنشيط الحركة الملاحية في الميناء، شرعت الحكومة في تشييد حاجز متين. وتقع إلى الغرب من المدينة محاجر تُستخرج منها المواد، حيث تُصبّ بالقرب من المسلخ في قوالب إسمنتية تُشكَّل على هيئة كتل تزن الواحدة منها نحو 20 طنًا. ثم تُنقل هذه الكتل إلى الميناء، حيث تُربط أربع كتل معًا بواسطة مشابك خاصة قبل إنزالها في المياه.

وفي حال دخول المناجم حيّز الاستغلال، يُرتقب أن يشهد عدد السكان وحجم النشاط التجاري انتعاشًا ملحوظًا. ويُبيّن الجدول الآتي تطوّر عدد السكان وحجم تجارة البضائع خلال الثلاثين عامًا الماضية.

الحركة التجارية	عدد سكان مليلية		السنة
	عسكري	مدني	
بسيطات	رجال		
1 600 000	2000	حوالي 2500	1880
3 500 000		4000	1890
5 200 000	5-6000	9100	1900
9 802 000		10 900	1904
12 676 900		14 000	1907
		15 900	1909
	40 000	50 000	1909[11]
22 410000	16 000	40 000	1910

كما هو واضح، يشهد عدد سكان هذا الحصن ذي الأهمية البالغة نموًا مطّردًا ومتسارعًا، ومن المرجّح أن يزداد أكثر متى ساد الهدوء وأُقيمت علاقات متوازنة مع السكان المحليين. وقد سجّل عام 1909 ارتفاعًا ملحوظًا في الواردات نتيجة ظروف الحرب، غير أن الزيادة في عدد السكان قد تؤدي إلى تراجع طفيف في هذا الإجمالي خلال عام 1910.

وتحتل ألمانيا حاليًا المرتبة الخامسة فقط—بعد أن كانت غائبة تمامًا قبل بضع سنوات—إذ تصدّر أكياس الكتان، والأقمشة

[11] النصف الثاني من العام.

القطنية وشبه الصوفية، إضافة إلى الجعة والمشروبات الكحولية من هامبورغ، فضلًا عن الأدوات الحديدية، وأواني المائدة الفخارية، والزجاج الوارد من بوهيميا عبر هامبورغ.

وتسجّل واردات الشعير ودقيق القمح والأرز أرقامًا مرتفعة، إلى جانب الجير والإسمنت والفحم، مدفوعةً بازدهار حركة البناء. كما تشمل الواردات أيضًا المشروبات الكحولية، والمعلّبات، والأكياس، وألواح التسقيف، والأواني الزجاجية، والأقمشة القطنية، والبقوليات، والسكر، والشموع.

ومع ذلك، تبقى القوائم المتاحة غير دقيقة إلى حدّ كبير، إذ تُدرج كميات كبيرة من البضائع تحت وصف «من أصل إسباني» دون أن تكون كذلك في الواقع، كما هو الحال بالنسبة لمعظم السلع التي تصل إلى مليلية عبر البريد .بالإضافة إلى الآلات، بما في ذلك قاطرتا سكك الحديد المنجمية، لأن المصانع الألمانية لديها ممثلون في مدريد. يتم تسجيل الأواني المطلية بالمينا الفرنسية والألمانية على أنها من أصل مغربي، لأنه يتم إعادة شحنها في طنجة، وما إلى ذلك.

يمتلك تاج قشتالة مستعمرة أخرى على الساحل الصخري للمغرب، تقع قبالة الحدود الجزائرية، ولم تعد بالتالي تُعدّ جزءًا من منطقة الريف. وهي جزر الشفارين الثلاث، التي يُطلق عليها سكان المناطق الداخلية اسم «جزر كبدانة»، نسبةً إلى القبيلة التي تنتمي إليها.

وحتى عام 1849، كانت هذه الجزر الصغيرة ضمن نطاق المجال الريفي. غير أنه حين كلّفت فرنسا آنذاك—وسط ضجّة كبيرة—المارشال ماك ماهون باحتلالها، سبقتها إسبانيا بساعات قليلة، إذ نفّذت عملية عسكرية متزامنة برًّا وبحرًا.

وتتكوّن هذه الجزر الهامشية من ثلاث كتل صخرية صغيرة، لا يتجاوز طول أكبرها كيلومترًا واحدًا من الغرب إلى الشرق، ونصف ذلك عرضًا. ومع ذلك، فهي تتمتع بميناء هادئ جيد التجهيز، وبمنارة مرتفعة تبعث ضوءًا أبيض ثابتًا.

وكما هو الحال في جزيرتي باديس والنكور، تعتمد هذه الجزر في تموينها—بما في ذلك مياه الشرب—على الوطن الأم. وقد كان هناك منذ زمن تواصل محدود مع سكان الداخل، وإن لم يكن نشطًا.

ومنذ صيف عام 1908، بسطت القوات الإسبانية سيطرتها أيضًا على الرأس القاري المقابل، «رأس الماء»، الواقع على مسافة تقلّ عن ثلاث كيلومترات، وذلك في إجراء يفتقر إلى أي سند قانوني.

وحدث الأمر نفسه في تلك الفترة مع «الريستينغا»، أضيق نقطة في ذلك الجسر الرملي الذي يفصل بين البحر الأبيض المتوسط و «سبخة بو عارك». وكان ذريعة ذلك الاضطرابات التي أثارها «بو حمارة» المُطالب بالعرش، والتي أججتها الأنشطة الأوروبية، ولا سيما الفرنسية. من خلال التحكم في الريستينغا، تسيطر إسبانيا على الطرق التجارية المباشرة من الحدود

الجزائرية إلى مليلية؛ ومن الصعب أن تتخلى عن النقطتين اللتين استولت عليهما حديثًا. وبذلك، تم خلق نقطة خلاف أخرى بين المغرب والدول الغربية، على ضفة البحر الأبيض المتوسط.

لم يُفلح جوارٌ امتدّ لقرون في ردم الهوّة العميقة التي تفصل بين الريفيين، المعتزّين بحريتهم وشجاعتهم، وبين الإسبان البائسين.

لم يُحسن الإسباني، المشبع بالتعصّب الديني، يومًا فهم كيفية التعامل مع المسلمين. فحتى أفقر عمّال الموانئ يتعاملون مع الأفارقة بكبرياء متعالٍ، وهو سلوك يدركه الأمازيغ الجبليون—بفطنتهم وروح رجولتهم—بوضوح تام.

وفي حين لا يُبدي الإسبان اهتمامًا يُذكر بتعلّم لغات السكان المحليين، رغم سيطرتهم منذ أجيال طويلة على المنافذ الوحيدة للمنطقة، نجد أن كثيرًا من الريفيين يتقنون الإسبانية. ففي جزيرة باديس، لا يوجد سوى رجل واحد يُجيدها، وصبي يتحدث بها ممزوجة بعربية ركيكة؛ وينطبق الأمر ذاته على جزيرة النكور، وبدرجة أقل في سبتة ومليلية.

في المقابل، لا يكاد أحد من الإسبان يعرف اللغة الريفية السائدة في عموم الريف الشرقي، مما يضطر السلطات في الحصون إلى الاعتماد الدائم على مترجمين، وجميعهم من أبناء المنطقة.

ومع ذلك، يفاخر كثير من أبناء قشتالة—في جهل واضح بواقع الحال—بأن أمتهم تحظى بمحبة السكان المحليين، رغم أن النزاعات الدموية المتكررة، سواء اتسعت رقعتها أم ضاقت، تظل مصدر قلق ملموس.

توجد في سبتة فرقة استعراضية قوامها نحو 150 «ريفيًا»، تبدو وكأنها صورة كاريكاتورية باهتة لجيش استعماري. ويُجنَّد أفرادها غالبًا من بين أشخاص اضطرتهم ظروف مختلفة—ولا سيما الثأر—إلى الابتعاد مؤقتًا عن موطنهم. وهم شبّان أقوياء، حسنو المظهر، يبدون أكثر جاذبية مقارنةً بـ"الموتشاتشوس."

غير أنّ هؤلاء الرجال يظلون، حتى وهم في خدمةٍ الأجنبي، ريفيين معتزّين بحريتهم؛ فبعد أيام قليلة من اندلاع آخر مواجهة، اختفى معظمهم، إذ سارعوا بالعودة إلى ديارهم للالتحاق بإخوانهم، والمشاركة في القتال ضد أولئك الذين درّبوهم على استخدام الأسلحة الأوروبية.

لو أحسنت حكومة مدريد التعامل مع المغاربة، ولو كفّ الإسبان عن المساس بكبرياء سكان الريف كلما سنحت لهم الفرصة، لما ظلّوا منذ زمن طويل محصورين في معسكراتهم القاحلة والبائسة. فسكان الريف، رغم تعلّقهم العميق بحريتهم، لا يرفضون منافع التجارة؛ غير أنهم، إذا اضطروا إلى مقايضة أرباح وافرة بإهانات مُرّة، آثروا التخلّي عن الربح المعروض عليهم.

وإذا ما قورِن أبناء الريف بالمسيحيين المقيمين على سواحلهم—جسديًا ومعنويًا—مالت الكفّة، على نحو لافت، لصالح أولئك «الأفارقة»، الأمر الذي يفسّر جانبًا من مشاعر الازدراء التي يكنّونها للإسبان.

تبلغ المساحة الإجمالية لهذه الحصون نحو 35 كيلومترًا مربعًا. وهي نقاط معزولة كئيبة، تعاني ضعف الإدارة وسوء التدبير، فيما

تستنزف صيانتها موارد مالية ضخمة تُثقل كاهل إسبانيا الفقيرة على نحو لا يُحتمل. ومع ذلك، ما تزال متمسكة بها وفاءً لتقاليد عريقة، وصراعات امتدّت قرونًا، ودماءٍ غزيرة سُفكت—كأنها بقايا إمبراطورية "لم تكن تغيب عنها الشمس."

ومن خلال هذه الجيوب الصخرية القاحلة، تتغذّى الأمة على مجدٍ باهت وعظمةٍ مفقودة، على أمل أن تشرق أيام أفضل لأحفاد «سيد محاكم التفتيش»، تلك الشخصية القشتالية الشهيرة. غير أنهم لم ينهضوا يومًا بما يفرضه عليهم هذا الإرث الثقيل، وهو الواجب الأول للأمم المتقدمة: فعلى مدى قرون، وقفوا حُرّاسًا عند المنافذ الوحيدة لسلسلة جبال غنية لم تُستغل، لكنهم لم يسعوا إلى تنشيط التجارة فيها، ولا إلى استكشاف كنوزها الكامنة، ولا إلى تعريف العالم بهذا الإقليم الغريب القابع على أبواب أوروبا.

بل إنهم، بدافع غيرة عقيمة، حالوا دون أن يقوم غيرهم بما عجزوا هم عنه، وأسهموا—بسوء سلوكهم—في ترسيخ مشاعر العداء للأجانب لدى أبناء الجبال المتحفّزين. وهكذا كان لهم دورٌ كبير في أن يظلّ الريف مجهولًا، بل أشدّ غموضًا من أعماق أفريقيا السوداء.

غير أنّ الحكومة في مدريد لا تكفّ عن التأكيد، في كل مناسبة—ملائمة كانت أم غير ملائمة—على «حقوقها التاريخية» في المغرب بأسره، لا في منطقة الريف المجاورة وحدها، رغم ما يربطها بها من صلات وثيقة. غير أنّ هذه الحقوق تظلّ عاجزة عن أن تمنح تلك الإمبراطورية الآفلة ما تحتاج إليه من قوة فعلية.

ولم يمض زمن بعيد على الأحلام التي راودت أبناء شبه الجزيرة الإيبيرية، المعتزّين بمهمّة ملكهم «الأكثر كاثوليكية»، والقاضية بطرد «المغاربة» من جبال الأطلس، ورفع الصليب والراية الحمراء والصفراء فوق كامل التراب المغربي، في مسيرة انتصارات متخيَّلة تمتدّ حتى ضفاف النيل. غير أنّ ذلك الوهم قد انقضى زمنه؛ فقد أخذت النظرة إلى الأمور تميل تدريجيًا إلى قدر أكبر من التعقّل، والتوجّه نحو أهداف أكثر واقعية.

ومع ذلك، لا يزال كثير من الإسبان يعتقدون فعلاً أنّ لأمتهم وحدها القول الفصل في الشؤون المغربية، باعتبار أن الإمبراطورية الشريفة بأسرها تدخل ضمن نطاق مصالحها. وكأنّ إسبانيا لا تنتهي عند حدودها الطبيعية، بل تمتدّ ـــ في ذهنهم ـــ حتى جبال الأطلس.

وقد ترسّخ هذا التصوّر في الوعي الجمعي، بوصفه جزءًا من الإرث التاريخي وعظمة إسبانيا البائدة، بعد أن تغذّى على مدى قرون من الصراع المتواصل، والعداء المتبادل، بين المغاربة والقشتاليين.

وليس هذا الاعتقاد خاليًا تمامًا من المبرّرات في نظر أصحابه؛ فعلى الرغم من أنّ إسبانيا لم تتجاوز في الواقع حدود مراكزها الساحلية على امتداد الريف ـــ باستثناء مليلية خلال العقد الأخير ـــ فإنّ كل إسباني معتزّ بقوميته يظلّ مقتنعًا بأنّ جيشه قادر، ببذل جهد يسير، على إخضاع بلاد الريف، وذلك رغم الهزائم المتكرّرة التي مُني بها.

ومن المفارقات اللافتة أنّ المهرّبين الإسبان كانوا يزوّدون قبائل الريف، المعروفة بطبعها الجامح، بأسلحة حديثة، وكأنهم بذلك يُمهّدون—من حيث لا يدرون—لتحقيق ذلك الهدف البعيد يومًا ما.

وعلى الرغم من أنّ إسبانيا أغلقت أبواب الريف بإحكام طوال أربعة قرون في وجه أي محاولة لاستكشاف هذه السلسلة الجبلية الغنية، علميًا واقتصاديًا، فإنها لم تستخلص من ذلك عجزها عن القيام بهذه المهمة، بل خلصت إلى أنّه لا ينبغي لغيرها أن يقوم بها.

وأستحضر هنا تجربة شخصية لا أنساها: فقد حالت الرياح المعاكسة ذات مرة دون إبحار قاربي، فأجبرته على الرسو قبالة جزيرة باديس. وكان قائد الجزيرة، وهو برتبة رائد، يُبدي قلقًا حقيقيًا من أن أنزل إلى البر، وكأنني قد أستولي على ما عجزت إسبانيا عن نيله طوال أربعة قرون.

كان قاربي الشراعي، بمن عليه من الركاب، خاضعًا لمراقبة دائمة ليلًا ونهارًا. وكنتُ، كلما خرجت بقاربي الصغير لأجدّف حول الصخرة المجاورة طلبًا لبعض التمرين، يتبعني فورًا أحد أفراد البحرية (*Compañía de la Marina*) من مسافة لصيقة.

وكانت الرياح الغربية تهب بإصرار، فمهما حاولت، لم أتمكن من رفع المرساة لأسابيع. ومع ذلك، لم يكفّ السيد الرائد عن محاولاته المتكررة لإقناعي بالإبحار. وبلغ به الأمر ذات مرة أن أرسل

بحّارًا قبيل منتصف الليل بربع ساعة ليسألني إن كنت مستعدًا للمغادرة، بحجة أن الرياح توشك أن تتغيّر!

ولما تعذّر عليّ، مرة أخرى، الاستجابة لطلبه، لجأ إلى منع تزويد طاقمي بالمياه الصالحة للشرب. ولم يكن أمامنا من خيار سوى التفاوض مع حراس الريف على البرّ، للحصول على الطعام والماء الصالح للشرب من أقرب القرى، التي تبعد نحو ساعتين عن الساحل.

تلك هي، إذن، حال الرجال الذين يزعمون أنهم يحملون لواء «نشر الحضارة» في شمال أفريقيا!

ينبغي أن يظلّ هذا العمل المتواضع بمنأى عن كل ما هو آنيّ وراهن. ومع ذلك، قد لا يكون من غير المفيد أن نطّلع على الأسباب المباشرة لآخر معارك الريف من خلال شهادة رجلٍ أكثر إلمامًا بالميدان من مراسلي الصحف اليومية.

كما أُشير مرارًا، تُعدّ جبال الريف من أغنى مناطق شمال أفريقيا، ولا تعود أهميتها إلى مواردها الطبيعية فحسب، بل إلى ثرواتها المعدنية على وجه الخصوص، وهو ما جعلها محطّ أطماع منذ زمن بعيد.

وقد سعى رجال أعمال إسبان وغيرهم إلى تثبيت موطئ قدم لهم في هذه المنطقة، سواء عبر شراء الأراضي أو إقامة علاقات مع القبائل والعشائر. غير أنّ جميع هذه المحاولات باءت بالفشل، بفعل الريبة المتأصلة لدى الريفيين، وعدائهم للإسبان والفرنسيين، إلى جانب غياب سلطة مركزية فعّالة للمخزن، فضلًا عن تعلّق

السكان الشديد بحريتهم؛ إذ كانوا يرون في منح أي امتياز للأجانب مدخلًا إلى التبعية القسرية.

وفوق ذلك، فإنّ اقتناء الأراضي في الريف يظلّ أمرًا بالغ الصعوبة، حتى في الحالات التي تُبدي فيها القبيلة استعدادًا مبدئيًا لذلك.

فإلى جانب أنّ لكل فرد من أفراد العشيرة حقًا متساويًا في ممتلكاتها—بما يجعل تصرّف الفرد في الأرض بشكل منفرد أمرًا غير ممكن—ينصّ الفقه المالكي صراحةً على أنّه: "إذا انتقلت ملكية ما إلى أطراف أخرى، وكانت لجهات دينية صلة بها، وجب أن يتمّ هذا البيع أو الهبة بموافقة خطّية من الحاكم، وأن يُبرم ويُوثّق أمام أحد قضاة المخزن."

غير أنّ سلطة السلطان في منطقة الريف تظلّ ذات طابع روحي أكثر منه سياسي، بوصفه أمير المؤمنين، في حين تمتلك فروع الزوايا الدينية—ولا سيما الصوفية منها—مساحات واسعة من الأراضي في مختلف الجهات. ولا تكاد تشذ بقعة على امتداد الساحل عن هذه القاعدة.

ومن ثمّ، فإنّ هذا الحكم الشرعي يظلّ نافذًا على الدوام، بما يزيد من تعقيد مسألة نقل الملكية أو التصرّف في الأراضي.

عندما استقرّ بوحمارة في المناطق الداخلية لشبه جزيرة هرك، اتخذت الأحداث منحًى مختلفًا. فمن معقله في سلوان، بسط فرسانه نفوذهم على منطقة قلعية، وإن ظلّ هذا النفوذ غير مطلق. وفي

تلك الأثناء، بادر رجال أعمال إسبان إلى الاتصال به، وحصلوا على امتياز لاستغلال مناجم الرصاص الواقعة شمال شرق قلعية، قرب سوق الخميس. ولم تمضِ فترة طويلة حتى حذت شركة فرنسية حذوهم، فنالت بدورها حقّ التنقيب عن الحديد بالقرب من الناظور.

ولم يُعر الإسبان ولا الفرنسيون اهتمامًا يُذكر لحقيقة أنّ هذا المتمرّد، الذي كان في حاجة دائمة إلى المال، لم يكن يملك أصلًا صلاحية منح امتيازات منجمية.

ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنّ المنقّبين الألمان كانوا أوّل من تجرّأ على التوغّل في المناطق الداخلية المضطربة انطلاقًا من مليلية، لاستكشاف الثروات المعدنية في هذه المنطقة. وقد تصرّفوا بثقة لافتة، إذ كانوا يرسلون تقاريرهم إلى مليلية دون تشفير، فكانت السلطات العسكرية الإسبانية تعترض هذه المراسلات، وتطّلع على مضمونها، ثم تبني خطواتها اللاحقة على ما ورد فيها من معلومات.

وكان ثالث الإخوة مانسمان هو من قام بهذه الرحلات خلال عامي 1905 و1906. وللمفارقة، لم تكن هذه الممارسات غريبة عن السلطات الإسبانية، إذ دأبت عليها منذ زمن؛ فقد حُجبت العديد من رسائلي في جزيرة باديس ومليلية خلال الأعوام 1906 و1908 و1909 دون تردّد، كما لم تُرسل برقياتي قط.

لم يُبدِ سكان قلعية— لأن المناجم تقع ضمن أراضي قبائل آيث شيكر وآيث بويفرور وآيث بوغافر—أيّ رضا عن بيع أراضيهم

من قِبل غريب إلى غرباء. وعندما عبّروا عن رفضهم وتمردوا، ردّ بوحمارة بقسوة، إذ أمر بقطع رؤوس بعض زعمائهم وتعليقها على أسوار قلعة سلوان، في رسالة ترهيب واضحة.

وازداد سخط السكان المحليين حين لم تفِ الشركتان بوعودهما بتشغيل أكبر عدد ممكن من أبناء القبائل في المناجم، مفضّلتين الاستعانة بعمّال إسبان وُصفوا بالكسل وسوء السلوك، وكانوا في كثير من الأحيان لا يدفعون ثمن ما يشترونه من الدجاج والبيض للساكنة.

وفي خضمّ ذلك، طُرح على بوحمارة عرض لبيع جبل حمام الشهير، الواقع في أراضي آيث ورياغر. ورغم غموض التفاصيل الدقيقة لهذه الصفقة، فقد راجت شائعات عن مبلغ يقارب مليون دورو—أي نحو خمسة ملايين بسيطة. ولتثبيت نفوذه هناك، أرسل بوحمارة ثلاثمائة فارس لتأمين السيطرة على الجبل.

غير أنّ هؤلاء قوبلوا بمقاومة عنيفة، فلم يتمكّن سوى نصفهم تقريبًا من العودة إلى سهل سلوان، بعد أن أنهكت خيولهم وسقطت من شدّة الإعياء. وعلى إثر ذلك، أُوكل إلى قائده الأسود، الجلالي مول لوضو، تنفيذ حملة انتقامية على رأس 1500 فارس مدجّجين بالسلاح.

لكنّ محاربي آيث ورياغر، مدعومين برجال آيث عمارت، تصدّوا للقوة المهاجمة وخاضوا معها معركة دامية عند وادي غيس، قرب الساحل. وانتهت المواجهة بهزيمة قاسية للقائد الأسود، اضطرّ معها إلى ترك ما يقارب 200 قتيل في ساحة المعركة—وهو أمر

يُعدّ، في الأعراف السائدة في بلاد الإسلام، عارًا يفوق في فداحته مجرد خسارة المعركة.

ولم يكد المنسحبون يلوذون بالفرار حتى تعرّضوا لهجوم جديد من محاربي آيث وليشك، فازدادت خسائرهم، وعاد الفرسان الذين خرجوا مع الحملة وقد تناقص عددهم على نحوٍ كبير.

وعقب هذه الأحداث مباشرة، شرع الريفيون في طرد عمّال المناجم. أمّا القائد الناصر، الذي كان يُفترض أن يتولى حمايتهم، فقد فرّ مع رجاله. وفي السادس من أكتوبر، هاجمت مجموعة صغيرة من الريفيين—نحو عشرين رجلًا—72 إسبانيًا متواجدين في سوق الخميس.

وعلى الرغم من امتلاكهم أسلحة نارية وبنادق براونينغ وكمّيات من الديناميت، فإنهم لم يجرؤوا على المقاومة. فقد أمرهم أحد الريفيين قائلًا: «ارفعوا أيديكم(*arriba las manos*)"، فامتثل الإسبان—وعددهم اثنان وسبعون—ورفعوا أيديهم، تاركين أنفسهم عرضةً للنهب؛ إذ سُلبت أموالهم، بما في ذلك النقود التي أخفوها في ثنايا ثيابهم، قبل أن يُطردوا في نهاية المطاف.

ووصلوا، على شكل مجموعات متفرقة، خلال الليل إلى معسكر بوحمارة. وبحلول الساعة الثامنة صباحًا، كان خمسة أشخاص لا يزالون في عداد المفقودين: صاحب المقصف وزوجته وثلاثة أطفال صغار، كانوا قد أُخِذوا إلى الجبال دون تقدير لخطورة الأوضاع المضطربة.

واحدٌ وسبعون من الإسبان «الفخورين»ـــأحفاد سادة محاكم التفتيش وأبطال إسبانياـــتركوا نساءهم وأطفالهم خلفهم حفاظًا على حياتهم! ثم اجتمعوا، يتباهى كلٌّ واحد منهم ببطولاتٍ يكاد العقل لا يصدّقها، إلى أن لاحَت، وسط الضباب الكثيف، أشباحُ المفقودين.

وبينما كانت النساء والأطفال غارقين في نومٍ عميق من شدّة الإعياء، وقف صاحب المقصف، بثيابه الممزّقة وأطرافه النازفة، في حلقةٍ من مواطنيه، يروي ما حدث: فبعد الهجوم، وحين تفرّق رفاقه، ظهر ثلاثة من محاربي الريف وتكفّلوا بمرافقتهم إلى برّ الأمان. كانوا يحملون البنادق في يدٍ، وطفلًا في اليد الأخرى، حتى أوصلوا الجميع إلى سفوح الجبال وممرٍّ للبغال، بحيث يستحيل أن يضلّوا الطريق.

وعند وداعهم، سأل عمّا إذا كان بين الرجال الاثنين والسبعين من يُنكر هذه الرواية. ولم يفعل أحد. وهكذا بدت الفكرة الأساسيةـــ أن الريفيين أناس ذوو مروءةـــبعيداً عن كل مبالغة.

لقد رأيتُ ذلك وسمعتُه بنفسي، إذ كنتُ حاضرًا في معسكر بوحمارة خلال تلك الأيام العاصفة.

غادر الفرنسيون مدينة الناظور طواعية، بعدما تبيّن لهم أنّ رجال الريف لم يعودوا على استعداد لخوض المزيد من المواجهات. وعندئذٍ انطلقت مفاوضات جدّية بين الشركتين وقبائل قلعية.

وقد جدّدت هذه القبائل مطالبها السابقة، مؤكّدة ضرورة الحصول على إذن كتابي من الحاكم لمباشرة أعمال التنقيب، إلى جانب

إبرام عقد شراء قانوني للأراضي الغنية بالمعادن مع أصحابها الفعليين، أي الفرق القبلية.

غير أنّ الإسبان رفضوا هذين الشرطين، متمسّكين بأنّ بوحمارة كان قد تلقّى ثمن البيع في وقت سابق.

فردّ الريفيون بأنّ ذلك الرجل لم يكن يملك أصلًا أي حقّ في التصرّف، وأنه، بصفته متمرّدًا، لا يملك أهلية إبرام عقود مع الحاكم. كما أشاروا إلى أنّ الأختام الواردة على سند الشراء لم تُسجَّل لدى أي قاضٍ في فاس، مما يجعلها باطلة قانونًا. وفوق ذلك، لم تتلقَّ فرق القبائل فلسًا واحدًا من تلك الأموال.

غير أنّ الإسبان تجاهلوا هذه الاعتراضات، في حين آثر الفرنسيون—وفق نهجٍ مألوف—البقاء في الظل، تاركين لحلفائهم مهمة مواجهة الموقف.

وعندئذٍ وجّهت القبائل عدة رسائل إلى القيادة العسكرية في مليلية، طالبت فيها بوقف إرسال العمال إلى خط السكة الحديدية المؤدي إلى المناجم، إلى حين تسوية النزاع. غير أنّ الجنرال مارينا ردّ بحزم، ملوّحًا باستخدام القوة المسلحة إذا استمرّوا في معارضة أعمال السكك الحديدية.

وعلى هذا الأساس، توجّه وفد من الريفيين إلى فاس، ملتمسًا من السلطان التدخّل للحيلولة دون إراقة الدماء، ومؤكّدًا أنّ نحو خمسين ألف بندقية «ماوزر» حديثة جاهزة للردّ على العنف بمثله. وفي الوقت ذاته، كانت البعثة الإسبانية الخاصة، برئاسة

ميري ديل فال، في طريقها إلى فاس وهي تحمل تعليمات ذات صلة بهذا الملف.

غير أنّ رئيسها سعى—على نحو يفتقر إلى الحنكة الدبلوماسية، وربما عن قصد—إلى الحصول على تصديق رسمي على رخصة التنقيب التي منحها بوحمارة. وكان من الطبيعي أن يُقابل طلبه بالرفض، إذ إنّ وضع ختم السلطان على وثيقة صادرة عن متمرّد يُعدّ بمثابة اعتراف به خليفةً شرعيًا.

وزاد من تعقيد الموقف أنّ أحد كبار المساهمين الإسبان في تلك المناجم، وهو فيانويفا عضو الحكومة، حال دون أيّ نهج متّزن تمليه الحكمة والخبرة. وهكذا انزلقت الأمور نحو المواجهة، واندلعت المعارك.

أما كيف بدأت تلك المواجهات على نحو مُخزٍ لإسبانيا، وكيف تحوّلت إلى صراع دموي بين الجانبين، وكيف انتهت نهاية غير مشرّفة للقوات الأوروبية، فذلك مما لا يزال حاضرًا في الذاكرة الحديثة، ولا مجال للخوض فيه هنا.

كان الضغط الدبلوماسي على الحكومة المغربية هو «الإنجاز» الوحيد الذي أمكن للأسلحة الإسبانية تحقيقه. فحتى بعد أعنف المواجهات، لم تسفر النتائج عن أكثر من إعادة تأكيد ملكية طرفاية—التي مُنحت مرارًا دون أن تُفرض السيطرة عليها فعليًا—إلى جانب توسيع النطاق الحدودي لسبتة ومليلية.

ومرّة أخرى، تعهّد السلطان بعدم إقامة تحصينات في محيط المدينتين، ومرّة أخرى يُجبر على دفع تعويضات باهظة، رغم أنه

لم يكن طرفًا مباشرًا في القتال. بل إنّ سلاطين المغرب—ومنهم عبد الرحمن، ثم الحسن الأول—دأبوا في مناسبات متعددة على التأكيد أنهم غير مسؤولين عن طبيعة العلاقة القائمة بين سكان المراكز الإسبانية والقبائل الريفية المجاورة.

وهكذا تتكرّر القصة ذاتها، دون أن يطرأ عليها تغيير يُذكر، لا في جوهرها ولا حتى في تفاصيلها.

ومن المستجدّات الجديرة بالذكر عزمُ إسبانيا على إنشاء مراكز جمركية على الحدود الخارجية لنقاطها البرّية، أي عند مداخل البلاد، على أن تُخصَّص عائداتها لتمويل قوة شرطة قوامها نحو 1200 عنصر. ومن المقرّر نشر هذه القوة في محيط مليلية وسبتة، وكذلك في المواقع المقابلة على البرّ الرئيسي قبالة جزيرتي النكور وباديس.

غير أنّ هذا الإجراء لا يعدو كونه إقرارًا ضمنيًا بالضعف، على نحوٍ شبيه بما تضمّنته معاهدة أُبرمت قبل خمسين عامًا.

ويُلاحظ أيضًا أنّ سبتة لا تضطلع بأي دور يُذكر في الوساطة التجارية، حتى في أبسط أشكالها؛ إذ يوجد إلى الجنوب منها مباشرة سوق نشط داخل الريف، الأمر الذي يجعل من الصعب أن تتدفّق إليها حتى أبسط العائدات.

لقد مرّ عامان منذ أن قمتُ بتضميد جراح مقاتلي الريف الذين أصابتهم القذائف الإسبانية. ومنذ ذلك الحين، لم يطرأ تغيير يُذكر في محيط مليلية، سوى رغبة إسبانيا في تشييد منارة عند رأس

هرك. فما تزال المناجم مهجورة كما كانت، ولم يتقدّم مدّ خط السكة الحديدية نحو الداخل إلا ببطءٍ شديد، كما تراجع إقبال سكان قلعية على الأسواق.

وفي خضمّ هذا التوتّر، اندفع الريفيون—غاضبين—بقيادة ثلاثة من زعمائهم: الشريف محمد أمزيان، والشاذلي الأب وابنه، نحو مليلية. وكانوا يهتفون، وهم يشتبكون مع القوات الإسبانية وسط دوّي البنادق: "أتريدون المعادن دون مقابل؟ خذوا الرصاص—رصاصًا جيّدًا—نقدّمه لكم بسخاء"!

وستظلّ الذاكرة الشعبية، زمنًا طويلًا، تحتفظ بأصداء تلك المواجهات؛ إذ ستُروى، حول مواقد الأمسيات، حكايات الأبطال الذين تصدّوا لمحاولات المساس بحريتهم الراسخة، ويتناقل أحفاد قراصنة الريف قصص القتال وكيف يُحسن الرجال استخدام بنادقهم.

وقد توفّي القائد الشاذلي الأكبر في فاس، ربيع عام 1910، إثر نوبات تشنّج، في حادثة سعى المخزن إلى التكتّم عليها. غير أنّ ابنه—الذي يشبه في عزيمته القائد محمد أمزيان—أقسم، ومعه آلاف المحاربين، ألّا تغادر أي شحنة من الخام الجبال ما لم تُكتسب بوسائل مشروعة.

وقد يجرّ هذا الموقف أيّامًا عصيبة جديدة، دون أن يكون لزيارة الملك ألفونسو الأخيرة إلى مليلية أثر يُذكر في تغيير مجرى الأحداث.

لا تبدو إسبانيا اليوم أكثر رسوخًا على حدود منطقة الريف مما كانت عليه قبل المعارك الأخيرة. بل هناك شكّ في قدرتها، في المستقبل، على بسط نفوذها على هذا المجال الذي تُعدّه ملكيتها الطبيعية، سواء عبر المعاهدات أو من خلال الحظّ في الحروب، أو حتى على "تطوير" منطقة يسكنها رجال بهذه الصلابة.

أما النجاح الملموس الوحيد، فيتمثّل في احتلال السهل الواقع جنوب السبخة، ولكن فقط حتى سفوح الجبال الغنية بالرصاص. صحيح أنّ بعض الأكواخ الخشبية أُقيمت لإيواء القوات الإسبانية على الهضبة الطينية المقابلة لقصبة سلوان—حيث كانت خيام فرسان بوحمارة تنتصب في السابق—غير أنّ الجبال نفسها، التي شكّلت مسرحًا لمعارك عام 1909، ما تزال خالية من أي وجود إسباني حتى الآن.

ومع ذلك، فإن «استكمال» السيطرة على هذه المواقع النائية، و«تنظيم» المناطق المحايدة المحيطة بسبتة ومليلية من حين إلى آخر، يظلّ أمرًا جاريًا كالمعتاد، لا تستطيع فرنسا المتحفّظة، ولا المغرب المجرّد من استقلاله السياسي الفعلي، أن يحولا دونه.

4. مدينتان.

الشاون. - تطوان.

لا تضمّ هذه السلسلة الجبلية بأكملها سوى عدد محدود من التجمعات التي ترقى إلى ما هو أكثر من مجرد قرى. فأجدير، وأدوز، وزاوية التفاح، وسنادة—كلّها لا تعدو أن تكون قرى صغيرة، لا يتجاوز عدد منازلها في الغالب بضع مئات، وتتوزّع مساكنها وفق الروابط العائلية.

وحتى دار القائد بوزيان، الواقعة شرق آيث سعيد، ليست سوى بناء متداعٍ تحيط به بعض المنشآت البسيطة، فيما أُقيمت إلى جواره أبنيةٌ أخرى متفرّقة.

ولا يمكن الحديث عن مدن حقيقية في هذه المنطقة الجبلية الممتدة شمالًا سوى عن مدينتين اثنتين: الشاون وتطوان.

لا يسعني أن أُطيل الحديث عن الشاون، إذ لم يُتح لي قطّ أن أزورها، رغم أنها لا تبعد سوى مسيرة يومين عن مسكني في تطوان، حيث أقمت عدة أشهر. فقد كان الجميع هناك يعلم أنني ألماني، أي كافر في نظرهم، وكان ذلك كافيًا لأن يحول دون العثور على من يرشدني إلى الطريق إلى تلك المدينة. حاولت مرارًا، وقدّمت وعودًا سخية، لكن دون جدوى.

ولا يُعرف حتى الآن سوى أوروبي واحد استطاع أن يدّعي رؤيتها، وقد عاد بمعلومات محدودة عنها: فيكونت دي فوكو، ذلك الباحث الجدير بالتقدير، الذي تنكّر في زيّ يهودي مغربي وسافر جنوبًا انطلاقًا من تطوان. ومع ذلك، كانت زيارته عابرة، ولم تُتح لهـــولا لغيرهـــفرصة استكشافها على نحوٍ فعلي .أما ما يمكنني إضافته، فمستمدّ من روايات أصدقائي الريفيين.

تقع المدينة على بُعد نحو 50 كيلومترًا جنوب تطوان، في موقعٍ طبيعيّ أخّاذ على المجرى الأعلى لوادي لاو، وعلى مسافة تقارب 40 كيلومترًا من مصبّه، وعلى ارتفاع يبلغ نحو 620 مترًا فوق سطح البحر.

ويمرّ الطريق المؤدّي إليهاـــوالذي يرتفع أحيانًا إلى نحو 700 مترـــعبر وديانٍ خصبة خلّابة، تكسوها بساتين دائمة الخضرة وتخترقها جداول مياه جارية. وتنطلق القوافل عادةً من تطوان عند الظهيرة، لتقضي استراحة في الفنيدق[12]، التي تمثّل النصف الأقصر من الطريق، قبل أن تستأنف المسير مع بزوغ الفجر، فتصل إلى المدينة قرابة منتصف النهار.

وتقوم المدينة على السفح الجنوبي لجبل المسجد، ويُقال إنّها تشهد تساقطات ثلجية كثيفة خلال شهري يناير وفبراير. وهي مقرّ لعدد من الشرفاء وتضمّ العديد من المساجد. وقد احتفظ هؤلاء الشرفاء، منذ القدم، باستقلالٍ واسع، ولم يكونوا يتسامحون إلا نادرًا مع

[12] دليل آخر عن الجهل بمواقع المنطقة. توجد الفنيدق في الاتجاه المعاكس قرب مدينة سبتة

وجود ممثّل للسلطة المركزية؛ وحتى في تلك الحالات، كان نفوذه يظلّ محدودًا، وأضعف من تأثير درويش جوّال.

وتخضع شؤون المدينة لسلطة أمين الشرفاء، الذي يتولّى الإشراف على الأحياء عبر ممثّليه. كما تتميّز بطابعٍ معماري متأثّر بعناصر خارجية، ولا سيما غربية؛ فعلى غرار القصر الكبير ووزان، لا تنتشر فيها الأسطح المستوية الشائعة في بيوت الريف، ولا الشرفات المعروفة في تطوان، بل يغلب عليها استخدام القرميد الأحمر المائل إلى البني في تسقيف المباني.

أما تطوان، تلك الحاضرة المغربية البديعة، فيصحّ أن تُوصف بعاصمة منطقة الريف، وإن لم تكن تنتمي إليه جغرافيًا. وخلال سنوات طويلة من الترحال في أرجاء العالم الإسلامي المتنوّع، لم تقع عيني على مدينة تجسّد الأصالة والتمثيل الحضاري كما تفعل تطوان.

تقع تطوان على بُعد نحو تسع كيلومترات من البحر، وعلى مسافة عشر دقائق سيرًا من وادي مارتيل، متكئةً في موقع أخّاذ على سفوح جبل درسة، حيث تعلوها القلعة.

وتنتظم بيوتها ذات البياض الناصع في شكلٍ شبه دائري حول القصبة، بينما ترتفع تسعة صوامع، تتخلّلها أشجار النخيل، فوق أسطحٍ منبسطة تتنوّع فيها أشكال البنيان.

أما داخل المدينة، فما يزال بعيدا عن التأثيرات الأجنبية، وكأنها عالمٌ من نسج الخيال، أقرب إلى مملكة شهرزاد الحقيقية. وحتى اسمها الأمازيغي يحمل نغمة شعرية: تِطّاوِينْ، أي العيون.

يُقدَّر عدد سكان المدينة بأكثر من 15 ألف نسمة، يشكّل اليهود المنحدرون من أصول إسبانية—والذين هاجر أسلافهم قبل ثلاثة قرون من إسبانيا غير المتسامحة—نحو الربع. أمّا المسلمون، فغالبيتهم من الموريسكيين، وهم أحفاد العائلات التي طُردت من شبه الجزيرة الإيبيرية، فوجدت في المغرب، الذي يجمعها به الدين، ملاذًا آمنًا ووطنًا جديدًا.

ويمتاز هؤلاء بأخلاق رفيعة وثقافة متقدمة، على نحوٍ يميّزهم بوضوح عن جيرانهم من سكان الريف. ولا تضمّ السلطنة سوى عدد محدود من الحواضر ذات الطابع الموريسكي، وتُعدّ تطوان واحدة من أبرزها. ويُقدَّر أنّ نحو نصف المسلمين فيها من أصول أندلسية، فيما يشكّل الباقون مزيجًا من أصول متعدّدة، نتج عن التمازج بين الموريسكيين والريفيين.

كما تضمّ المدينة عددًا محدودًا من السود، ونحو ثمانين مسيحيًا—جميعهم تقريبًا من الإسبان المعدمين—إلى جانب الجالية اليهودية المذكورة. وتعيش الطوائف الدينية المختلفة في أحياء منفصلة، لكلٍّ منها طابعه الخاص.

تُحيط بالمدينة أسوارٌ عتيقة مدعّمة بأبراجٍ وسورٍ مسنّن، تتخلّلها سبعة أبواب، انتشرت أمامها—منذ عام 1907—دوريات شرطة مثيرة للتوجّس.

وأهم هذه الأبواب أربعة: في الغرب «باب التوت» ذو الموقع الخلّاب، حيث يبدأ طريق القوافل النشط المؤدّي إلى طنجة، وإلى الشمال منه بقليل «باب النوادر» الأقل ازدحامًا. وعلى الجدار الجنوبي المتجه شرقًا يقع «باب الرموز»، الذي يصل الحيّ المسيحي بالحقول المفتوحة، وإلى الشمال منه «باب العقلة» عند منحدر بارز للغاية؛ ومن هذين البابين تمرّ حركة الميناء.

وفي الزاوية الشمالية الشرقية يوجد «باب الصعيدة» الأقل نشاطاً، بينما يمتدّ شمالًا، في اتجاه سبتة، «باب المقابر» المرتفع، حيث يبدأ الطريق المؤدّي إليها. وأمام هذا الباب، تمتدّ على يسار المنحدر مقبرة موريسكية يُرجّح أنّها تعود إلى نحو ألف عام، وعلى اليمين مقبرة أحدث عهدًا، لا تزال قيد الاستعمال، بقبورها المنخفضة البسيطة، كأنها بساطٌ أخضر للموتى. و تُرى هناك، كل يوم جمعة، نساء تطوان وهنّ يتبادلن أطراف الحديث ويحتسين الشاي.

أما المقبرة القديمة، فهي—في نظري—الأكثر سحرًا وإثارةً للإعجاب بين ما رأيته في العالم الإسلامي بأسره؛ إذ تبعث في النفس جاذبيةً غامضة تأسر كل أوروبي ساقه القدر إلى هذه المدينة الموريسكية الهادئة.



يوم السوق في جبل درسة بالقرب من تطوان.



منازل كهفية تابعة للإسبان وسوق الخشب الخاص بقبيلة قلعية غرب مليلية.



صورة لتطوان التقطت من القصبة. وفي الخلفية جبال بني يدر.

فوق المقبرة، تطلّ القصبة الضخمة على المدينة من بعيد، ببابها المغلق بإحكام، وجدرانها المتداعية تتدلى منها أنابيب المدافع القديمة، التي تُطلق نيرانها فقط بمناسبة الأعياد الكبرى. كل طلقة

تهز المبنى المهترئ وكل المنازل المجاورة له، وكأنها تستدعي صدى التاريخ.

يتسلق الـ«طبجي» الجدران مستخدمًا سلالم متداعية للوصول إلى المباني القديمة. يعرف بدقة أي المدافع يمكن استعمالها بأمان، وأيها ستقوده الى جنة مبكرة. هنا، كما عند بوابات المدينة، حيث تتوهج فوهات المدافع بشكل مهدد فوق حافة الجدار، غالبًا ما ترقد على الجدار العاري، ونادرًا على ألواح خشبية متآكلة بفعل الزمن والعوامل الطبيعية.

تشكل هذه الأبنية خطراً أكبر على من يقفون خلفها، أكثر مما تشكله على من تهددهم في الخارج. بين بقايا المنشآت القديمة تنبت زهور الزنبق ونباتات القراص، وتستوطن فتحات الجدران طيور السماء، بينما تضع إناث الكلاب صغارها بين القليل من قواعدها المنهارة.

تخترق تطوان شوارع واسعة قليلة، أبرزها شارع يبدأ من باب النوادر، وآخر من باب التوت باتجاه سوق تجار الحديد والحدادين. أما الطرق الصغيرة، فهي كثيرة ومزدحمة بشكل دائم. من هذه الشوارع، يمتد خطان من الفدان والملاح الجنوبي وصولاً إلى بوابة الميناء، وطريق يربط سوق الأواني والأسماك شمالًا ببوابة المقبرة، إلى جانب طرق أخرى تربط بين أحياء المدينة وأسواقها المختلفة.

تتميز الشوارع التجارية بالازدحام الشديد، لا سيما شارع تجار الحديد والحدادين في الشمال، الذي يفصل بين محطتي السوامات

وسوق السمك، وتنتشر على طول الشارع أوراش عمل السباكين اليهود. كما توجد أسواق متخصصة أخرى، منها سوق الحرير وسوق المواد الغذائية، حيث يعرض الخبز واللحوم وغيرها من المواد. وفي سوق الجلد، تنتشر رائحة الجلد الخام في الأجواء سريعًا.

تُعرف الشوارع التجارية الضيقة، المغطاة غالبًا، والتي تعج بالحرفيين والمتسوقين، عمومًا باسم «السانتا؟». في هذه الأزقة تُصنع الأقمشة لتتحول إلى معاطف، بينما توجد "سانتا" العدول، حيث ينتظر المتعلمون من أرقى العائلات المواطنين الذين يتجولون أو يتفاوضون في جو من الهدوء والسكينة.

يمكن أيضًا الإشارة إلى بعض أماكن الذبح، رغم قلّتها. فمباشرة أمام باب التوت، بجانب نافورة جدارية كبيرة، تقع مجزرة واسعة، تفي بالغرض كل صباح. عند شروق الشمس، تُنقل ذبائح الأبقار إلى محلات الجزارين، بينما تتجول كلاب الشوارع المتشردة بين المارة والنفايات، وتحتسي برك الدم المتخثر، كما هو الحال في معظم المدن الشرقية.

من سور المجزرة، وعلى طول سور المدينة، تؤدي طريق وعرة إلى رحبة الحبوب، حيث يعمل حدادو المدينة في ورشات مُغلفة بالدخان على الجدار الخارجي للرحبة. وقليلًا باتجاه قلب المدينة، تمتد ساحة الفدان الكبيرة، التي تُعد السوق الرئيسية، مركز حركة المدينة وقلبها الاقتصادي.

اسمه يعكس حجمه تمامًا، فهو يغطي مساحة من الأرض يمكن للفلاح أن يحرثها خلال يوم عمل واحد. وفي الوقت نفسه، يُعد مركز المدينة النابض بالحياة، حيث يجتمع السكان في المساء. هنا يقع مدخل مقر المخزن، والقنصلية الإسبانية، وأحياء المسيحيين واليهود. وقد أقام الإسبان واليهود ما يشبه كازينو على الطراز الأوروبي في أحد المنازل.

في الأعياد الكبرى، كان فرسان السلطان يؤدون رقصة "البارود" الساحرة، على خيولهم المتعرقة، بوجوه متوهجة وعيون متقدة وأثواب متموجة. يندفعون بسرعة على طول المضمار، مطلقين الرصاص من بنادقهم الطويلة أمام الخيمة، ثم يعودون بخطى سريعة إلى مواقع الانتظار.

يُقام السوق ثلاث مرات أسبوعيًا في الفدان، ويأتي إليه السكان الأمازيغ من المناطق المحيطة أيام الأحد والأربعاء والجمعة. يكون السوق مزدحمًا للغاية، يعج بالسيدات ذوات الملابس الفاتحة، والرجال ذوي العمامات، والخيول البنية، والحمير الصهباء، في مشهد يعكس حيوية المدينة وتنوع سكانها.

الأخشاب والأجنحة والبيض والقش والكتان، وبالقرب من النهر الحبوب، كلها تُحضر من قبل أفراد القبائل المجاورة، الذين يأتون أحيانًا من أماكن بعيدة. في أوقات الذروة، عادةً حوالي الساعة العاشرة صباحًا، يفيض السوق بالحركة لدرجة يصبح فيها من المستحيل تقريبًا التقدم بين الحشود المزدحمة ذات الأرجل الثنائية والرباعية على حد سواء.

أما في موسم الأمطار، فيبدو السوق مختلفًا تمامًا؛ فالقليل من الأشخاص يتجمعون تحت الأسقف البارزة في الأماكن المفتوحة، والوجوه تبدو كئيبة، والحيوانات مترنحة من البرد والرطوبة، بينما ترتفع أسعار البضائع إلى مستويات مبالغ فيها بشكل واضح، مما يعكس صعوبة الحياة في هذه الظروف.

في أقصى شمال المدينة تمتد مساحة خالية، تُعرف باسم «حي اليهود القديم»، على الرغم من غياب أي يهود فيه اليوم. وأخيرًا، بالقرب من باب المقابر، تنتصب ساحة واسعة رائعة، مخصصة للصباغين والدباغين، والتي توجد منها، بالمناسبة، عدة ساحات أخرى، وإن كانت أصغر حجمًا.

يقف رجال مفتولي العضلات في حفر مبنية من الحجارة، يغمسون أذرعهم العارية في أحواض مليئة بالألوان الزرقاء والصفراء والحمراء، وهم يعالجون الصوف والجلود بعناية. وعلى بعد خطوات قليلة، تتم إزالة الشعر من الجلود، بينما تُمد في المقبرة القديمة لتجف، ولا يجب أن نغفل جبل درسة أيضًا.

يكتسب المكان جماله الخاص من صفوف الأكشاك الخشبية التي تقسم الساحة إلى نصفين. هذه الساحة ـــ أو كما يُمكننا تسميتها «الحديقة» ـــ تُعد بلا شك المكان الأكثر إثارة للاهتمام في قلب المدينة. في الأكواخ المظلمة يتجمع بائعو القطع القديمة، كما هو الحال في كثير من المدن الشرقية، ويُعرض للبيع كل شيء تقريبًا: ملابس مستعملة، أسلحة، أدوات بمختلف أنواعها، بأسعار منخفضة جدًا تجعلها في متناول الجميع.

كان الباعة المتجولون يشقّون طريقهم عبر الحشود، يرفعون أصواتهم منادين بأسعار سيوفهم وسكاكينهم وصواني الشاي. أمّا المتسوقون، فيتحسّسون البضائع ويفحصونها بدقّة، ثم يساومون بزيادةٍ طفيفة، إلى أن تستقرّ الصفقة في نهاية المطاف لصالح أعلى مزايد.

وكان القادمون من السهول والجبال يقفون مندهشين أمام ما يُعرض من أسلحة وسلع معلّقة أو مبسوطة، إذ يمكن العثور هنا على كل ما يخطر على البال. في المقدّمة، تجلس نساء محجّبات في نظامٍ، يبعن أرغفة خبزٍ مسطّحة، بينما تجلس نساء أخريات في الأعلى، مطويات الساقين، يرتدين قبعات عريضة ووجوههن مغطّاة، لكنّهن يتحادثن بحيوية عن شؤون الحياة اليومية، بين المهمّ والتافه.

وأمامهن، تُعرض الأقمشة والكتّان وسائر المنسوجات، في مشهدٍ ينبض بالحركة والألوان، ويختزل روح السوق بكل تفاصيله.

تضمّ مدينة الموريسكيين ثمانية أبراج معروفة، وثمانية مساجد كبرى، ومدرسة شهيرة، إلى جانب عدد لا يُحصى من مزارات الأولياء. كما تُستخدم المباني المخزنية الواسعة، العائدة إلى القرن السادس عشر، لإقامة الملوك والأمراء.

وتنقسم المدينة إلى ستة أحياء (حومات). فأقصى الغرب يمتدّ حيّ العيون، وهو يتكوّن من صفّين من المنازل على جانبي الطريق الممتدّ من باب طنجة إلى ساحة الحديد. ويجاوره حيّ الطرانكات، الذي تقطنه فئات من الطبقة الراقية.

وفي أقصى الشمال، عند البوابة التي تحمل الاسم نفسه، يقع حيّ «جْدِيدْ»، بينما يمتدّ إلى الجنوب منه حيّ «دْلَبْلَادْ»، أي «حيّ البادية». وقد سُمّي كذلك لأنه يضمّ في الغالب غرباء، ولا سيما أولئك الذين يُعرفون بـ«الجزائريين»، الذين استقرّوا فيه مع بدايات الحكم الفرنسي—في دلالة حيّة على تقلبات المصير وقسوته.

كما يمتلك أثرياء تطوان منازل فخمة في هذا الحي، وكذلك في الجنوب، في رباط سفلي، حيث يُقيم أيضًا عدد من الإسبان. وكما سبقت الإشارة، فإن للمسيحيين واليهود أحياءهم الخاصة.

فحيّ المسيحيين، في الواقع، لا يتكوّن إلا من شارع واحد غير مُعبَّد جيدًا، يبلغ عرضه نحو أربعة إلى خمسة أمتار، ويمتدّ من ساحة الفدان إلى باب الرموز. ويضمّ هذا الحي كنيسة إسبانية وقنصلية، كلتاهما تقعان في ساحة الفدان.

أما اليهود، فعلى غرار ما هو قائم في مدن المغرب الأخرى، يقيمون في حيّ مسوّر يُعرف بـ«الملاح». وتتزاحم فيه بيوت صغيرة مطلية باللون الأزرق، بالكاد ينفذ إليها الضوء والهواء، ذات مداخل منخفضة وأزقة لا يتجاوز عرضها مترين في أغلب الأحيان. وتنتشر في بعض المواضع أروقة مقوّسة تختلط فيها الروائح، فيما تتكدّس النفايات في زوايا عديدة.

ويعيش في هذا الحي نحو أربعة آلاف نسمة، ينغلقون في فضائهم الخاص، ولا يغادرونه إلا نادرًا، سواء إلى المدينة الإسلامية أو إلى المقبرة اليهودية الواقعة خارج الأسوار. وفي الأزقة الضيقة،

يضجّ المكان بأطفال في مختلف الأعمار، يتشاجرون ويصرخون، بينما ينخرط الشبان في مشاحنات متكرّرة وسط فوضى صاخبة.

وتظهر النساء بأعداد كبيرة عند المداخل وعلى الأسطح، يراقبن ما يجري، بحيث لا يفوتهنّ أيّ تحرّك غير مألوف في تلك الأزقة المكتظّة.

وبطبيعة الحال، تتركّز التجارة والحِرَف إلى حدّ كبير في أيدي الإسبان القادمين من الجنوب. أمّا الموريسكيون، فينشطون أساسًا في تجارة التقسيط والصناعات الخفيفة، في حين يجد القليل من السود—كما هو الحال في مناطق عديدة من الشرق—فرص عمل وافرة كحمّالين.

ولا يحضر الأمازيغ في المدينة إلا بنسبة ضئيلة، إذ إنّ سكان السهول والزائرين لا يشعرون بالارتياح داخل الأحياء المحاطة بالأسوار.

ويخضع حيّ «الملاح» لإدارة شيخٍ يبدو عليه الوهن، يجلس نهارًا مرتديًا قفطانًا داكنًا في غرفة صغيرة عند المدخل الرئيسي، ولا يكون مسؤولًا إلا أمام القايد أو الخليفة. وفي المقابل، تشرف على الأحياء الإسلامية شخصيات تُعرف بـ«المقدّمين»، يرفعون تقاريرهم دوريًا إلى حاكم المدينة، ويضطلعون بدور رسمي في المناسبات العامة، خاصة في محيط الساحة.

وتشمل مهام هؤلاء الحفاظ على النظام والنظافة، وتسوية النزاعات، ونقل مطالب السكان إلى السلطة، فضلًا عن الإشراف على رعاية الفقراء وغير ذلك من الشؤون اليومية. غير أنّ

صلاحياتهم تبقى محدودة إلى حدّ كبير بفعل وجود «الشرطة الدولية» التي أُنشئت سنة 1907، والتي كانت في تطوان تحت قيادة النقيب الإسباني غوغوخودو—وهو رجل هادئ ومتّزن، يتقن العربية ويجيد التعامل مع السكان المحليين.

في الحيّ الواقع أسفل القصبة، يقيم الريفيون الذين يفدون إلى المدينة مؤقتًا في بيوت صغيرة ومتواضعة. ويملك رجلٌ عجوز بخيل يُدعى سينتو أدور—يعمل في تجارة الحديد—عددًا من هذه المساكن، ويؤجرها للغرباء مقابل أجرٍ لا يقلّ عمّا يُدفع في النُّزل.

تغطي الأرضَ حُصُرٌ بالية أُهملت في أماكن أخرى، بينما يتسرّب الهواء والمطر إلى الداخل دون عائق، فتبدو هذه المساكن مكتظّة وفقيرة في آنٍ واحد. وفي هذه الجهة من المدينة يقع أيضًا الحيّ السيّئ السمعة.

ومع ذلك، فإن هذه المدينة الجميلة، التي تحتضن أندلسيين وتلمسانيين وفلاحين من السهول وريفيي الجبال، لا تختلف—في عاداتها وسلوكها—عن سائر مدن المغرب المحافظ دينيًا، ولا تنزع إلى الترف أكثر من غيرها.

تتمتّع الفتيات والنساء بقدرٍ من الحرية في التصرّف، ويُبدين سلوكًا منفتحًا تجاه من يكسب ثقتهن، حتى وإن كان من غير أبناء دينهن. ويُعزى ذلك، في جانبٍ منه، إلى نزعةٍ رومانسية واضحة لدى فتيات تطوان، المعروفات بجمالهن.

ومع ذلك، لم ألحظ خلال معظم فترة إقامتي ما يميّز المدينة سلبًا عمّا هو قائم في مدن أخرى من العالم الإسلامي، سواء في المغرب أو تونس أو طرابلس أو مصر أو فلسطين، أو في غيرها من الحواضر التي تُتداول فيها العربية.

وكغيرها من المدن، تضمّ تطوان حيًّا مخصّصًا لمثل هذه الممارسات، حيث تتجمّع الفئات الأشدّ فقرًا. وفي هذا الفضاء الهامشي، يتردّد بعض الجنود وعمّال الميناء وغيرهم، في مشهد يعكس واقعًا اجتماعيًا حاضرًا في معظم المدن، دون ارتباط بلون أو أصل بعينه، حيث تتحكّم الحاجة والظروف الاقتصادية في سلوك الأفراد.

تزدهر التجارة والصناعة في المدينة ازدهارًا ملحوظًا، ويُعزى ذلك إلى قربها من طنجة، فضلًا عن موقعها القريب من منطقة الريف، وإلى ما تنعم به سبتة من هدوء نسبي ينعكس إيجابًا على الحركة التجارية.

ويفد رجال الريف، حتى من مناطق بعيدة مثل بقيوة وما يليها، إلى مصب وادي مارتيل، بعضهم سيرًا على الأقدام من أعماق الأراضي الداخلية، وبعضهم في قوارب خشبية بسيطة، حاملين منتجاتهم لبيعها، والتزود بما يحتاجون إليه من شموع وزيت وبارود وأقمشة قطنية.

وباستثناء الأزقة الضيقة في حومة العيون وممرات الطالعة، تكاد جميع الشوارع الأخرى تكون مهيأة بأرصفة منخفضة، يجلس

عليها الموريسكيون وسط سلع متنوّعة، صالحة وغير صالحة للأكل، مرتّبة بعناية تتيح للتاجر أن يمدّ يده فينال ما يريده بسهولة.

ولا يقتصر النشاط التجاري على البيع بالتقسيط، بل يضمّ أيضًا تجّار الجملة من الموريسكيين، ينتمون في الغالب إلى عائلات مرموقة. ومن المعروف أن أبناء الراحل سي محمد الطريس، الذي شغل منصب وزير الخارجية لسنوات طويلة، انخرطوا بحماس في تجارة الأحذية بالجملة. وكان الطريس قد خدم خمسة سلاطين بإخلاص، وتولّى إدارة الشؤون الخارجية للمغرب على مدى جيلين.

كما تنشط دار التجارة التابعة لعائلة اللعبي في استيراد الحرير الفرنسي، وشغل أحد أفرادها منصب رئيس بلدية تطوان في عهد السلطان عبد العزيز، مما يعكس التداخل بين النفوذ التجاري والإداري لدى نخب المدينة.

يتمتّع الأثرياء من مالكي متاجر «هوفر» في تطوان بعائدات كبيرة من محالّهم الواقعة في الشارع الذي يضمّ مكاتب البريد الألماني والفرنسي، وهو من أنشط شوارع المدينة تجاريًا.

أما الصناعة، فهي متطوّرة إلى حدّ بعيد؛ ففي المدابغ تُعالج الجلود بعناية فائقة، وتُكسب ألوانها الزاهية بعد ساعات طويلة من العمل المتقن. وقد اكتسبت المنتجات الجلدية شهرة واسعة، ولا سيما الأحذية التي تُصنع بأعداد كبيرة وتُصدَّر بكميات معتبرة إلى مليلية.

كما تتميّز الحقائب الجلدية بألوانها الزاهية وتصاميمها الفريدة، المتناغمة مع طابع المناطق الداخلية، إلى درجة يصعب أن تنافسها منتجات أي مدينة أخرى في المغرب.

لا يُنتج ما يُماثل هذه المصنوعات في أي مكان آخر. وهناك أيضًا نقابة المزخرفين، الذين يبدعون في تزيين الطاولات الصغيرة والرفوف والصناديق الخشبية بزخارف متناسقة، يغلب عليها اللون الأبيض والأسود والأخضر، في تناغم لافت.

وتنتشر في المدينة مخابز عديدة، من أشهرها مخابز «ميشميش?»، المعروفة بكعكاتها الرقيقة التي تُقلى في الزيت الساخن أو الشحم. يُؤخذ العجين النيّئ بمهارة فائقة، ويُضغط بين السبابة والإبهام ليُشكَّل في حلقات صغيرة تطفو في الدهن، ثم تُستخرج بعد أن تكتسب لونًا ذهبيًا، وتُجمع ثلاث أو أربع قطع منها في عودٍ رفيع وتُلفّ حوله.

ويضمّ أحد الشوارع المظلّلة، المكتظّة بالباعة، تجّار الأقمشة بمختلف أنواعها، من حرير وكتّان، سواء من الإنتاج المحلي أو المستورد من أوروبا. كما يتمتع النجارون وصغار الحرفيين بتنظيمات نقابية قوية، على غرار صانعي الأحذية والجزارين.

وعلى خلاف مناطق الريف—باستثناء المراكز الحضرية—حيث يقلّ استهلاك اللحوم، يحتاج سكان تطوان يوميًا إلى أطباق اللحم على موائدهم العامرة. فموريسكي المدينة يجد فرصًا أيسر لكسب المال، بينما تبقى النقود نادرة في الجبال.

وتنتشر أيضًا ورش صانعي الأسلحة في ساحة الفدان وفي الأزقة الضيقة القريبة من السوق، مما يضيف بعدًا آخر إلى تنوّع الحِرَف في هذه المدينة النابضة بالحياة.

تُصنَّع في المدينة بنادق تقليدية ذات سبطانات عريضة ومقابض مزخرفة، ولا تزال هذه الحرفة قائمة إلى اليوم، وإن كانت قد تكبّدت خسائر كبيرة بفعل المنافسة الأوروبية المتزايدة.

أما صناعة الفضة، فيغلب عليها الحرفيون اليهود، الذين تحظى أعمالهم بإقبال مستمر، نظرًا لما يتمتع به سكان المدن المغربية من ذوق رفيع وتقدير للجمال. ولذلك، تُنفق الأسر بسخاء على الحُليّ والزينة، التي تُعدّ جزءًا أساسيًا من مظاهر الأناقة والتقاليد الاجتماعية.

على الطريق المؤدّي إلى طنجة، ينتصب على اليسار مُصلّى مطلي بالأبيض الناصع، بينما تقوم على اليمين، فوق تلةٍ مرتفعة، مقبرة. بل إن هناك ثلاث مقابر، مساحات مسوّرة تضمّ رفات القلة من الإسبان الذين توفّوا في تطوان. وقد مُنح الإذن بإنشائها سنة 1860، كبندٍ إضافي في معاهدة واد راس مع المخزن المغربي.

أما المقبرة اليهودية، فتقع على بُعد نحو كيلومتر واحد من باب المقابر، على الطريق المؤدّي إلى سبتة. وتمتدّ هذه المقبرة الواسعة على منحدر جبل أحمر، ويمكن تمييزها إلى قسمين: قديم وحديث. وتغطيها شواهد حجرية مهيبة، تحمل نقوشًا بالعبرية تُخلّد أسماء الموتى، وقد خُصّص لكل قبر حيز واضح يفصله عن غيره.

وأما القسم القديم، فيُعدّ أشبه بخزانٍ لا ينضب من الذاكرة الثقافية، على غرار المقابر المغربية العتيقة. وقد أطلعني يهود تطوان على ألواح حجرية متآكلة، جُلبت—بحسب الرواية—من الأندلس على يد أسلافهم الذين أُجبروا على الرحيل. وتحمل هذه الشواهد نقوشًا غريبة في بساطتها: حروف قليلة، لكن الاسم محفور بخطوط عميقة.



السلطات العليا في تطوان. من اليمين إلى اليسار: إليعقوبي، عضو مجلس الشورى؛ سي محمد، أمين الإمامة والمسؤول عن جباية الضرائب؛ القائد عبد السلام البخاري؛ وابن أخي الحاج أحمد، قائد الفرسان؛ ثم إسماعيل المديني، عربي من الحجاز، اضطر إلى مغادرة الأراضي التركية بسبب مشكلات سياسية، فاستقرّ في تطوان حيث عمل كاتبًا ثانيًا لدى القائد.



تطوان



نساء قبيلة بني سعيد على ضفاف النهر بالقرب من تطوان، وهن ينسجن الأقمشة.



مقبرة قديمة بالقرب من تطوان.

تقع كاتدرائية باب الرموز على بعد 9 كيلومترات بالضبط من الميناء، غير أنّ وصف هذا الموضع بـ«الميناء» يظلّ غير دقيق. فالسفن لا ترسو عند الشاطئ مباشرة، بل تضطر إلى التوقّف على مسافة تتراوح بين كيلومترين وثلاثة كيلومترات في مرسى هادئ، بسبب الحاجز الرملي العريض الممتدّ أمام مصب وادي مارتيل. ولهذا، لا تستطيع القوارب الصغيرة دخول النهر أثناء الجَزْر إلا بعد الالتفاف جنوبًا.

وعلى الضفة اليسرى، تصطفّ قوارب «الغَرّابُو» المختلفة، وتحتها يجتمع سائقو البغال وربابنة القوارب في حركة لا تهدأ. وبالقرب منهم، يعرض بائع الشاي مشروبه الذهبي المحبوب، إلى جانب الخبز الذي يُجلب كل صباح مع أولى القوافل القادمة من المدينة.

ويُشرف على هذه الأكواخ برج مربّع يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، توحي فتحات الرمي الواسعة وفوّهات المدافع البارزة فيه بأن الحراسة على أهبة الاستعداد. ومن على سطح السفينة، يبدو وكأن طلقة واحدة كفيلة بإحداث دمار شامل. ومع ذلك، لم تُستخدم هذه المدافع قط؛ فهي موضوعة بلا حوامل، تستند إلى أكوام من الحجارة والألواح الخشبية، وبعضها ممدّد مباشرة داخل فتحات الرمي.

ومن هناك، يقود جسر خشبي متهالك إلى الأعلى، حيث تنكشف أمام الناظر مشهد رائع.

في عمق جبال الريف، يمتدّ البصر نحو سفوحٍ تعلوها الثلوج، حيث يظهر في الأفق شريط أبيض طويل متلألئ، وسط خضرةٍ هادئة: إنها تطوان.

وعلى الجهةِ الأخرى، تمتدّ الرؤية في الأيام الصحوة حتى سبتة، على بُعد خمسة وثلاثين كيلومترًا. وعند الاقتراب من المدينة، تنكشف أولًا سهول خضراء فسيحة، تليها حدائق غنّاء، ثم تمتد شمالًا أراضٍ متموّجة تغمرها أشجار البلوط وشجيرات العرعر، حيث تتخذ حيوانات النمس جحورها.

وخلف هذا المشهد الطبيعي، ترتفع الجبال الرمادية بأفقها المتقلّب، بينما ينفتح المشهد من الجهة الأخرى على البحر الأزرق المالح، حيث تلوح في الأفق خيوط دخانٍ رفيعة تتصاعد من بواخر قادمة من شتّى البلدان.

يحدّ سهل تطوان من جهة جبال بني يدر الغنية بالنحاس، ومن الجهة المقابلة جبال الشرافات. ويتكوّن هذا السهل من تربة طينية داكنة، يُستغلّ صيفًا كمراعٍ للمواشي، لكنه يتحوّل في أشهر الشتاء إلى أرضٍ وعرة تكاد تكون غير سالكة.

فعندما تهطل الأمطار الغزيرة أيامًا وأسابيع متواصلة، لا يجرؤ أحد على امتطاء حصانه أو بغلته متجهًا نحو الميناء—فما بالك بالحمير الصغيرة—إذ تغوص الحيوانات في الوحل العميق، وتختفي في طينه ذي اللون الأصفر المائل إلى الحمرة، دون أمل في النجاة.

ومع عودة الطقس المعتدل، لا يبقى من تلك المغامرات سوى هياكل عظمية لحيواناتٍ بائسة، سقطت ضحية طمع أصحابها في الربح. وبعد أسابيع، قد يعود ذلك المغامر المتهوّر ليسترجع سرجه وحمولته، وقد أفسدهما الزمن وأتلفتهما الظروف.

وعندما تستمرّ الأمطار لفترة طويلة، يفيض وادي مارتيل، فيحوّل السهل إلى بحيرة واسعة. ولا يقتصر ذلك على مجراه السفلي، بل يمتدّ حتى أعاليه باتجاه وادي راس، حيث يغدو الوادي العريض سطحًا مائيًا مترامي الأطراف، لا تبرز فيه سوى جزر قليلة تظلّ معزولة وغير قابلة للعبور أو الاستكشاف لفترة طويلة.

ولهذا السبب اختير موقع تطوان بعيدًا عن الساحل، على سفوح جبل درسة، اتقاءً لمثل هذه الفيضانات. ففي شهري فبراير ومارس، قد تنعزل المدينة أحيانًا عزلةً شبه تامة عن العالم

الخارجي، إذ يصبح الوصول إلى الساحل، بل وحتى إلى طنجة، أمرًا متعذّرًا.

تصبح التربة الطينية مشبعة بالمياه إلى حدٍّ كبير، وتنتفخ مجاري الأودية بشكلٍ مخيف، مما يجعل عبورها محفوفًا بالمخاطر، وقد يودي بحياة الكثيرين. وبسبب تعذّر سلوك الطريق المؤدي إلى الميناء، تتوقف حركة الملاحة تقريبًا، فلا تبحر السفن القادمة من تطوان إلا بعد فترة من استقرار الطقس وتحسّن الأحوال الجوية.

ومنذ زمن بعيد، اعتاد الناس قضاء ما يشبه عطلة صيفية هنا خلال شهري شتنبر وأكتوبر. وعلى امتداد الشاطئ الرملي تنتشر أعداد لا تُحصى من الأكواخ الخشبية الصغيرة، في مشهدٍ نابض بالحياة.

وفي فضاءات الخيام، يعمّ نشاطٌ متواصل؛ نساء وأطفال يملؤون المكان، حيث يُعدّ الطعام ويجري الاستحمام، بينما يمرح الصغار على الشاطئ في حيوية لا تهدأ.

ومع حلول المساء، تصل قوافل كبيرة على ظهور خيول جميلة وبغال قوية—إنهم الآباء والأزواج الذين يأتون لقضاء الليل مع عائلاتهم، قبل أن يعودوا مع بزوغ الفجر إلى المدينة لمتابعة أعمالهم.

وبطبيعة الحال، تظلّ حركة الملاحة البحرية محدودة، وهو ما ينعكس مباشرة على ضعف التجارة العابرة، ويُعزى ذلك من جهة

إلى قرب طنجة، ومن جهة أخرى إلى سوء ظروف الرسوّ في هذا الساحل.

ففي يوم الأحد، تصل سفينة شراعية تابعة لشركة «بلاند لاين» قادمة من الحصن البريطاني المقابل، ثم تواصل رحلتها مروراً بجبل طارق نحو طنجة. ومرة كل نصف شهر، تتوقّف سفينة ساحلية تابعة لشركة تواش (Navigation Mixte) في طريقها إلى طنجة. أما السفن البخارية الإسبانية، فتصل بشكل غير منتظم، بمعدّل مرة كل ثلاثة إلى أربعة أسابيع.

ومنذ مطلع عام 1910، بدأت شركة الشحن «أولدنبورغ-البرتغالية»—التي أثبتت كفاءة كبيرة في تنشيط التجارة وتعزيز النفوذ الألماني—تسيير رحلات إلى المرسى المقابل للمدينة الموريسكية، قبل أن تتابع طريقها نحو مليلية. ورغم أن هذه الرحلات لا تتجاوز مرة واحدة شهريًا، فإنها تبدو كافية في هذه المرحلة الأولى.

ومن المنتظر أن تسهم شعبية السلع الألمانية وموثوقية سفنها في جذب مزيد من الحركة التجارية إلى هذا الميناء، بما قد يفضي قريبًا إلى نجاحات مماثلة لتلك التي تحققت على الساحل الغربي.

تشهد حركة الميناء نموًا تدريجيًا ومستمرًا؛ إذ بلغ متوسط حجم المبادلات السنوية قبل عشرة إلى خمسة عشر عامًا نحو مليون ونصف، ثم ارتفع في عامي 1908 و1909 إلى حوالي مليوني وحدة. ويشكّل التصدير نحو الربع، مقابل ثلاثة أرباع للواردات.

ومع ذلك، يظلّ هذا الرقم متواضعًا إذا ما أُخذ في الاعتبار أنّ السواحل الشمالية لا تضمّ موانئ ذات أهمية تُذكر ما عدا مليلية. وعلى الرغم من ذلك، تمرّ كميات معتبرة من السلع عبر الطريق البرّي من طنجة، حيث تبلغ تكلفة نقل الحمولة على ظهور البغال صيفًا بين 2 و3 تالر[13]، وترتفع شتاءً إلى 5 تالر أو أكثر. كما يُدفع نحو 8 سنتات لنقل الحمولة من الميناء إلى المدينة، ونصف ريال لحملٍ أخف.

ومؤخرًا، وبمبادرة إسبانية، أُنشئ طريق مقبول عبر سهل تطوان، وهو مشروع من شأنه أن يلبّي حاجة ملحّة للنقل والتواصل. أما فكرة إنشاء خط سكة حديدية بين سبتة وتطوان، فتبدو—في الظروف الراهنة—مبالغًا فيها وبعيدة عن الواقعية.

ولا حاجة للتذكير بأن تطوان تضمّ قوة عسكرية محدودة، قوامها نحو مئة جندي، من بينهم ستة من الفرسان منذ عام 1907. وإلى جانب ذلك، تتمركز فيها قوة تقارب مئتي عنصر من "الشرطة الدولية" حديثة التأسيس، التي زُوّدت بسفينتين من طراز "شنايدر-غروزو."

كما تمثَّل بعض الدول الأوروبية عبر وكلاء؛ فهولندا وبلجيكا لهما ممثلون، بينما تقتصر إسبانيا على وكيل واحد.

[13] تَالَر (بالألمانية: Taler) هي عملة معدنية من الفضة سكت سنة 1518 وكانت تستخدم في معظم مناطق أوروبا لفترة 400 سنة تقريبا.

أما القائد الحالي لتطوان، فهو عبد السلام البخاري، رجل من أبناء البلاد، عُرف بوداعته وحسن تعامله. وتشمل سلطته، إلى جانب سكان المدينة، قبائل بني حوزمار وواد راس غربًا في اتجاه طنجة، وكذلك قبائل الشمال التي تتأثر في الواقع بنفوذ أنجرة المجاورة أكثر من تأثرها بتطوان، إضافة إلى بني يدر وبني سعيد.

غير أنّ هذه القبائل لا ترتبط بالمدينة إلا بقدر ما تقتضيه الحاجة، فلا يفد أفرادها إليها إلا لقضاء شؤونهم لدى السلطات، وهو ما يكون غالبًا كافيًا بالنسبة إليهم. ويُقدَّر عدد أفراد هذه القبائل مجتمعة بنحو خمسة وعشرين ألف نسمة.

لا يورد التاريخ عن هذه المدينة إلا القليل، وما وصلنا منه يظلّ ناقصًا في معظمه، ومأخوذًا أساسًا من مصادر عربية.

فعند سفح تلال بني يدر، وعلى الضفة اليمنى لوادي مارتيل، قامت في العصور القديمة مدينة «تامودا»، غير أنّ زمن اندثارها لا يزال غير محدّد بدقّة.

وبعد نحو نصف قرن من الهجرة الإسلامية، أسّست جموع عربية المدينة الحالية، التي ازدهرت لأكثر من سبعة قرون. وقد قام يوسف بن عبد الحق المريني بتحصينها على نطاق يقترب من حجمها الحالي، وتعود إليه أصول الأسوار والقصبة.

ومع مرور الزمن، اشتهر سكان تطوان كقراصنة، شأنهم في ذلك شأن جيرانهم في العرائش والرباط-سلا، وكذلك في مناطق الريف المجاورة. وقد أدّى هذا النشاط إلى تعرّض المدينة، حوالي عام

1400، لهجوم من القوات الإسبانية التي دمّرتها وأحرقت قواربها. وتذكر الروايات أنّ هذه القوات تمكّنت من الإبحار داخل النهر، وهو أمر يبدو مستبعدًا اليوم، مما يوحي بأن وادي مارتيل كان آنذاك أعمق أو مختلف المجرى.

وبعد هذا الخراب، ظلّت المدينة مهجورة لما يقارب قرنًا من الزمن، إلى أن عادت للحياة بفضل هجرة العائلات الأندلسية، التي أعادت بناءها وأحيت نشاطها من جديد.

ومن بين الأنقاض القديمة، بزغت نهضة جديدة أعادت للمدينة بريقها. فقد شيّد السكان، بما عُرف عنهم من ذوق رفيع، مساكن فخمة ومدارس واسعة ودور عبادة، كما أعادوا بناء الأسوار والقلاع، وأسسوا مدينة مخزنية مزدهرة لا يزال خليفة السلطان يقيم فيها إلى اليوم.

غير أنّ أهل تطوان عادوا لاحقًا إلى ممارسة القرصنة، الأمر الذي جرّ عليهم مرة أخرى الدمار؛ فبعد نحو قرن ونصف، تعرّضت المدينة للتخريب من جديد قبل أن تُبعث فيها الحياة. ومنذ ذلك الحين، أخذت أهميتها تتعاظم واتساعها يزداد بشكل مطّرد.

وخلال هذه المرحلة، برزت المدينة كمركز تجاري وصناعي من الطراز الأول في المغرب، متفوّقةً بذلك على العديد من الحواضر الأخرى. كما اكتسبت شهرة واسعة كمركز علمي مرموق، يقصده الطلبة من مختلف الجهات، ولا سيما من الجزائر، للدراسة في مدارسها الكبرى على أيدي علماء ذوي مكانة واحترام.

ورغم ما شهدته المدينة أحيانًا من اضطرابات واحتجاجات ضد السلطة، فإن هذه الاضطرابات لم تكن تدوم طويلًا. وكما كان الحال في مدن أوروبا في العصور الوسطى، لعبت النقابات دورًا بارزًا في مثل هذه الأحداث. كما اندلعت بين الفينة والأخرى نزاعات محدودة مع القبائل المجاورة أو مع مدن أخرى، مثل طنجة.

وقد شاركت تطوان كذلك في المواجهات ضد القشتاليين والبرتغاليين، محققة نجاحات متفاوتة، لكنها تكبّدت أيضًا خسائر لا يُستهان بها.

في الحرب الكبرى التي اندلعت بين إسبانيا والمغرب سنة 1859، تمكّن الجنرال أودونيل من دخول تطوان يوم 4 فبراير، بعد نحو ثلاثة أشهر من القتال العنيف.

وبعد عامين تقريبًا، وعقب تسديد المغرب كامل التعويضات الحربية المفروضة عليه، انسحبت القوات الإسبانية من المدينة، لتعود إلى السيادة المغربية.

ولا تزال تطوان، إلى اليوم، وجهةً ذات أهمية خاصة لدى الإسبان.

5. العلاقات القبلية، الحياة الأسرية، الدين.

التقسيم القبلي. — مكانة المرأة. — حفل الزفاف. — الزواج. —_ الأطفال. — ملابس الرجال. — ملابس النساء. — المسكن. — الأثاث المنزلي. — التجهيزات. — الطعام والشراب. — التدخين، القمار، الرقص والألعاب الشعبية. —ً الثأر. — الإسلام.

كما تبيّن مرارًا، تسكن المناطق الجبلية على الساحل الشمالي قبائل عديدة مستقلة تمامًا عن السلطة المركزية، وغالبًا ما لا تسود بينها علاقات ودّية مستقرة. ولا يقتصر الأمر على النزاعات بين القبائل، بل يمتد أيضًا إلى داخل القبيلة الواحدة، إذ كثيرًا ما تتنازع أقسامها الفرعية فيما بينها.

وتتكوّن كل قبيلة كبرى عادةً من ثلاثة إلى خمسة فروع، وقد يزيد عددها أو ينقص بحسب الحالة. ومن الأمثلة على ذلك قبيلة بني سلمان، التي رغم امتدادها الإقليمي ووجود بعض الخصومات الداخلية، تُعدّ في مجملها وحدة واحدة، في حين تنقسم قبيلة قلعية إلى سبعة فروع مختلفة.

وليس من النادر أن تنشأ هذه النزاعات الداخلية عن طموح كل فرع إلى أن يتولى زعيمه قيادة القبيلة بأكملها. غير أنّ الفروع الأخرى كثيرًا ما تسعى بدورها إلى بلوغ الهدف نفسه، ومع ما

يُعرف عن رجال الريف من شدّة العزم وقوّة الشكيمة، فإنّ هذه الخلافات لا تلبث أن تتفاقم لتتحوّل إلى صراعات مفتوحة.

ويحرص هؤلاء بشدة على الحفاظ على حقهم في تسوية خلافاتهم بأنفسهم دون تدخل خارجي، ويرفضون عادةً أي محاولة وساطة تُفرض عليهم من طرف ثالث.

عادةً ما تتولى قيادة قبائل أنجرة شخصية بارزة، تعمل إلى جانب ممثلي فروع القبيلة ضمن ما يشبه مجلسًا تشاوريًا أو تنظيميًا. وتُعقد اجتماعات الجماعة عند الحاجة للنظر في القضايا ذات المصلحة العامة واتخاذ القرارات المناسبة.

وتتكوّن القبيلة من عائلات كبرى، يرأس كلًّا منها شيخ، كما تنقسم إلى عدد من الدواوير أو القرى التي تضم مجموعات من الأسر، وقد يبلغ عددها أحيانًا مئات العائلات. ويختار كل دوّار شيخًا له، دون اشتراط عامل السن، كما أن هذا المنصب لا يُورَّث، الأمر الذي يحول دون احتكار النفوذ من قِبل أسرة واحدة.

وعند نشوب نزاعات، سواء داخل القبيلة أو مع قبائل أخرى، يُنتخب قائد مؤقت—غالبًا من بين شيوخ القرى—يتولى إدارة المواجهة، ثم يتخلى عن سلطته فور انتهاء المهمة.

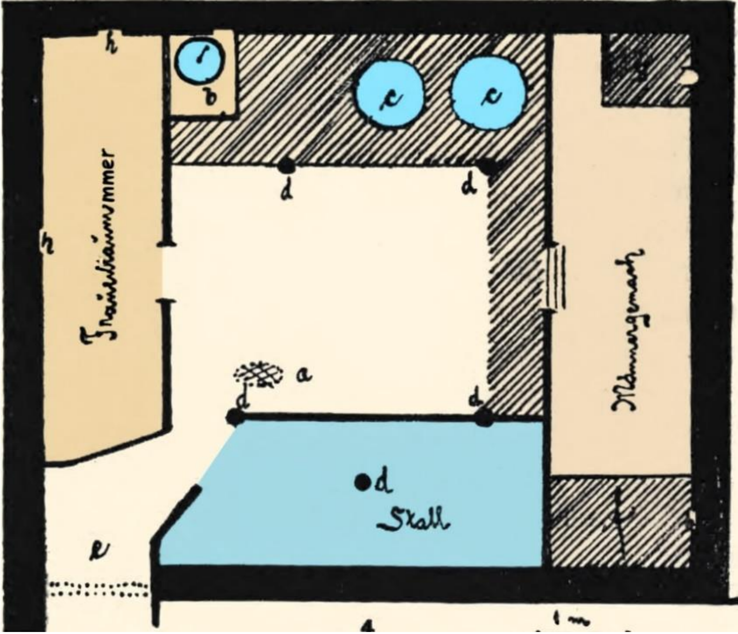
أما في القضايا الكبرى التي تهمّ القبيلة بأسرها، فتُعقد اجتماعات عامة موسّعة للجماعة، غالبًا في الأسواق الأسبوعية، حيث يشارك أفراد القبيلة في التداول واتخاذ القرارات.

تنتشر القرى بكثافة على سفوح الجبال، ويحيط بها الصبّار في بعض مناطق الريف، أو أشجار اللوز، أو أسوار حجرية، على نحو يشبه ما نجده في السهول. ويتراوح عدد المساكن في هذه القرى عادةً بين عشرة وخمسين بيتًا، وقد يزيد عن ذلك أحيانًا.

وغالبًا ما يعيش تحت سقف واحد ثلاثة إلى أربعة أفراد، بل وقد يصل العدد إلى عشرة أو خمسة عشر شخصًا، في انسجام تام، إلى جانب الدجاج والماعز؛ بينما تقضي الخيول والبغال عادة الليل قرب المنزل، تحت سقف من القصب.

ويمارس ربّ الأسرة سلطة شبه مطلقة داخل البيت؛ إذ يخضع له جميع من هم أصغر سنًا دون اعتراض. فهو صاحب الكلمة الفصل في مختلف شؤون الحياة، من قرارات يومية إلى مناسبات كالأعراس والختان، بل وحتى في قضايا الثأر. كما يحظى باحترام واسع يتجاوز حدود العائلة إلى محيطه الاجتماعي.

ولا يجرؤ الابن، مهما بلغ سنّه، على إبداء رأيه داخل البيت إلا إذا أذن له الأب أو الجد، ولو بإشارة عابرة؛ أما خارج المنزل، فيُنظر إلى المجال العام بوصفه فضاءً أكثر حيادًا يسمح بقدر أكبر من حرية التعبير.



تصميم لمسكن ريفي.

a: فتحة تصريف المياه، b: مطحنة يدوية، c: ماطامير سطحية، d: عوارض داعمة، e: مدخل بباب خشبي، f: مكان مرتفع للنوم، g: مكان للصلاة مع اتجاه القبلة، h: كوات في الجدران، ///// أماكن مرتفعة.

يظل الأبناء البالغون في بيت الأب حتى الزواج، وأحيانًا بعده أيضًا. وإذا توفي رجل متزوج قبل أن يبلغ أبناؤه سن الرشد، تنتقل الأرملة إلى منزل والد زوجها أو إلى منزل الأخ الأكبر لزوجها، ونادرًا ما تعود إلى منزل والديها. ومن هناك تتزوج مرة أخرى إذا لزم الأمر. ولهذا السبب، غالبًا ما توجد عدة نساء في بيت الرجل الواحد، على الرغم من أن الزواج الأحادي هو السائد.

إن المرأة الأمازيغية تحظى باحترام أكبر بكثير مما هو الحال لدى القبائل العربية. فمن المستحيل أن يشاهد المرء على سفوح جبال الريف أو على السواحل الشمالية للمغرب مشاهد مثل تلك التي تحدث في الجزائر التي فُقرت تحت الحكم الفرنسي: هناك، يقوم السكان، الذين لا يزالون يمتلكون فداناً واحداً من الأرض، بربط زوجاتهم بجانب الحمار أو البغل بالمحراث، حين ينقصهم حيوان آخر. وكما هو الحال لدى القبائل الأمازيغية الحرة في الصحراء الكبرى، تلعب زوجة الريفي دورًا مهمًا، كما يتضح بالفعل من الاستخدام اللغوي اليومي. هناك أمثال جميلة تتعلق بالمرأة. يمكن لابن الريف أن يقابل فتيات قبيلته بحرية، ويختار رفيقته المستقبلية. على عكس غالبية الشعوب الأخرى في تلك المنطقة، التي نجمعها تحت مصطلح "الشرق"، يكرم الأمازيغي سيدة منزله، باعتبارها أمًا لأطفاله. وخاصة في منطقة الريف. لكن نساء هذه المنطقة الجبلية يتفوقن أيضًا عقليًا وجسديًا على غالبية أخواتهن في عموم المنطقة.



ريفيون يحتفلون عند أسوار مدينة تطوان.



جزء من المقبرة الأندلسية القديمة في تطوان.



الكاتب أثناء العمل، على سطح أحد المنازل الفاخرة في تطوان.



ورشة صناعة الفخار بالقرب من تطوان.

تتزوّج فتيات الريف، شأنهن شأن فتيات المدن ذات التقاليد الإسلامية، وكذلك الأمازيغيات في السهول، في سنّ مبكرة نسبيًا، تتراوح غالبًا بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة.

وكما هو شائع في بعض المجتمعات الأخرى، تتولى النساء الأكبر سنًا من العائلتين زمام المبادرة في ترتيبات الزواج، وبعد ذلك يأتي الدور الأساسي للأب؛ إذ يتدخّل فور إبلاغه برغبة ابنه في الزواج. فيتواصل مع أسرة الفتاة، وتُجرى المفاوضات المعتادة، ليُتّفق بعدها على المهر وتُحدَّد مراسم الزواج وموعده.

غير أنّ هذا المسار يكشف جانبًا أقلّ رومانسية من العلاقة، إذ لا يكون اختيار الزوجة بيد الشاب وحده، بل يخضع بدرجة كبيرة لقرار الأسرة، وعلى رأسها الأب.

ورغم أنّ هذه الممارسات قد تقود في النهاية إلى النتيجة نفسها، فإنها تنطوي على فروق اجتماعية وأخلاقية ملحوظة. إذ يتراوح مقدار مهر العروس عادةً بين عشرة ومئة تالر، يُدفع لوالدها، في حين تتلقى العروس ووالدتها هدايا إضافية تتمثل في الملابس والحلي والماشية.

ولا يتحدد هذا المبلغ بناءً على الاعتبارات المادية وحدها، بل تلعب المكانة الاجتماعية والنسب دورًا مهمًا أيضًا. فالأسر ذات النسب الشريف قد تطلب مهورًا أكبر، انطلاقًا من اعتبار أن ارتباط العائلة الأخرى بهذا النسب يُعدّ في حد ذاته تشريفاً.

وفي المقابل، قد يطلب الأب المعروف بسمعته ومكانته الاجتماعية مهرًا أعلى لابنته، خاصة إذا وافق على تزويجها من شخص لا يحظى بنفس المكانة، تعويضًا عن هذا الفارق.

ومع ذلك، غالبًا ما يكون سكان المدن هم الخاسر الأكبر في هذا السياق؛ إذ نادرًا ما ينجحون في الظفر بزوجة من بنات الريف، لأن الرجل الحضري يُنظر إليه عادةً على أنه غير مناسب للارتباط بفتاة ريفية.

وقد سمعتُ مرارًا عن محاولات قام بها بعض أبناء تطوان للتقرّب من فتيات الريف، لكنها لم تكلَّل بالنجاح إلا في حالة واحدة. وحتى في هذه الحالة، لم يتم الأمر إلا بعد أن قدّم العريس هدايا ثمينة، اقتناها بمبالغ طائلة من اليهودي ناهون من طنجة.

ولا تخلو هذه القصة من تفاصيل جانبية طريفة، تستحق الذكر:

امحمد الرزيني، نجل كاتب الجمارك في تطوان، أي ابن أسرة ميسورة الحال، خرج ذات يوم رفقة رجال موثوقين في رحلة لصيد الخنازير بضواحي المدينة. هناك لمح الشاب الموريسكي فتاة ريفية جاءت مع قريناتها لحضور أحد المواسم، فشدّ انتباهه حسنها الأخّاذ وقوامها الرشيق، وهما صفتان اشتهرت بهما نساء قبيلتها.

وسرعان ما اندفعت الفتاة إلى ساحة العرض، فألقت عباءتها على كتفيها بحركة أنيقة، وانخرطت في منافسة مع أبناء الجبال، مبرزة براعتها في الفروسية. وعلى الرغم من أن ندرة الخيول في تلك الربوع تجعل من الريفي فارسًا أقل تمرسًا، فإن أبناء المدينة،

بملامحهم الشاحبة وملابسهم الفضفاضة، بدوا أكثر أناقة وثباتًا فوق صهوات خيولهم الجميلة.

ولم يمض وقت طويل حتى تقدم الشاب لخطبة الفتاة، غير أنه قوبل بسخرية أبناء القبيلة جميعًا، وهو أمر لم يكن مستغربًا في ظل التوتر القائم بين أهل الحاضرة وأهل البادية داخل السلطنة الشريفة، كما هو الشأن في مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

وقد سبق ذكر المهر الذي يُدفع للفتاة. أما المرأة، سواء كانت مطلقة أو أرملة، فيتراوح مهرها بين عشرة وخمسة عشر ريالاً حسنيًّا أو إسبانيًّا. وكانت تتسلم هذا المبلغ نقدًا كجزء من المهر، إضافة إلى الملابس المعتادة، وقد يقل هذا المهر أحيانًا بحسب الظروف.

كان متسوّلي المفضّل في تطوان رجلاً أعمى، اعتاد أن يحصل يوميًا على بقايا طعام اليوم السابق. وقد دفع ما يعادل ثلاث ماركات على أقساط مقابل رفيقة حياة تشاركه بؤسه. لا أستطيع أن أتذكّر ملامحها، غير أنني ما زلت أحتفظ بذكرى طريفة عنه، إذ كان يغضب دائمًا بعد زواجه إذا لم يكن الطبق الذي يُقدَّم له ممتلئًا بما يكفي. ولم أكن أعلم حينها أنه كان يتسوّل لإعالة شخصين.

وفي وادي مارتيل، حضرتُ حفل زفاف أكبر بحارتي؛ كانت العروس من بني يدر، وقد بلغت تكاليف زواجها ثلاثين دورو . على الرغم من المفاوضات المطوّلة، لم يتمكّن العريس السعيد من تخفيض قيمة المهر للفتاة التي بلغت سنّ الزواج. ويُعزى ذلك إلى كونه يعمل لدى رجل مسيحي ألماني، الأمر الذي أوحى للجميع

بوفرة ماله؛ إذ لولا ذلك لما استطاع تحمّل نفقات الرحلة الباهظة من بلاده إلى تطوان، ولا امتلاك منزل في المدينة، مع ما يرافقه من ماشية وخدم، فضلًا عن احتفاظه بمركب شراعي في الميناء.

وقد أُخذت هذه المعطيات كلّها بعين الاعتبار، ولا سيما في تقدير وضع حمدان. لذلك لم يكن مستغربًا أن يطالب العريس، في نوبة من الغضب، بمساهمتي في تكاليف العرس.

ومن بين العادات اللافتة لدى الريفيين عنايةُ تزيين العروسين والاهتمام بمظهرهما في يوم الزفاف.

عندما كنتُ ضيفًا عابرًا في أحد بيوت قبيلة تفارسيت، على الطريق المؤدية إلى تازة، كانت الاستعدادات لحفل زفاف على قدم وساق. ومن بين ما جرى، أن أصدقاء العريس أخذوا يتسابقون لإهدائه ملابس جديدة، كلٌّ بحسب استطاعته: فجاء أحدهم بجلباب داكن لامع، وآخر بسترة ذات أكمام حمراء زاهية من تطوان، وثالث بسروال، ورابع بحقيبة، وهكذا تباعًا.

غير أنّ شيئًا واحدًا ظلّ مفقودًا؛ إذ لم يكن بالإمكان العثور على نعال في جميع قرى المنطقة. وكان الوحيد الذي يمتلكها هو الضيف—أي أنا—الذي قدمتُ حديثًا بالقارب من تطوان. ومن ثمّ بدا أمرًا بديهيًا أن يُعير النصراني نعاله؛ فهو ضيف، والضيف صديق، ومن ليس صديقًا لا تطأ قدمه قُرانا. والصديق ينبغي أن يُعان ليبدو في أبهى هيئة ممكنة.

غير أنّ مسألة ضمير طُرحت فجأة: أليس في استعارة نعال من كافر ما يُخالف اللياقة، وربما يؤثر سلبًا على النسل؟ لحسن الحظ،

كان من بين الحضور فتى متديّن حسم الجدل قائلًا: لا حاجة بالعريس إلى إدخال أحذية النصارى إلى البيت الذي سيؤويه مع زوجته الشابة!

ويبدو جليًا، لكل من يتأمل الصور الواردة في هذا الكتاب، أنني لم أعد بحاجة إلى تلك النعال على الإطلاق.

أمازيغ المغرب، شأنهم شأن أهل الشرق عمومًا، يحملون تصوّرات خاصة عن الجنس اللطيف، قد تبدو غريبة أحيانًا، لكنها لا تخلو من وجاهة في بعض جوانبها.

وقد قال لي مغربي قضيت معه أمسيات طويلة، ذات مرة: «ليس هناك سوى نوعين من النساء: الفتاة والمرأة». ولم يكن يعنيه عدد مرات زواجها، فهي، في نظره، إنما تُصنَّف بحسب وضعها الراهن: إما فتاة أو امرأة.

جادلته طويلًا، مستندًا إلى مختلف الحجج التي تطرحها النظرة الأوروبية، غير أنني لم أحصل منه إلا على هزّة رأس تنمّ عن شيء من التعالي.

وممّا لم أعهده قط خلال رحلاتي الطويلة في بلاد الإسلام أن تقوم ربّة البيت في منطقة الريف (الغربي) باستقبال الضيف عند قدومه وتوديعه عند رحيله؛ إذ كانت تصافحه عند الوداع وتتمنى له السلامة والتوفيق في سفره.

أما أنا، الذي كنتُ أعُدّ في كثير من الأحيان غريبًا عن هذه البلاد وكافرًا، فقد كانت زوجةُ المضيف الذي أنزل عنده تخرج

لاستقبالي فور دخولي البيت. وكانت تحرص دائمًا على أن تقدّم لي شيئًا آكله: حليبًا أو عسلًا، أو حتى بعض البيض. ثم تضعه أمامي علامةً على كرم الضيافة، مرفقًا بعبارة خافتة: «بالصحة»، قبل أن تصافح يدي اليمنى بقوة.

وبفضل هذه العادة، كان يسهل عليّ دائمًا أن أوجّه امتناني إلى صاحبة الفضل الحقيقية. وكانت زوجةُ المضيف تتلقّى الهدايا المخصّصة لها بامتنان ظاهر، سواء أكانت سروالًا أحمر، أو حقيبة ملوّنة، أو مناشف أوروبية كبيرة، أو غير ذلك. وكنت أقدّم هذه الهدايا—تحوّطًا—إلى ربّ البيت بحضورها، مصحوبةً بعبارات من قبيل: «لتتزيّن لرضاك، سيدةُ بيتك!» أو: «إنها زهرة فتيات القبيلة، ابنتك؛ كم ستبدو جميلةً بهذا النعل الأحمر!» وما شابه ذلك من المجاملات.

في اجتماعات العشيرة أو فروع القبيلة، لا تتمتع المرأة بحق التصويت، ولا يُعرف في منطقة الريف، حتى الآن، وجود ناشطات في مجال حقوق المرأة. ومع ذلك، فهي تحرص على البقاء في الجوار لمتابعة ما يدور، فإذا لم تُرضها القرارات المتخذة عبّرت عن استيائها بوضوح، وويلٌ لربّ الأسرة عندئذٍ؛ إذ لا بدّ أن يشعر بنفوذ زوجته، شأنه في ذلك شأن الرجل الأوروبي.

وإذا تعلّق الأمر بالابنة، فقد تُظهر نساء الريف قدرًا من العناد والإلحاح، وإن كان ذلك نادرًا. وعلى العموم، يُعدّ رجال الريف آباءً أكثر حنانًا وأزواجًا أشدّ مودّةً من نظرائهم في كثير من المجتمعات الإسلامية.

إذا كان الحديث عن السعادة الزوجية الدائمة نادرًا في السهول وفي الجزائر وغيرها من المناطق، فإنّ الأمر يبدو مختلفًا لدى سكان الريف. فلم أعهد مثل ما رأيته لديهم من تقدير متبادل ومودّة بين الزوجين إلا عند الشركس في القوقاز وشرق الأردن.

وقد يتساءل بعض العارفين بالشرق عن الكيفية التي مكّنتني من ملاحظة ذلك. وأجيب بأن الإقامة الطويلة بين الناس، ولا سيما التواصل معهم بلغتهم، كفيلة بأن تفتح القلوب سريعًا. فمن خلال الأحاديث العابرة والمشاهدات اليومية يستخلص المرء من الحقائق ما قد لا تعطيه إياه أمهات الكتب التي ألّفها غيرهم عنهم.

كنتُ، ذات صباح، أمتطي حصاني وبندقيتي إلى جانبي، منطلقًا من دوّار سيدي داود نزولًا نحو البحر، حين صادفتُ جماعةً من النساء أعرفهنّ، كنّ يسلكن الوجهة نفسها. وسرعان ما انخرطنا في حديث حيويّ لا يخلو من حدّة، دار حول النساء في البلدان المسيحية: ما نوع الملابس التي يرتدين، وما الأسماء الشائعة بينهنّ، وكم مرّة تتزوّج «المرأة العادية» في المتوسط، وكم يبلغ عدد الأبناء في الأسرة عادةً، وما إذا كان رجالنا يضاهون الريفيين شجاعةً، بل وهل تستطيع النساء المسيحيات مجاراتهنّ في الجمال.

وتطرّق الحديث إلى أمور أخرى كثيرة، قد تثير ابتسامة متعالية لدى الأوروبي الواثق بنفسه. ثم ما لبثت فتاة صغيرة أن وجّهت اهتمامها نحوي، وسألتني ببساطة مباشرة: كم عدد أبنائك؟

يا لحكمة الرحمن! لم يُكتب لقلبي أن يفرح بصبيّ بعد. فقالت: "أوه، أوه، أوه! أيها المسكين! طلّق زوجتك إن كانت لا تُنجب لك، وتزوّج إحدى أخواتي؛ فنساء قبيلتي جميعهنّ يلدن أطفالًا أقوياء"!

ثم أضافت، بنبرة واثقة: "ليبقَ شبابك متألقًا إلى الأبد!" فأجبتها: "رحمة الله واسعة، لكنني لم أتزوّج بعد." فقالت، في دهشة ممزوجة بالإنكار: "ماذا؟ لست متزوّجًا؟ ألا تستحي من ذلك؟" وتدخّلت أخرى قائلة: "ولِمَ تُطلق لحية طويلةً؟ هل تعتبر نفسك رجلاً؟"

وهكذا وجدتُ نفسي وسط وابلٍ من التعليقات اللاذعة التي لا تخلو من طرافة. ولم تكن تلك آخر مغامراتي مع موضوع الزواج في هذه القبيلة، فقد خضت تجربة أخرى لدى مضيفنا العزيز، حميد.

كانت ابنته تقوم بخدمتنا بصمت أثناء العشاء، تتحرّك ذهابًا وإيابًا بخفّة ونشاط، وهذا ما دفعني إلى الإشادة بسلوكها بصوت مسموع أمام والدها؛ فأثنيت على تلك الفتاة الرشيقة التي تُشبه الغزالة، وعلى تواضعها واجتهادها وجمالها.

عندئذٍ اقترح عليّ والدها، بشيء من الجرأة، أن أبقى مع القبيلة وأتزوّج ابنته. وقال: لقد نشأت قويةً وجميلة، وستُحسن خدمة زوجها كما تفعل النساء الصالحات. ثم أضاف: "وأنت رجل صادق القلب، تكاد تستحق أن تكون مؤمنًا حقًّا. إن معرفتك ستنفع قبيلتنا، ولن يمرّ وقت طويل حتى يصبح لك بيننا أصدقاء أكثر من أي غريب سبقك إلينا. فهل تقبل بذلك؟"

كان ذلك عرضًا مُحرجًا بحق؛ فرفضُه رفضًا قاطعًا قد يُعدّ إهانةً لا للرجل وحده، بل للقبيلة بأسرها، وربما جرّ عواقب غير محمودة. لذلك لجأتُ إلى المواربة، فأثنيتُ على طيب قلبه، وأشدتُ بالرجل الذي استطاع أن يكسب هذا العدد من الإخوة الشجعان.

ثم قلتُ: "إن كنتَ تطلب القليل، فأنا رجل فقير؛ وإن كنتَ تتحدث عن الإيمان، فذلك بعون الله. وإذا أُذن لي بالبقاء في بلادك الجميلة، التي أحبّها كما أحبّ أرض آبائي؛ وإذا قُدّر لي أن أتزوّج وأعول زوجة؛ وإذا وعدتني بأن ابنتك ستستحم، ببركة الله، مرةً واحدةً على الأقل في الأسبوع—فعندئذٍ، ربما أبني بيتًا على سفح الجبل... إن شاء الله"!

فقال: "يمكنك أن تصبح مؤمنًا، إن شاء الله. والمرأة لا تعادل الرجل. ولن أطلب لها مهرًا كبيرًا، فأنت صديقي. لكنني لا أفهم ما تقصده بالاستحمام؛ فبئرنا بعيدة جدًا"!

من المعروف أن النساء، خلال حرب الريف، كنّ يقمن بأدوار تتجاوز حدود ما يُتوقّع منهنّ؛ إذ كنّ يجلبن الماء إلى خطوط القتال، وينقلن الجرحى من المقاتلين، بل وكثيرًا ما حملن البنادق بأنفسهن. وأستطيع، من خلال مشاهداتي الشخصية، أن أؤكد ما أورده ليسترز في هذا الصدد. فقد لاحظت، خلال المعارك ضد بو حمارة، مهارتهنّ في استعمال السلاح.

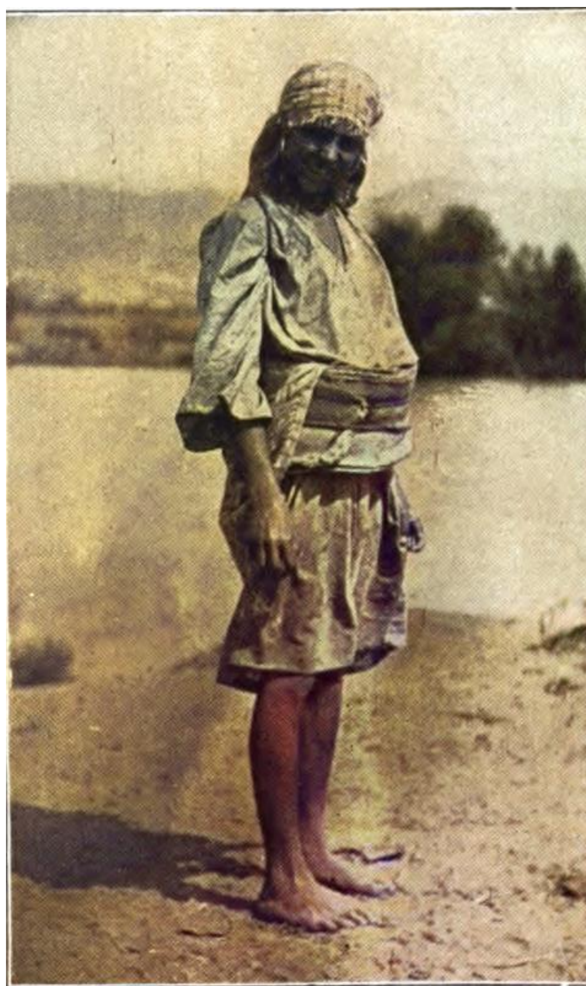
وعندما كانت تندلع المواجهات بين القبائل المتنازعة، كانت النساء والفتيات يُلهبن حماسة المحاربين بهتافاتٍ حادّة، تحمل في طيّاتها تشجيعًا وتوبيخًا في آنٍ واحد. وويلٌ لمن يُفكّر في التراجع!

فسرعان ما تتعالى الأصوات: "أعطونا البنادق، فنحن من سيقاتل؛ إذ لا رجال بينكم!" و"أين أولئك الأبطال الذين يتبجّحون أمام النساء، ثم يهابون الرجال؟" و"خذوا الحجارة إن كنتم تجهلون استعمال السلاح"!

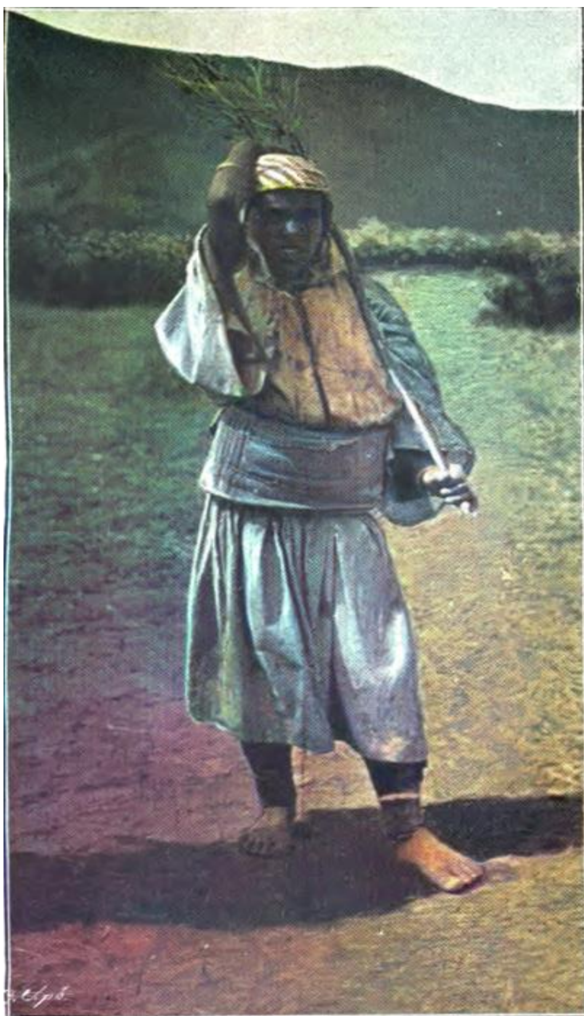
تلك هي العبارات التي كانت تلاحق المقاتلين المنسحبين، فتوقظ فيهم الحميّة أو تفضح جبنهم. وهي تذكّرنا، على نحوٍ ما، بنساء الجرمان الشقراوات، وتُفسّر إعجاب الريفي الشجاع، المستعدّ دومًا للقتال، بنساءٍ يتحلّين بمثل هذه الجرأة والقوة.



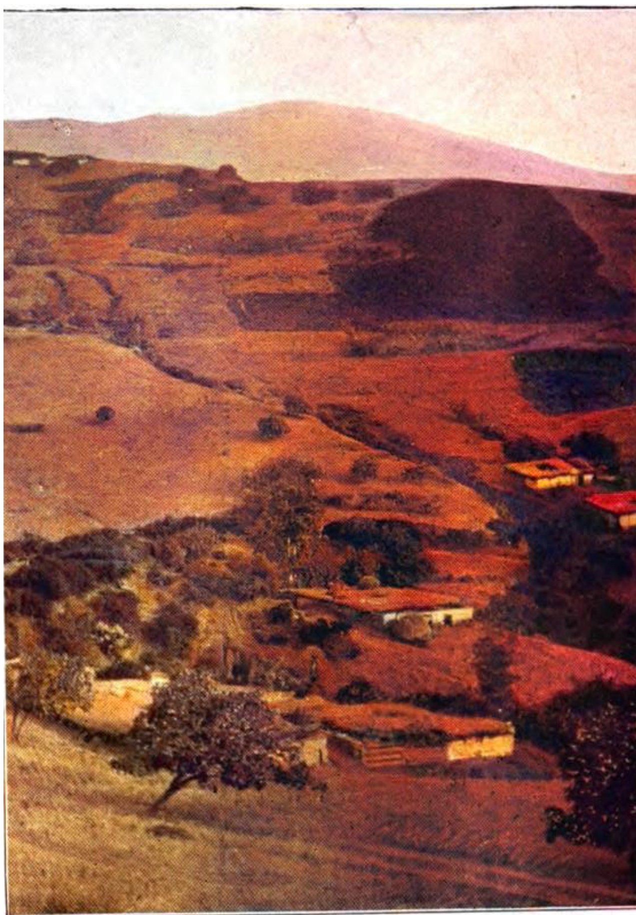
زعيم قرية من قبيلة غمارة.



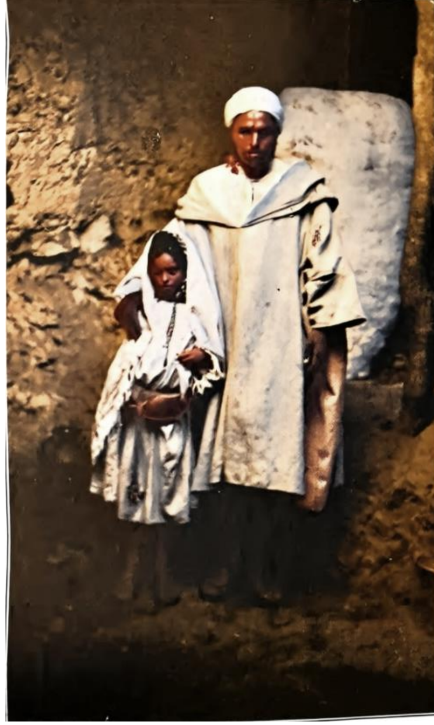
فتاة من قبيلة قلعية



فتاة من غمارة تبلغ من العمر اثني عشر عامًا.



مزارع غمارة.



صديقنا حميد الفقيه وابنته الصغيرة خدوج البالغة من العمر ثماني سنوات.

تُعدّ حالات الطلاق نادرةً للغاية، حتى في حال عدم إنجاب المرأة، وهو السبب الذي يُعدّ من أبرز دوافع الطلاق في مجتمعات إسلامية أخرى. كما يبدو أن الزنا قليل الحدوث؛ إذ لم أسمع إلا عن حالة واحدة فقط، وقد كُفِّر عن هذه الجريمة بسفك دم الجاني. أما مصير المرأة، فلم أتمكن من التحقق منه، غير أن ما أعرفه عن عادات هذا المجتمع يرجّح أنها عادت إلى بيت والديها.

ولا يُعرف من موانع الزواج سوى القرابة المباشرة، كالاقتران بين الأشقاء أو بين الأصول والفروع، أما صلات القربى الأبعد فلا تُعدّ عائقًا. بل على العكس، يُفضّل الشاب في كثير من الأحيان الزواج من ابنة عمّه. ومع ذلك، لا تحظى هذه الأخيرة بامتياز خاص مقارنةً بغيرها من الفتيات، وهو ما يعكس، في جانب منه، المكانة المتميّزة التي تحتلّها المرأة في هذا المجتمع.

تُعامَل النساء الحوامل، في كل مكان، بعطفٍ بالغ، ويُحطن بكل ما يمكن تصوّره من رعاية واعتبار، حتى من قِبل الغرباء. ولا يسمح الريفي، اعتزازًا منه وشهامةً، للمرأة الحامل بحمل الأثقال؛ بل قد يفضّل أن يُجهد نفسه أكثر من دابّته على أن يراها تتحمّل عناءً.

وذات مرة، كنتُ أرافق صديق من أهل القرية في طريقنا إلى سوق سبت واد لاو. كنّا ننحدر من الجبل متّجهين نحو الساحل، حين ظهرت امرأة من وادٍ جانبي، لم تكن تحمل شيئًا، غير أنّها كانت في أشهرها الأخيرة من الحمل. فما كان من رفيقي، وكان على وشك امتطاء بغلته، إلا أن توجّه نحو تلك الغريبة ودعاها إلى ركوب الدابة.

وذلك على الرغم من أن الأمازيغ في جبال الريف نادرًا ما يوجّهون الكلام إلى نساء عائلاتهم في الطرقات، فضلًا عن مخاطبة الغريبات؛ إذ جرت العادة أن يعود الرجال والنساء إلى ديارهم منفصلين بعد المناسبات القبلية. غير أنّ المرأة الحامل

تُستثنى من هذا التحفّظ، فتُعامل معاملةً خاصة، وتُحاط بنوع من التوقير يكاد يضفي عليها صفة القداسة.

"المرأة التي لا أطفال لها كزهرةٍ بلا عطر"، هكذا يقول المثل الريفي. ففي بيئةٍ يمرّ فيها شهر العسل سريعًا، ويذبل فيها الشباب على نحوٍ يكاد يكون مفاجئًا، لا يبقى للإنسان من عزاءٍ سوى الأبناء.

ومع تقدّم السن، قد تجد المرأة نفسها وحيدةً مُهمَلة، ما لم يُخفّف أبناؤها البالغون من أعباء شيخوختها. لذلك، يتجلّى حبّ الأم بقوّة لدى الأمازيغ عمومًا، ولا سيما في مناطق الجبال. ويُقال في هذا السياق: «تخلَّ عن أجمل امرأة إذا كان في ذلك خلاصٌ لأمّك المحرومة»؛ وهذا دأب الريفي.

ولعلّ هذا ما يفسّر أيضًا شدّة حرص نساء الريف على إنجاب الأبناء، بما يفوق، في الغالب، حرص نسائنا. ومن هذا المنطلق يمكن فهم تلك المشاهد التي تبدو غامضة للغريب: أشخاص يتسلّلون في ظلمة المساء إلى ضريح وليٍّ صالح، يلمسون جدران قبّته المتداعية وهم يتمتمون بالدعاء، ثم يقبّلون أيديهم التي لامست الضريح. كما يمكن فهم دلالة تلك القطع الصغيرة البالية من القماش، المعلّقة على قضبان النوافذ أو على أغصان الأشجار القريبة.

"أمٌّ تبكي!" هكذا تصرخ الجارات حين تشتدّ آلام المخاض على المرأة. أمّا الريفي العائد إلى بيته، فيُستقبَل بعبارة: "سيدةُ بيتك تبكي"، إشارةً إلى اللحظات العصيبة التي تمرّ بها زوجته. وعليه،

لا يُسمح له بالدخول إلا بعد أن يعلو صوت المولود الجديد، معلنًا قدوم حياةٍ جديدة.

بعد ساعاتٍ قليلة من قيام الجارات بمساعدة الأمّ وحمل المولود الجديد، تنهض المرأة الريفية من مضجعها لتستأنف أعمالها المعتادة، حاملةً رضيعها ملفوفًا في قطعة قماش على ظهرها.

ولا تحظى ولادة الأنثى باهتمامٍ كبير داخل الأسرة، وإن لم تُعدّ نذير شؤم. أمّا قدوم الذكر، فيُشرق له وجه الأب ابتهاجًا، وتتوالى التهاني من أفراد الأسرة وأهل القرية — (والذين هم في الغالب نفس الأشخاص).

تتولى الأسرة اختيار الاسم، وغالبًا ما يُسمّى الابن البكر «محمد». ويُخاطَب حامل اسم النبي، في مختلف أنحاء جبال الريف، بلقب «سي» (سيدي) على سبيل التوقير، وهو ما يُعدّ نوعًا من الامتياز المرتبط بمكانة الابن البكر.

في الأشهر الأولى، تحمل الأم طفلها ملفوفًا في قطعة قماش على ظهرها، أثناء مزاولتها لمختلف أعمالها اليومية. وغالبًا ما يكون وضعه بحيث يظهر رأسه تحت كتفها الأيمن، بينما تمتد ساقاه تحت كتفها الأيسر، وربما فوقه قليلًا. وكثيرًا ما تلوح القدمان الصغيرتان إلى جانب رأس الأم، كأنهما تتطلّعان بفضول إلى العالم من حولهما.

ومع ذلك، وعلى الرغم من قسوة الظروف ومحدودية الموارد الغذائية، يبدو أن معدل وفيات الأطفال منخفض. فقد سجّلت، من بين ستين حالة ولادة اطّلعت عليها في مناطق متفرقة، خمس

حالات فقط لولادة أطفال موتى. أما في الولادات الطبيعية، فلم ألاحظ ـــ في حدود ما تسنّى لي ـــ وفاة أي طفل.

وقد رأيت بنفسي نساءً يلدن في الصباح، ثم يحملن أوعية ماء ثقيلة عند الظهيرة؛ وهو ما يُعدّ دليلاً واضحًا على صلابة نساء الريف وقوة تحمّلهن.

ما إن تشتدّ سيقان هؤلاء الصغار وتصبح قادرة على حملهم، حتى يُترك لهم مجال واسع للحركة دون قيود، كما هو الحال في مناطق أخرى من الشرق. فيجولون هنا وهناك، مرتدين قميصًا خفيفًا أو جلبابًا ضيقًا، وكثيرًا ما يكونون عراة تمامًا، لا يعيق حركتهم شيء.

وسرعان ما ينخرط الصبيان في أعمال الحياة اليومية؛ فيشاركون في أشغال الحقول، وصيد الأسماك، ورعي الماشية، ومرافقة من يقصد السوق. وفي معظم المناطق الجبلية، يردّدون منذ سنّ مبكرة ـــ قد تكون الخامسة أو السادسة ـــ آياتٍ من القرآن كل صباح، غير أنهم قلّما يتقنون القراءة والكتابة إتقانًا تامًا.

أما الفتيات، وهنّ على قدرٍ لافت من الرشاقة، فيُكلّفن منذ الصغر بالمساهمة في شؤون البيت، حالما تقوى أذرعهنّ على العمل. وحين يُزوَّجن بعد سنوات قليلة ويغادرن بيت الأب، لا يتغيّر نمط حياتهنّ كثيرًا؛ إذ سرعان ما تتوالى مسؤوليات الأمومة، فتأخذ تلك الرشاقة في التلاشي تدريجيًا، ولكن ليس بالسرعة المخيفة التي تحدث مع زوجة ابن الصحراء.

تبقى هناك مسائل أخرى لا أملك لها جوابًا، وأترك أمرها لمن يأتي بعدي: هل تتمتع الأرامل بقدر من الحرية الجنسية؟ وكيف تُفهم مسألة العفّة قبل الحيض وبعده؟ وكم تدوم فترة الانفصال بعد الولادة—علمًا بأن الرضاعة تستمر عادة نحو سنة، ونادرًا ما تتجاوز ذلك؟ وهل توجد وسائل معروفة لمنع الحمل؟ وهل يُمارس الإجهاض الطوعي؟ (وهو أمر أشكّ في حدوثه).

وقد ذُكر لي أن النساء يلدن في وضعية الاستلقاء. وبما أن هذه الطريقة شائعة في بعض مناطق آسيا الإسلامية، فليس من المستبعد أن تكون معروفة هنا أيضًا. ولا أملك ما يدعو إلى افتراض خلاف ذلك، سوى أن المرأة في المدينة تميل إلى انتظار المخاض وهي مستلقية على ظهرها.

الملابس بسيطة وخشنة، شأنها شأن من يرتدونها. فيُلبس قميصٌ واسع الأكمام يصل إلى الركبتين (شامير) فوق سراويل قصيرة فضفاضة. وتكون هذه السراويل ملوّنة في المناطق الغربية، بتأثير من الثقافة الحضرية، بينما تظلّ في أعماق الجبال بيضاء ناصعة.

غير أن كثيرًا من القبائل الفقيرة ترفض هذه التطريزات، معتبرةً إياها غير ضرورية، بل وعلامة على الترف أو التأنّث. ونادرًا ما تُرى السترات القصيرة الأكمام إلا عند الرجال الذين قضوا زمنًا في طنجة أو تطوان؛ وهي تُصنع من أقمشة ملوّنة، وتُزيَّن في بعض أجزائها بتطريزات صوفية جميلة وأزرار من الصوف.

ويُلبس فوق ذلك جلبابٌ سميك، مصنوع إمّا من صوف أو من شعر الماعز، ومنسوج يدويًا بعناية. وغالبًا ما يكون لونه بنيًّا،

ويُزيَّن في مقدمته بخصلات صوفية ملوّنة تختلف بحسب الانتماء القبلي. أمّا في أقصى جنوب الريف، فيغلب أن يكون الجلباب أسود اللون.

تختلف ألوان الملابس في المغرب اختلافًا كبيرًا بحسب المناطق. وتشير معطيات هذا الكتاب إلى وجود ثلاثة أنماط رئيسية من الجلابيب في الريف: الأبيض في الغرب، والبني الترابي في «الريف الحقيقي»، والأسود في ممر تازة. وينطبق هذا التنوّع اللوني أيضًا على بقية مناطق البلاد.

ففي سفوح جبال الأطلس يُفضَّل الجلباب الأبيض، وكذلك في المناطق الجنوبية عمومًا. أمّا جنوب الدار البيضاء، فيميل الرجال إلى ارتداء الجلابيب الرمادية، بينما تسود في المدن الجلابيب الزرقاء الداكنة. وفي المناطق الصحراوية يغلب اللون الأزرق، في حين يظهر على الحدود الجزائرية أيضًا الأزرق القاتم، بل وحتى القرمزي، وإن كان هذا الأخير يُستعمل غالبًا في شكل سلهام أكثر من كونه جلبابًا.

ومن الشائع أن يُنعت الأشخاص المقيمون خارج الريف بأسماء مشتقة من ألوان ملابسهم؛ فالرجل الذي يرتدي ثيابًا رمادية في موغادور، مثلًا، يُعرف بـ«الصويري» (نسبة إلى الصويرة، الاسم العربي لموغادور). وغالبًا ما يلازم هذا اللقب صاحبه طوال حياته، وقد يتحوّل مع الوقت إلى اسم عائلي متوارث.

يرتدي الأثرياء، في موسم البرد، تحت ملابسهم الخارجية قطعةً أخرى مماثلة لكنها بيضاء اللون، غير أن هذا الأمر يظلّ نادرًا.

وفي الغرب، وكذلك في أقصى الشرق، تنتشر أحيانًا أردية بيضاء (السلهام)، متفرقة هنا وهناك، على غرار ما يرتديه البدو الأمازيغ الذين تأثروا بالثقافة العربية.

وأثناء العمل، تُخلَع الملابس الخارجية دائمًا. أما عند التوجه إلى أماكن العمل، فإن غطاء الرأس يحمل القليل من المؤن. ويكتمل الزيّ في غرب الريف برباطٍ أبيض من الكتان (الرزة)، يترك منتصف الرأس مكشوفًا. أمّا في القسم الشرقي، فلا يُعرف إلا ذلك الرباط السميك المصنوع من خيوط بنية، الذي يضغط على الجبين ويترك بدوره قمة الرأس عارية. وحيثما يسود هذا الرباط البني، يُمكن التعرّف على الريفيين الحقيقيين.

كما يمكن ملاحظة أنماط أخرى متفرقة من أغطية الرأس: فعند الخماسي والغياثي وغيرهم لا نجد سوى خيوط رفيعة، بينما يرتدي سكان أنجرة—الذين يُعدّون من الناحية الإثنوغرافية ضمن نطاق الريف—شرائط قماشية زرقاء تُلف ببساطة حول الجبين ومؤخرة الرأس.

يرتدي الريفي نعالًا جلدية صفراء، تُصنع بأسلوب أبسط وأخشن بكثير من تلك التي يشاهدها الزائر الأوروبي في طنجة أو غيرها من المدن الساحلية. ففي تطوان وحدها تُنتَج هذه النعال على أيدي حرفيين متخصّصين.

وبينما يتراوح ثمن زوجٍ من النعال في المدن بين تسعة وعشرة دورو حسني، نادرًا ما يتجاوز سعر النعال القروية الخشنة ريالًا

واحدًا. ومع ذلك، يظلّ هذا المبلغ، في كثير من الأحيان، مرتفعًا بالنسبة لسكان الجبال من ذوي الدخل المحدود.

وإذا سمحت بذلك مسالك البغال المتوارية بين ضباب بلاده، فإنّ ابن الريف لا يتردّد في خلع نعليه الثمينين، فيضعهما مع الفاكهة وخبز الشعير داخل قُبّة جلبابه أو في شواري دابّته المتّجهة إلى السوق، ثم يمضي حافي القدمين بخفّة ورشاقة.

كما تُستعمل الصنادل المصنوعة من سعف الحلفاء على نطاق واسع وبكل ارتياح؛ فهي، خلافًا لما يُظنّ، متينة إلى حدٍّ كبير، غير أن ميزتها الأبرز تبقى في كونها زهيدة الثمن، تكاد لا تُكلّف شيئًا.

في البلاد الشرقية، لا تكشف الملابس دائمًا عن هوية صاحبها أو مكانته، والأمر نفسه يصدق على منطقة الريف. فالجلباب الصوفي السميك، الذي يُقتنى بعد طول تفكير، يظلّ محتفظًا بمظهره الجديد زمنًا طويلًا، حتى وإن كان صاحبه ينتمي إلى قبيلة تعاني فقرًا شديدًا.

وعلى ضفاف وادي مارتيل، التقيتُ يومًا رجلًا مسنًّا هزيلًا، ممدّدًا تحت الشمس، لا يكسو جسده سوى خرقة خفيفة يشدّها حول خصره. وبعد أن سقيتُ دابّتي، جلستُ إليه نتحدّث. وما لبث، بعد شكوى طويلة من رداءة المحاصيل، أن قال: "سيكون زرعنا هذا العام شحيحًا، ولكن لا عليك! فلا تحسبنّني معدمًا؛ إذ أملك جلبابًا جديدًا جميلًا، غير أنّ زوجتي حملته اليوم إلى النهر لتغسله. هذه هي الحكاية".

وفي مناسبة أخرى، في وادٍ ناءٍ لم تطأه قدم أوروبي من قبل، جلستُ مع رجال القرية في غرفة معتمة، يستمعون بشغف إلى حكاياتي عن عادات النصارى ولغتهم وأساليب عيشهم وأسلحتهم. وسرعان ما انتقل الحديث إلى مسألة اللباس. فتساءل أحدهم—وكان قد زار طنجة ومليلية ورأى الملابس الأوروبية—قائلًا: «لماذا يرتدي الكفار ثيابًا ضيّقة إلى هذا الحد؟ ألا يستطيعون حكّ أجسادهم إذا احتاجوا إلى ذلك؟» ثم راح، في تلك اللحظة، يحكّ إبطه بحماسة.

فقلتُ: «يا لها من سرعة بديهة! لكن لا يوجد لدينا ما يستدعي الحك!» عندئذٍ تبادل الرفاق النظرات في حيرة، ثم انفجروا ضاحكين قائلين: «هذا غير ممكن!»

غير أنّه لا ينبغي أن يُفهم من ذلك أنّ رجال الريف أقلّ نظافة من سائر أهل الشرق، بل على العكس تمامًا. فكما هو شأن جميع سكّان الجبال في البلدان الإسلامية، يحتلّ الماء والصابون لديهم مكانةً أهمّ بكثير ممّا هي عليه لدى البدو في مناطق أخرى.

مثل سائر سكان المغرب، يحمل أهل الريف أيضًا حقيبة «الشاكوش» تحت إبطهم الأيسر. غير أنّ هذه الحقيبة، التي تُحمل في مناطق أخرى من المغرب بأربطة من الصوف أو الحرير وتكون غالبًا مصبوغة باللون الأحمر، يفضّلها أهل الريف بلونها الطبيعي، ومزوّدةً بأربطة عريضة، تتخلّلها عدّة فتحات بأحجام مختلفة، وأغطية قابلة للطيّ مزدانة بزخارف طويلة.

ويُصنع هذا النوع حصريًا في تطوان، ويُزيَّن بصوف ملوّن، ويبلغ ثمنه ضعف ثمن الأنواع الأخرى، لكنه يمتاز بمتانته الكبيرة. وفي هذه الحقيبة يحتفظ البائع بكل ما يملك: غليونه، ومخزونه من الكيف، والخراطيش، ونقوده — إن وُجدت — ووثائقه، ومشترياته من المدينة. وخلاصة القول، تُوضع فيها جميع الأغراض، فهي، إلى جانب قلنسوة الرأس، وسيلة الحمل الوحيدة تقريبًا لدى المغاربة.

وفي المنطقة الشرقية ظهرت مؤخرًا حقائب أصغر حجمًا، متقنة الصنع، ذات أصل إسباني، تدخل البلاد عبر مليلية أو الجزر المحتلة. وتُباع بأسعار مرتفعة تتراوح بين أربعة وستة دورو ألفونسوي. وعلى الرغم من جمال تصميمها وزخارفها المنقوشة، فإنها لم تلقَ رواجًا كبيرًا بسبب صغر سعتها وارتفاع ثمنها.

أمّا أسعار الأحذية الجلدية في سوق الجلد بتطوان، فتتراوح بين ثلاثة وسبعة دورو حسني، تبعًا للتصميم، في حين تتراوح أسعار الأحذية القادمة من مراكش بين ثلاثة وخمسة دورو حسني.

على خلاف القبائل الناطقة بالعربية، لا تتشابه ملابس النساء في الريف إلا بشكل طفيف مع ملابس الرجال. يُعرف القميص ضيّق الأكمام باسم «فراسيا؟»، وينزل حتى الركبتين، ويُشدّ عند الخصر بحزام. في المناسبات والأعياد يُصنع هذا الأخير من كتان ملوّن، أما في الحياة اليومية فيُخاط غالبًا من بقايا أكياس الدقيق المستعملة أو من قطع الأقمشة البالية.

وعند الخروج من القرية، تلفّ النساء النصفَ السفلي من أجسادهنّ بفوطةٍ أوروبيةٍ كبيرة، متوفّرة في الأسواق الاستعمارية بثمنٍ يقارب فرنكين، تحمل تصميمًا موحّدًا مستورَدًا من إنجلترا وفرنسا. وأحيانًا تُضاف فوطةٌ أخرى لتغطية الرأس والكتفين، فيكتمل بذلك سترٌ مؤقتٌ يختلط فيه المحليّ بالمجلوب.

لا تُنتعل الأحذية الجلدية الحمراء إلا في المناسبات الخاصة، أما أثناء التنقّل سيرًا على الأقدام، فتُلفّ الساقان بشرائط جلدية تقيهما من الشجيرات الشائكة على الطرقات، وهي عادة منتشرة في مختلف مناطق شمال المغرب.

ويُلفّ حول الرأس وشاح من صوف ملوّن، وأحيانًا من حرير خشن، يقتنيه الزوج أو ربّ الأسرة من تجّار تطوان في لحظة رقة. ويغدو هذا المنديل مصدر غبطة وحسد بين نساء القرية.

على غرار معظم المسلمين، يحلق رجال الريف—وقد اعتادوا قسوة المناخ—رؤوسهم. غير أنّهم يتركون منذ الصغر خصلةً شعر واحدة على الجانب الأيمن تُعرف باسم «ذَمْزُورْثْ». وتوجد تسريحة مماثلة لدى بعض القبائل الأمازيغية في جبال الأطلس، إلا أنها تكون أقصر وتختلف موضعًا.

ويستطيع الريفي أن يميّز أبناء قبيلته من بين المئات من خلال شكل هذه الخصلة وهيئتها، ولا يكاد يولي أمرًا عنايةً أكبر منها، باستثناء بندقيته التي يعتز بها. وتُعدّ خسارة «ذَمْزُورْثْ»، سواء عن غير قصد أو قسرًا، من أشدّ الإهانات التي قد يتعرّض لها.

ويجدر التنبيه إلى أنّه يمكن أيضًا ملاحظة خصلات شعرٍ شبيهةٍ بتلك التي يتميّز بها أتباع الطريقة العيساوية في جبال الأطلس؛ إذ يبلغ طولها نحو عشرين سنتيمترًا، غير أنّها تتموضع في منتصف الرأس تمامًا. وهي تُثبَّت بإحكام، وتظلّ في الغالب مخفيّةً عن الأنظار.

غالبًا ما تُرى قطع صغيرة من الفضة مُعلَّقة في شحمة أذن الرجل الريفي. أمّا الخواتم الفضية الثقيلة، فهي أقلّ شيوعًا؛ وإن وُجدت، فتقتصر عادةً على الرجال الذين كانت لهم صلات وثيقة بالإسبان.

تعمد الفتيات في سنّ الزواج إلى إطالة شعرهنّ بإضافة خيوط طويلة من الصوف الأسود أو من الحرير الصناعي، تُنسج مع الشعر حتى تمتدّ إلى حدود الركبتين. و لكي لا تعيق هذه الضفيرة المتقنة حرية الحركة، تُمرَّر تحت الحزام بحيث تثبّت عند الخصر وتُبقى لصيقة للجسد. وتُلاحظ هذه التسريحة نفسها لدى النساء المتزوجات أيضًا.

ولا تعرف نساءُ منطقة الريف الضفائرَ الجانبية السوداء التي تمنح المرأة الأمازيغية في مناطق الأطلس الأخرى مظهرًا ذا طابعٍ مشرقيّ. كما أنّ الوشم يكاد يكون غائبًا لديهنّ، وربما يُعزى ذلك إلى حرصهنّ على صون بشرةٍ بيضاء نقية تميّزهنّ عن أخواتهنّ في الأطلس.

وفي المقابل، تنتشر بينهنّ الحلقات الفضية الرفيعة غير المغلقة تمامًا، والتي تُوسّع شحمة الأذن بشكل ملحوظ، وهي شبيهة في تصميمها بما يُرى، على سبيل المثال، في خواتم القدم التي تزيّن

كواحل النساء في السودان. كما يلبسن أساور من الفضة أو النحاس الأصفر، يقتنيها الأزواج من أقرب المدن أو من الأسواق الأسبوعية.

غير أنّ هذا الأمر يظلّ نادرًا في الواقع. فبينما تحرص نساءُ المدن المغربية على تزيين أيديهنّ وأقدامهنّ بالحنّاء، فيمنحنها لونًا برتقاليًا مائلًا إلى الأصفر اللامع، ويصبغن شعورهنّ بالأسود أو أحيانًا بدرجاتٍ مائلة إلى الأحمر باستعمال الحنّاء، تميل زوجةُ الريفيّ إلى الإعراض عن مثل هذه الزينة، مكتفيةً بجمالها الطبيعي.

وتختلف مساكن القبائل الريفية اختلافًا بيّنًا عن مساكن غيرها من القبائل الأمازيغية؛ ففي جبال الأطلس تسود البيوت الحجرية ذات الأسقف المصنوعة من القش، بينما تنتشر في السهول الحارّة جنوبًا وعلى سفوح الأطلس مساكن بسيطة تُشيَّد من أغصان متشابكة وتُغطّى بأسقف من القش، وهي بيوت هشة لا يخلّف تدميرها—على يد جباة الضرائب التابعين للسلطان—أضرارًا تُذكر.

في حين تقيم قبائل الرحّل في خيام بنية منسوجة من شعر الماعز، يشيّد سكان الريف بيوتًا مريحة متعددة الغرف، متينة ودافئة، تُشبه إلى حدّ كبير نظيراتها في منطقة القبائل بالجزائر، غير أنّها تمتاز بأسقف مسطّحة.

تُبنى الجدران، التي يتراوح سمكها بين 30 و40 سنتيمترًا، من طين ممزوج بالقش، وتُدعَّم بطبقات من القصب حتى ارتفاع

يقارب المترين. أمّا السقف، الذي يبلغ سمكه ما بين 30 و40 سنتيمترًا، فيُغطّى عادةً بطبقة رقيقة من الحصى أو التراب للحدّ من خطر الحريق. وفي وسط هذا السقف المسطّح، تُفتح فتحة دائرية يبلغ قطرها عدة أمتار، تسمح بتسلّل ضوء النهار إلى داخل المنزل.

توجد غرفة على كلٍّ من الجانبين الضيّقين للمسكن ذي التصميم المربّع؛ تُخصَّص إحداهما للرجال، وتُستعمل أحيانًا لإيواء الضيوف ليلًا، فيما تُخصَّص الثانية لنساء الأسرة وتؤدّي في الوقت نفسه وظيفة المطبخ.

وأمام الغرفة الأولى تمتدّ مصطبة منخفضة قليلًا، يظلّلها سقف بارز من القصب. أمّا الجوانب العريضة للمسكن، فتُغطّى بطبقة عازلة من القصب، ترتكز على جذوع غير مشذّبة.

يُخصَّص أحد الجوانب كمخزن تُحفظ فيه الأدوات والمؤن والثمار، وغالبًا ما يضمّ مطحنة يدوية، وإن كانت هذه الأخيرة لا تتوافر إلا في المساكن الأكبر حجمًا؛ أمّا الفقراء فيلجؤون إلى طحن حبوبهم لدى الجيران. كما توجد في هذا الفضاء أسطوانات طينية مجوّفة مطليّة باللون الأبيض، تُعرف بـ«المطامير»، وتُستعمل لتخزين الحبوب، حيث تُفتح وتُفرَّغ عند الحاجة. وكثيرًا ما يُحفر في الموضع نفسه مخزنٌ تحت الأرض يحمل الاسم ذاته ويؤدّي الوظيفة نفسها.

أمّا الجانب الأعمق، الذي يفضي في نهايته إلى ممرّ مفتوح نحو الخارج، فيُستخدم إسطبلًا يضمّ عددًا محدودًا من البغال والماعز

والخيول. ويُسمّى الفناء «رمراح»، على غرار ما هو شائع في المدن المغربية. وفي داخل هذا الفناء فتحةُ تصريفٍ مغطّاة بشبكة، ما يدلّ على وجود نظام بسيط لتصريف المياه حتى في مناطق الريف المعزولة؛ إذ يمكن تتبّع مجرى المياه المتدفّقة بعد ترشيحها وهي تنحدر نحو أسفل الوادي عند المنحدر المجاور.

في غرفة الرجال، توجد مصطَبة مرتفعة مخصّصة للنوم على علوّ يقارب المتر، شُيّدت بتثبيت عوارض في الجدار تُغطّى بألواح خشبية، ثم تُفرش فوقها الحصائر والبطانيات. غير أنّ هذا الموضع[14] لا يُستعمل في الغالب للنوم، بل يُخصَّص لحفظ الأموال والمقتنيات الثمينة. وغالبًا ما تُودَع فيه أيضًا بنادق أفراد الأسرة، حيث تجد هناك مأواها خلال الليل.

وعلى الجهة المقابلة لغرفة الرجال، يمكن ملاحظة ـــ وذلك لدى القبائل الساحلية أساسًا، وليس على نحوٍ مطّرد ـــ منصّةً منخفضة مفروشةً بحصير، تُستعمل موضعًا للصلاة. وبمحاذاتها فتحةٌ لتصريف المياه، تتيح للمصلّي أداء الوضوء في المكان نفسه.

تضمّ تجهيزات المنزل أيضًا حصائر يتراوح قياسها عادةً بين مترٍ واحد وثلاثة أمتار؛ وبطانيات من صوف الأغنام، نادرًا ما تكون منسوجة يدويًا، إذ تُشترى في الغالب من تطوان، ويصل قياسها إلى نحو 1.5 × 5 أمتار أو أكثر. وتُعرف هذه البطانيات بالاسم الإسباني «مالطا»، ويتراوح ثمنها بين خمسة وثمانية دوروات

---

14 أَرِثُو

محلّية. كما تشمل التجهيزات مواقد محمولة من الطين تعمل بالحطب أو الفحم.

ويُستعمل منفاخ يُعرف بـ«ارابوز» لإشعال النار، يُقتنى في طنجة بثمن يقارب خمسة صُلْدِيّات، غير أنّ نفَس الإنسان غالبًا ما يكون كافيًا لإذكائها. وقد صادفت أحيانًا وسائل تدفئة ذكية تشبه المدافئ الحديثة؛ إذ يوجد تحت الكوخ مجرى للدخان يعمل كقناة سحب متصلة بموقد النار في الأسفل، ويبدو أنّه فعّال للغاية، حيث يرتفع الدخان بسهولة ويتبدّد تلقائيًا.

أمّا الأواني، فإلى جانب الأدوات ذات الأصل الأوروبي التي تصل إلى الجبال، تنتشر أوعية مصنوعة من القرع بأشكال متنوّعة، وأخرى فخارية جميلة مزخرفة برسوم سوداء لافتة. وتحظى الأواني والسلطانيات القادمة من منطقة آيث ورياغر بتقدير كبير. كما تُستعمل الملاعق المصنوعة يدويًا، لكن أساسًا لتناول الكسكس. وتُعدّ الأواني النحاسية والقصديرية نادرةً، وهي تدلّ عادةً على يسار صاحبها ورفاهيته. وتُحفظ هذه المقتنيات جميعها في كُوًى جدارية.

تتّخذ المطحنة اليدوية، الموضوعة داخل صندوق خشبي، الشكل نفسه الذي عُرفت به هذه الأداة منذ قرون—بل منذ آلاف السنين—في مختلف مناطق المغرب، وكذلك في الجزائر ومصر وفلسطين وغيرها.

أمّا وسائل الإضاءة، فتتنوع بين مشاعل مدهونة بالشحم، وحزم من الأغصان الرفيعة المربوطة بطول الذراع، فضلًا عن

المصابيح المعدنية التقليدية التي تعمل بشموع رخيصة، غالبًا ما تُستورد في عبوات تزن نحو نصف رطل من إنجلترا.

لا تكاد توجد مساكن مميّزة مخصّصة للزعماء، لا في القرى ولا حتى في الحواضر الكبيرة، كما تغيب المباني المعدّة للاجتماعات، إذ تعقد الجماعة لقاءاتها في الغالب في الهواء الطلق.

غير أنّ لكلّ جماعة قروية تقريبًا مسجدًا مطلياً بالأبيض متينًا، غالبًا ما يخلو من مئذنة؛ فيؤذّن المؤذّن من فوق السطح أو عند المدخل. وإلى جواره تمتدّ مقبرة مهملة نسبيًا، لا يميّز قبورها سوى ألواح صغيرة من البازلت أو صفائح حجرية تُنصب عند موضع رأس المتوفّى.

في منطقة أنجرة، وكذلك في أقصى الشرق—ولا سيما في قلعية وكبدانة—تُستخدم أيضًا بيوت مشيّدة من الخشب. غير أنّ أساساتها تُبنى من حجارة متينة، بينما يتكوّن السقف من هيكل خشبي من جذوع متشابكة تُغطّى بالأغصان وأوراق الدوم المتوسطي وما شابهها. وعلى غرار المساكن الريفية المبنية بالحجر، يُقام هذا النوع من البيوت ملاصقًا لمنحدرات الجبال، بحيث تنساب مياه الأمطار بسهولة.

وفي السهوب الشرقية، تنتشر كذلك خيام ذات شكل يشبه الشراع، تؤدّي وظيفة سقف بسيط يقي الرحّل حرّ الشمس، وهو نمط مألوف في أنحاء واسعة من أفريقيا الإسلامية. وتُنسج هذه الخيام من نسيج سميك جدًّا من شعر الماعز، غالبًا ما يُمزج بألياف نباتية، وتُثبّت بحبال مصنوعة من نخيل الدوم، وتأوي تحتها جميع أفراد الأسرة.

تتخذ خيمة السوق في المغرب شكلًا مغايرًا وتحمل اسم «القيطون». أمّا الخيمة المستعملة في السياقات العسكرية أو أثناء الترحال، فتُعرف باسم «البَكْرَة»ـــوربما اشتُقّت تسميتها من شكلها المدبّبـــوهي كلمة يقابلها في العربية الفصحى معنى "العذراء."

يبلغ ارتفاع الخيمة في وسطها ما بين مترين وثلاثة أمتار، ويتراوح طولها بين عشرة وخمسة عشر مترًا، على نحوٍ مماثل لما هو معروف في المشرق. وفي فصل الشتاء تُرخى أطرافها حتى تلامس الأرض، بينما تُرفع صيفًا لتسهيل التهوية. وغالبًا ما تُحاط بسياج من القصب أو شجيرات العُلَّيق، بل أحيانًا بأسوار شوكية بسيطة.

وتُحفظ الممتلكات الشخصية تحت سقفها المشدود على هيئة قارب، في حين يُخصَّص أمامها موضع لإشعال النار. وتنتشر هذه الخيام بالشكل ذاته أينما تنقّل البدو بقطعانهم بين المراعي، في أنحاء واسعة من أفريقيا وآسيا الإسلامية. غير أنّها لا تظهر في منطقة الريف إلا في أقسامها الشرقية، إذ تسود في سائر المناطق أنماط العيش الزراعي المستقر.

بيتُ الريفيّ حصنُه المنيع؛ فمَن يعبر عتبته يصبح في ذمّته ضيفًا، ولو جاء من غير موعد. ومن يبيت تحت سقفه أو يشاركه طعامه، يحظَ بحماية جميع رجال الأسرة؛ إذ يُعدّ الإخلال بواجب الضيافة من أقسى ألوان العار. ويمكن القول إنّ لقدسيّة الكرم عند الريفيين

منزلةً رفيعة، تفوق ما هو معروف لدى قبائل ساميّة في آسيا، وأكثر تشدّدًا ممّا لدى عرب الصحراء.

غير أنّ الأمر يختلف بالنسبة للوافدين عن طريق البحر؛ فهؤلاء القراصنة السابقون ما زالوا يحتفظون بشيء من طباعهم القديمة، التي تستيقظ كلّما لمحت أعينهم سفن التجارة تمخر عباب البحر. ولعلّ هذا ما يجعلهم أقلّ حماسة لمنح الضيافة للقادمين بحرًا. أمّا المسافرون برًّا، فيحظى معظمهم بها، حتى إن عجزوا—كما جرت العادة—عن إثبات صلاتٍ أو معارف داخل القبيلة. ومع ذلك، يبقى من الأفضل أن يرافق المسافرَ دليلٌ موثوق من أبناء القبيلة نفسها، فذلك خيرُ ضمانٍ وأقوى توصية.

ويجدر أن يُذكر في هذا السياق الحدث الغريب التالي:

كنتُ عند قبيلة بني بوفراح، حين سعى يهودي من تطوان يُدعى إسحاق بينتو إلى استمالة ودّ القبيلة، فأرسل رسولًا يحمل نصيحة مفادها: «احتجزوا الكافر واطلبوا فدية كبيرة مقابل إطلاق سراحه». وقد رأيته في طنجة يتردد على رسوله دخولًا وخروجًا، مما يدلّ على أنه رجل ذو شأن في بلده. وجاء في رسالته، التي ما زلت أحتفظ بها: "ارفعوا الفدية إلى أقصى حدّ، وإن امتنعوا عن الدفع فاحبسوا المسيحي في حفرة في الأرض وامنعوا عنه الطعام حتى يؤدّوا ما يُطلب منهم."

كنتُ آنذاك ضيفًا لدى إحدى قبائل الريف، ولذلك لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق. غير أنّ المال إغراءٌ قوي، وقليلون هم أهلُ

المشرق القادرون على مقاومته. فضلًا عن ذلك، كانت القبيلة في حاجةٍ ماسّة إلى بنادق جديدة وذخيرة.

لم أشعر بأي قلق. ومع حلول الظلام، أخذتُ شيخَ القرية جانبًا وحدثتُه بشأن الرسالة. غير أنه طمأنني سريعًا، قائلاً إنه لا داعي للخوف: "لقد أطعمتُ إخواننا عندما كانوا في حصن تطوان، وأنت هنا في أمانٍ تام، كأنك ابنٌ لأحد شيوخ القبيلة".

فأجبته: "هذا ما تقوله أنت، ولكن ماذا عن رأي بقية رجال القبيلة؟"

وفي تلك اللحظة وصل مضيفُنا حميد الفقيه. ودون أن يتبادل الشيخان كلمةً واحدة، أمسك كلٌّ منهما بذراعيّ واقتاداني إلى صخرةٍ بارزة تُشرف على مشهدٍ واسعٍ للوادي. ومن هناك أشار حميد إلى مجموعات القرى المنتشرة على السفوح، ثم إلى الجبل، قائلاً: "كلّ هؤلاء يحملون نفس اسم رجال القرية التي تنزل بها ضيفًا. أشعل النار في تلك الكومة من الأغصان، وقبل أن تمضي أربعون دقيقة سترى الجميع هنا. خمسمائة بندقية ستقاتل من أجلك، لأنك ضيفُ بني بوفراح"!

أما ما جرى بعد ذلك بيني وبين إسحاق بينتو التطواني، فليس مما يُروى هنا. لكنني أعتقد أنه لن يعاود فعلته تلك مرة أخرى.

من المعروف أن القبائل الأمازيغية تمارس ما يُشبه حقّ الثأر الفردي بصرامةٍ تفوق ما هو مألوف لدى المجموعات العربية. ويظهر ذلك بوضوح خاص لدى القبائل الريفية، التي تُعدّ من أكثر المجموعات الأمازيغية محافظةً على تقاليدها.

فكلّ رجل من أفراد القبيلة يعطي لنفسه، في ظروف معيّنة، حقّ إطلاق النار على الغرباء، ويطالب في الوقت نفسه باعتراف بقية الفروع القبلية بهذا الحق. وكثيرًا ما تُروى حوادث تنزلق فيها عائلات بكاملها إلى خصومات دموية، بسبب رفض بعض فرقها الإقرار بحق الآخرين في ممارسة حقّ الثأر.

يتناول ابنُ الجبل وجبتين في اليوم. فعند شروق الشمس يكتفي بقليلٍ من الخبز والحليب، أو بالشاي إن وُجد، ثم يتناول وجبته الثانية مساءً بعد انتهاء عمله اليومي. أمّا ما قد يتيسّر له بين الوجبتين، فيتناوله بامتنان، إذ إنّ الإحساس بالجوع رفيقٌ دائم له.

وتظلّ الوجبة الرئيسية تلك التي تُقدَّم بعد الغروب، وتتكوّن في الغالب من الكسكس، مصحوبًا بما يتوافر من لحم البقر أو الضأن أو الدجاج أو الحمام. غير أنّ اللحم لا يظهر على المائدة إلا في المناسبات والأعياد أو خلال الولائم الخاصة.

الكسكس هو عصيدة تُحضَّر من حبوب الدخن المطحونة ناعماً، وغالباً ما يُكتفى بتناوله مع الحليب فقط، غير أنه يظلّ مغذّياً ولذيذاً حتى بهذه البساطة. وأحياناً يُقدَّم مع لحمٍ مطبوخ في مرقٍ دسم يُغمس فيه الخبز.

يُطحن دقيق الخبز باستخدام مطحنة يدوية بين حجرين، على النحو ذاته المتّبع في أنحاء العالم الإسلامي، كما كان عليه الحال قبل قرن تقريباً. وغالباً ما تُرى إلى جانبها قطع من الطوب تُستعمل بعد تسخينها في طهي الخبز. كما تُجهّز العائلات الكبيرة أفراناً

بجانب المنزل، على شكل مخاريط مجوّفة تُسخَّن بنار الحطب، وتعمل بطريقة تشبه الأفران الحرارية.

ويُعدّ الحليب مع الخبز من أكثر الأطعمة شيوعاً، والخبز هنا عبارة عن فطائر كبيرة رقيقة تُخبز على صوانٍ معدنية؛ إلا أنها أقل جودة من نظيرتها في المدن المغربية، حيث تُحضَّر غالباً من حبوب أخشن، بل وممزوجة أحياناً بالشعير. أمّا السمك ولحوم الطرائد البرية فمما يُفضَّل، لكنها تبقى نادرة الحضور على المائدة.

يعيش أهالي بني خنوس في فقر مدقع، ويتغذون لأسابيع على الجوز البري المحمص والمبشور، الذي يُخلط ليصبح عجينة تُخبز على صينية ساخنة كالخبز. مذاق هذا الطعام مريع! صحيح أن سكان غمارة هم أيضاً مسلمون متدينون إلى حد ما، لكنهم مع ذلك لا يرفضون قطعة طرية من لحم الخنزير البري المشوي. فالنبي قد حرم أكل لحم الخنزير، لكنه نسي أن يحدد أي جزء منه. لا يمكن أن يكون الحيوان بأكمله نجساً، لأن جميع الكائنات الحية من عند الله، ورحمة الله ليست مصدر الذنوب! هكذا برر أحد أبناء الجبال المتدينين تصرفه، عندما كان يتناول بشهية طعام الصيد المشوي الذي أعده صديقه المسيحي، والذي كان رائحته مغرية.

يُصاد نوعٌ من الأرانب البرية الذي يعيش في جبال الريف بالعصيّ والكلاب، إذ إن الذخيرة باهظة الثمن وبنادق الخرطوش نادرة. أمّا سكان الساحل ومن يقصدون البحر من أهل الداخل، فيعتمدون على صيد الأسماك الذي يكون وفيرًا في الخلجان الهادئة

والغنية بشكل لافت، كما تزخر مجاري المياه العذبة بأنواع عديدة من الأسماك.

وتُشوى مختلف الكائنات البحرية، من أسماك وأخطبوطات وقناديل، في الرماد الساخن وتُؤكل مع الخبز الخشن. إنّ الريفيّ، في هذا السياق، شديد التقشف في أسلوب معيشته! وكثيرًا ما يُسمع دويّ الديناميت يُلقى في البحر لصعق ما فيه من كائنات، ثم يتولى سبّاحون مهرة جمع ما يطفو منها إلى الشاطئ، وهي طريقة يُقال إنها استعيرت من الإسبان.



مدخل منزل في منطقة الريف.



نموذج لمنزل من الريف الغربي والأوسط مجهز بفرن.



مجموعة من المنازل في منطقة بني يدر.



نموذج مسكن على سفوح جبال الريف.

لا تفارق البساطةُ اللافتةُ ابنَ الريف حتى خارج موطنه الجبلي. فهو يميل إلى الاكتفاء بما تجود به الطبيعة، ويجعل غايته سدّ الحاجة دون تكلّف. لذلك يتجنّب المسكرات، ونادرًا ما يقبل على القهوة لندرتها وغلاء ثمنها آنذاك، بينما لا يردّ الشاي المحلّى—بلونه الذهبي ونكهته المعطّرة بالنعناع—وقد يُقبل عليه بكميات كبيرة.

وفي سائر شؤون العيش، يتجلّى ميله إلى التقشّف الاختياري؛ فعندما يرتاد مقاهي الشاي، ينشغل بالحديث الهادئ مع رفاقه أو ببعض الألعاب، دون أن يطيل الجلوس في سكونٍ وتأمّل. ويُعزى ذلك إلى نزعةٍ عملية وحيوية ذهنية تدفعه إلى الحركة والتفاعل أكثر من الاستغراق في السكون.

وهكذا، فإنّ خفّة روحه، واعتدال رغباته، ونشاطه الذهني، تُسهم جميعها في تشكيل قدرةٍ لافتة على تحمّل المشاقّ والتكيّف مع قسوة الظروف.

صحيح أنّ الكيف حاضر في منطقة الريف، ويُزرع أحيانًا في المواقع المحمية من الرياح، غير أنّ استعماله يظل محدودًا بين السكان المحليين. إذ لا يقبل عليه في الغالب إلا من قضى فترة طويلة خارج المنطقة، تمتد أحيانًا لسنوات.

فقط أولئك الذين أمضوا مواسم حصاد متكررة في الجزائر أو في مناطق أخرى من شمال إفريقيا، واضطروا أحيانًا لقضاء شهر رمضان بعيدًا عن قراهم، هم الذين يكتسبون عادة تدخين السجائر. ويصدق ذلك بشكل خاص على من أقاموا في الأراضي الخاضعة للنفوذ الفرنسي، حيث كان تعاطي الكيف محظورًا، الأمر الذي ساهم في انتشار السجائر كبديل لدى بعضهم.



السبسي

بوجه عام، يُستهلك الكيف، وهو نبات القنب المفروم ناعمًا، من خلال غليونات برؤوس فخارية صغيرة تُعرف بـ«السبسي»، تُثبَّت على قضيب طويل مجوف ورفيع. وغالبًا ما تُزيَّن هذه

الأنابيب بزخارف دقيقة وملوّنة، حيث تُحفر شقوق متقاطعة تُملأ بأصباغ حمراء وزرقاء، فتنتج عنها نقوش متناغمة ذات طابع فني لافت.

بعد ثلاث أو أربع سحبات، يُفرَّغ السبسي ثم يُعاد ملؤه، ليمرّ من يد إلى أخرى بين الجالسين؛ إذ يدخّنه كل فرد ثم يملؤه مجددًا من مخزونه الخاص ويمرّره إلى جاره، وهكذا تستمر الدورة بين المجموعة. ولا تظهر آثار تعاطي القنب فورًا، إلا أنّ المبتدئين قد يعانون من الغثيان والصداع.

أمّا المدمنون عليه، فيُعرفون محليًا بـ«الحشاشين»، ويمكن تمييزهم من بعيد بوجوههم الشاحبة، وعيونهم الغائرة، وخطواتهم المضطربة التي تكشف ما أثقل أرواحهم وأجسادهم.

غالبًا ما يُرى هؤلاء منزوين في زوايا المكان، غارقين في شرودٍ طويل، كأنهم منفصلون عمّا يدور حولهم. فمنهم من ينفجر ضاحكًا فجأةً بلا سببٍ ظاهر، ومنهم من يكتفي بابتسامةٍ هادئة شاردة. هذا يتوهّم أنّه صار صهر الحاكم، وذاك يخيّل إليه أنّه في عرض البحر، فيأخذ يؤدّي حركات سباحةٍ عبثية وهو ممدّد على سريره الخشبي خشية الغرق. أمّا ثالثهم، فيشرع في إصدار الأوامر لجيوشٍ متخيّلة من العبيد، يكلّفها بمهامّ عبثية يستحيل تنفيذها.

ويشرع رابعٌ في إقناع كل من يقترب منه بأنه في الحقيقة ساحرٌ عظيم، وأنه غدًا—حتماً غدًا—سيجعل الحصون الإسبانية الصخرية تغوص في البحر، أو سيقيم، بمعونة الأرواح التي يزعم تسخيرها، احتفالًا لا نظير له يُنجز في ليلة واحدة.

في الواقع، يبدو أن العامل الحاسم في الأثر الضار على الجسم البشري هو طول مدة التعاطي واستمراريته. ومع ذلك، فإن عادة استهلاك القنب تنتشر على نطاق واسع في منطقة الريف وسائر بلاد المغرب، بين مختلف الفئات العمرية، من الساحل الأطلسي إلى تخوم الصحراء الكبرى، بل وتمتد في بعض الروايات إلى مناطق برقة.

ولا تزال الجزائر، ولا سيما منطقة القبائل، تضمّ عددًا كبيرًا من مستهلكي القنب، رغم عقود من السياسات الفرنسية الرامية إلى الحدّ منه، وهو ما ينطبق بدرجات متفاوتة على تونس أيضًا. ويروي بعض القادمين من أعماق الصحراء، في أحاديث غير علنية، أن بعض المنتمين إلى الطريقة السنوسية كانوا ـــ بحسب هذه الشهادات ـــ يلجؤون إلى الحشيش قبل إلقاء مواعظ التوبة والوعيد أو القيام بطقوسهم في حالات من الانفعال الشديد.

في الجزائر، لا يُستعمل عادة مصطلح «الكيف»، غير أنّ الحشيش معروف على نطاق واسع، ويُعدّ الحصول عليه مهمة صعبة رغم الطلب، وذلك للأسباب المشار إليها سابقًا. كما يُعرف في تركيا باسم «إسرار»، غير أنّه يُستهلك هناك بطرق مختلفة، سواء ممزوجًا بالتبغ أو في هيئة مستحضرات قابلة للأكل.

ويلجأ بعض المتعاطين إلى خلط القنب بالتبغ بنسب متساوية، وهي طريقة يُقال إنها أشدّ تأثيرًا، وإن كانت أكثر ضررًا في الوقت نفسه. كما تُنسب إلى هذا التعاطي آثار تمتدّ إلى الذرية، حيث يُطلق

أحيانًا على الأطفال المصابين بالغدة الدرقية اسم «أولاد الكيف»، في إشارة إلى أنهم وُلدوا في سياق يرتبط بتأثير القنب.

ينمو هذا النبات في المرتفعات، سواء في المواقع المشمسة أو الظليلة، وغالبًا ما يُزرع إلى جانب التبغ. وبعد جني المحصول، يُجفف القنب ثم يُقطّع ناعماً بواسطة سكين على ألواح مخصّصة لهذا الغرض.

ويحظى قنب الريف بشعبية واسعة في مختلف أنحاء المغرب، شأنه شأن التبغ المزروع في هذه السلسلة الجبلية، والذي يقتصر إنتاجه عادة على المناطق الظليلة ولا يبلغ كميات كبيرة في الغالب.

كلما قلّ تدخين التبغ ازداد اللجوء إلى استنشاقه. ولا يصل إلى هذه المناطق إلا جزء يسير جدًا من هذه المادة من الغرب. يُحفظ التبغ في أنابيب من القصب مزوّدة بفتحة تُغلق بسدادة مثقوبة يمكن إحكامها بقطعة خشب رفيعة. ومن خلال هذه الفتحة الضيقة، يسكب الريفي كمية غير قليلة من التبغ على ظهر إبهامه، غالبًا في صفوف متجاورة، ليقوم باستنشاقه تباعًا وبصوت مسموع.

ولا تشارك النساء في هذه العادة، فلا هنّ يدخّنّ التبغ ولا يستنشقنه.



علبة تبغ النفحة مصنوعة من القصب ومزودة بقفل مزدوج.

تُعدّ القهوة مادة باهظة الثمن، ولذلك يبقى الشاي المشروب الأكثر انتشارًا بين الجميع. يُغلى الشاي الأخضر، ذي النكهة القوية، حتى يكتسب لونًا ذهبيًا لامعًا ثم يُحلّى بسخاء، على عادة أهل المغرب، ويُنكَّه بالنعناع، وأحيانًا بشيءٍ من التوابل.

وعوض الصينية المعتادة في المدن المغربية، يُستعمل لوح دائري مرتفع نسبيًا، غالبًا بعلوّ طاولة صغيرة، ذو سطح محاط بإطار بسيط. غير أنّ هذا الشكل من التقديم يقتصر على استقبال الضيوف والمناسبات الخاصة.

أما في الحياة اليومية، فلا تعرف الأسرة الريفية مثل هذا الترف؛ إذ يُقدَّم الشاي في أكواب زجاجية صغيرة وصلبة، متينة إلى درجة يمكن معها استخدامها أحيانًا لتكسير قوالب السكر. وفي المقابل، يستخدم الوجهاء أو ممثلو العشائر أكوابًا صغيرة من الفخار، تُجلب من تطوان، ويصل ثمنها أحيانًا إلى صُلْدِيَيْن أو أكثر.

لا يعرف ابن الجبل نبيذ التمر ولا غيره من المسكرات. كما أنه قلّما يجالس مدمني الكحول أو السكارى، حتى خارج جباله، حيث قد تتوافر أمثلة على ذلك في أماكن أخرى. ويُقدَّم سكان جبال الريف نموذجًا للاعتدال والصبر، ويُبدون ازدراءً واضحًا لكل من يُقبل على المشروبات الكحولية.

ولهذا يميلون إلى النظر بعين الانتقاد إلى بعض المغاربة في المدن ممن يعيشون حياة مترفة، كما لا يخفون قدرًا من التحفظ تجاه الإسبان الذين لا يتحلّون بالاعتدال نفسه. ولم تتح لي فرصة ملاحظة ألعاب الطاولة إلا في تطوان، في حين لم أرها في المناطق الجبلية.

في المقابل، يفضّل الرجال قضاء أمسياتهم حول المواقد المشتعلة، يتبادلون حكايات الصيد وقطاع الطرق، أو يعزفون بنبرة حزينة على آلة الكمبري ذات الوترين.

هذا الكمبري ذو الوترين، الذي يُصنع صندوقه الصوتي أحيانًا من درع ظهر السلحفاة الذي يغطّى بالجلد، يكون في الغالب مصنوعًا بالكامل من الخشب، ويبلغ طوله نحو خمسين سنتيمترًا. ويشتمل على جسر خشبي ومفاتيح مماثلة، وعنق أملس مستدير غير مجوّف دائمًا، بينما تُصنع أوتاره من أمعاء الأغنام أو الماعز.

ومثل الماندولين، التي تشترك معه في بعض السمات الشكلية، يُعزف عليه بريشة من الخشب أو العظم، أو أحيانًا بعظمة سمكة أو غصن جاف من ورق الدوم.

ويعرف الريفي أيضًا المزمار المنتشر في معظم بلاد المغرب، ذو الفوهة والأنبوبين المفلطحين، كما يعرف الطبل الوعائي واسع الانتشار. وتتخذ هذه الطبلة أشكالًا مختلفة؛ فقد تكون إناءً فخاريًا أو قشرة قرع، ويُشدّ على وجهها العلوي المفتوح جلد الماعز. وينقر عليها بأصابع اليد اليمنى الأربعة، بينما يضغط الإبهام على الحافة لإنتاج نغمات أخفت، في حين تُمسك باليد اليسرى. وغالبًا ما لا تخلو الفرقة الموسيقية من طبلة أكبر حجمًا، يبلغ ارتفاعها نحو أربعين سنتيمترًا، مغطاة بالجلد من الجانبين، وتُقرع بعصي خشبية صغيرة معقوفة بأشكال مختلفة وبإيقاعات متزامنة ومتداخلة.

أما المزمار (الغيطة)، الشائع في بقية أنحاء المغرب، فيكاد يكون نادر الوجود هنا، ويزداد ندرةً منه الكمبري ذو الأوتار الثلاثة.

غير أنّ هذه الأوركسترا البسيطة قلّما تُرضي الريفي، فيعمد الحضور إلى إغنائها بإيقاعات إضافية؛ إذ يُقرَع على حدوة

حصان قديمة أو على قدر معدني مقلوب باستخدام مسمارين أو خرطوشة، في إيقاع يتسارع تدريجيًا. ويواكب آخرون هذا الإيقاع بالتصفيق، حيث يمدّون أيديهم قليلًا مع كل ضربة ثم يسحبونها في تناغم متكرر. وفي حالات نادرة جدًا، قد ينضم إلى هذا المشهد عازف كمان قادم من المدينة.

يضع العازف آلته الأوروبية أمامه على الأرض، ثم يعزف، بجهدٍ شاق، ألحانًا إنجليزية وفرنسية وألمانية كان قد التقطها في طنجة من أسطوانات الغراموفون. فتتعالى في آنٍ واحد مقاطع من «موجات الدانوب» و«المارسييز» و«الحراسة على نهر الراين»، من غير أن يدرك العازف من دلالاتها شيئًا، سوى أنها أغانٍ تخصّ المسيحيين.

ويحرص بعض أثرياء الريف على استقدام عازفي كمان من تطوان، مقابل هدايا ثمينة، لإحياء المناسبات العائلية الكبرى. غير أن هؤلاء العازفون غالبًا ما يترددون في مغادرة أسوار المدينة الآمنة نحو مناطق الريف التي تُعد أقل استقرارًا. وفي معظم الحالات، يقتصر الاحتفال على أبناء المنطقة أنفسهم، حيث تُقام السهرات في المناسبات العائلية والتجمعات القبلية والأسواق الأسبوعية والأعياد الدينية، إضافة إلى كل فضاء اجتماعي يسمح بهذا النوع من اللقاءات.

من بين العادات المميزة في منطقة الريف رقصةٌ رجالية ذات طابع احتفالي ساخر، تُؤدّى في أجواء من المرح الجماعي.

تصاحبها أناشيد وإيقاعات تبدأ ببطء على آلات موسيقية تقليدية، ثم تتسارع تدريجيًا مع تصاعد الحماس.

وفي ذروة الأداء، ينهض أحد المشاركين — بعد أن ينزع ثوبه العلوي — ليقفز بين الحضور متقمّصًا حركاتٍ تستحضر، في هيئتها، رقصةَ البطن النسائية المعروفة في بعض مناطق المغرب أو لدى جماعاتٍ من أولاد نايل في الجزائر. ويبلغ هذا التقمّص ذروته حين يقلّد الراقص المرأة في حركاتها وإيحاءاتها، مستعينًا بأوشحةٍ يلوّح بها في حركاتٍ غزلية، ويضعها أحيانًا تحت ملابسه ليمنح جسده ملامحَ أنثويةً موهومة. ثم يركع، فيُلصق على جبينه عناصر رمزية على نحوٍ يذكّر بما تؤدّيه بعض الراقصات في فاس وتطوان، مع استبدال العملات المعدنية بالحجارة أو الرمل.

وخلال ذلك، تصدر عنه تنهّدات وحركات مبالغ فيها توحي بحالة من الافتتان، قبل أن يكشف في النهاية، بصورة مقصودة وعلنية، عن هويته الذكورية وسط تفاعل جماعي يجمع بين الضحك والتصفيق. ثم ينسحب مبتسمًا، وقد بدا عليه التعب والتعرّق، ليحلّ مشاركٌ آخر مكانه ويعيد المشهد نفسه.

ولا تشارك النساء في هذا النوع من الرقص، كما لا تُستعمل فيه الصنوج التي ترتبط عادةً بالرقصات النسائية في مناطق أخرى. ويبدو أن هذا الأداء، وفق المعطيات المتوفّرة، يقتصر على بعض البيئات الريفية في شمال المغرب، حيث يؤدّيه الرجال الريفيون حصريًا ضمن فضاءات احتفالية محلية متنوّعة، مع ندرة ظهوره خارج هذه الأوساط.

وكما سبق أن أشرت، لم ألاحظ وجود ألعاب الطاولة في مختلف مناطق جبال الريف، ولا حتى في مقاهي الشاي في تطوان، رغم كونها فضاءات يتردد عليها أبناء المنطقة. ويبدو أن سكان الجبال لا يميلون إلى الهدوء أو طول الصبر الذي تتطلبه مثل هذه الألعاب.

في المقابل، يفضّل الصبية ممارسة المصارعة الحرة، بينما ينشغل الرعاة برمي حجارةٍ بحجم حبّة الجوز بواسطة مقلاع مصنوع من الألياف النباتية نحو أهدافٍ بعيدة نسبيًا، في ما يشبه تدريبًا على الدقّة وقوّة الرمي. وقد صادفتُ مرّة، من بعيد، مشهدًا لرقصٍ دائري تؤدّيه فتيات مراهقات بملابس احتفالية[15]، يُرجَّح أنه كان جزءًا من مناسبةٍ عائلية أو طقسٍ قبلي، غير أنّني لم أتمكّن من الاقتراب أو متابعة تفاصيله.

وعلى ساحل بقوية، شاهدتُ في مناسبتين سباقًا في السباحة بين رجالٍ بالغين من أبناء القبيلة. ولا أستطيع أن أذكر ألعابًا أخرى ذات شأن، باستثناء واحدة تبرز على نحوٍ خاص لما تنطوي عليه من دلالةٍ مرتبطة بالشجاعة القتالية من منظور بعض الجماعات الأمازيغية في شمال المغرب، وهي ما يُعرف بـ"لعبة البارود."

في الواقع، يتعلق الأمر باسم لعبة فروسية تقليدية مميزة، يمارسها سكان سفوح جبال الأطلس وفرسان السلطان، حيث تُجرى عروض قتالية صورية تتخللها وفرة في إطلاق البارود. وتتمثل هذه الممارسة في اندفاع الفرسان بسرعة على مسار محدد، ثم

15 ربما يتعلق الأمر برقصة "أرايس"

إطلاق النار عند بلوغ الهدف من بنادق تُحمَّل بكميات كبيرة من البارود الكثيف الدخان، قبل أن ينعطفوا للعودة في اتجاه معاكس.

أما رقصة البارود في منطقة الريف، التي تحمل الاسم ذاته، فهي تقليد مختلف في شكله ومضمونه.

تتنوّع هذه اللعبة في أسلوب أدائها ومحتواها تبعًا لتنوّع القبائل. ففي بعض القبائل، تقتضي العادة أن يدور اللاعبون حول مساحةٍ صغيرة وسط صيحاتٍ عالية، ثم يندفعون في وقتٍ واحد نحو الوسط لإطلاق نيران بنادقهم الطويلة باتجاه الأرض، قبل أن يعودوا إلى الدائرة لإعادة تجهيز أسلحتهم. أمّا في قبائل أخرى، فيصطفّ الرجال بأعدادٍ متفاوتة في صفّين، مشكّلين سلاسل يتمّ اختراقها بإيقاعٍ منتظم من قبل من يقفون في الجهة المقابلة.

بعد تردّدٍ متكرّر، تُطلَق النار في لحظةٍ مشحونة، بينما يقف الطرفان في مواجهةٍ متوتّرة. غير أنّ راقصًا بارعًا ما يلبث أن يشقّ طريقه فجأةً إلى الحشد، متحدّيًا الجميع بحركاته. فيقبل أحدهم التحدّي، فينخرط الاثنان في منافسةٍ استعراضية، يسعى كلٌّ منهما فيها إلى التفوّق على الآخر بقفزاتٍ مبهرة وإيقاعٍ سريع.

وهم يحملون بنادقهم المحشوة، يضربون الأرض براحة الأيدي، ويقفزون ويدورون بخفّةٍ حول بعضهم البعض، متباهين بنسبهم النبيل أو بشجاعة عائلاتهم، إلى أن يطلقوا، وهم في الهواء، صرخاتٍ مدوّية تتزامن مع انفجار بنادقهم القديمة أمام أقدام خصومهم. عندها يتصاعد الغبار والحصى، ويغمر دخان البارود الوجوه التي يعلوها الفرح والحماسة.

ويلٌ لمن تنطلق بندقيته ذات الأنبوب الرفيع قبل الأوان؛ إذ يغدو، لفترةٍ طويلة، موضوعًا لسخرية الكبار والصغار.

وتُقام هذه اللعبة في مختلف المناسبات السعيدة والاحتفالات؛ ففي حفلات الزفاف يقدّم والد العروس البارود اللازم، أمّا في الأعياد الدينية فتتولى الجماعة توفيره وتكفّل نفقاته.

تختفي الشمس خلف الجبال المكسوّة بالغيوم، وتشتعل النيران في الساحات المفتوحة للقرية، تحت ظلال أشجار التين ذات الأغصان المتشابكة، وأشجار الزيتون المعمرة. يدفع أحد المضيفين حزم الحطب المربوطة واحدة تلو الأخرى إلى الجمر المتقد، إذ إن الخشب نادر في هذه المنطقة، أو يستعين بأغصانٍ يابسة جمعها الأطفال خلال النهار.

في زاويةٍ قريبة، ينهمك أحدهم في تقطيع شتلات القنب الهندي الجافة لشحن السبسي، بينما يشقّ صفيرٌ طويلٌ السكون بين الفينة والأخرى، ويقوم الرجال بنفخ الخشب المتوهّج بالمنافخ استعدادًا لتحضير الشاي.

أمّا الآخرون، فيروون قصص الصيد والسرقة التي تتداولها الألسنة منذ زمن، عن علي البوفراحي صاحب الأصابع السبعة، وعن الريسولي وبو حمارة، وعن دهاء الثعلب الذي لا ينضب، وغباء الضبع، وقوّة الخنازير البريّة حين تثور.

وفيما ينشغل الجميع بأحاديثهم، يبدأ أحد العازفين، بصوتٍ خافت، في أداء أغاني حبٍّ قديمة أو أناشيد الحرية العائدة إلى زمنٍ كانت

فيه العلاقات بين الأمازيغ والعرب مثقلةً بصراعاتٍ دامية، تتداخل مع أنغامٍ حزينة تصدر عن آلة الكمبري.

إنها أغاني حبٍّ كئيبة، وأهازيج قتالٍ جامحة، وأمثالٌ ذات عمقٍ لافت، يمكن للمرء أن ينصت إليها كما لو كانت نوافذ مفتوحة على عالمٍ داخليٍّ كثيف. وتعكس هذه الأغاني ملامح المجتمع، والأدوار التي ينهض بها أبطاله، وهو ما يُستدعى غالبًا في توصيف مستواه الروحي وثقافته الرمزية.

ليست هذه الأغاني، في طابعها، حزينة ولا آسرة على نحو الأغاني الشعبية السلافية التي تمزج الحكمة اليومية بشيءٍ من السذاجة العذبة، بل يصوّر الشعر الأمازيغي المحليين أقوياء، متماسكين، ومشدودين إلى قيم التضامن والصراع معًا. وتملأ الأمسيات رغبةً متقدة في الحرية، ودعواتٍ إلى القتال، بل وأكثر من ذلك، قصص حبٍّ وتودّد، حين يرفع الرجال البارعون في فن الخطابة أصواتهم في فضاءات السمر.

ولا يُستغرب أيضًا أن تُسمع أغانٍ حديثة التأليف، مثل تلك التي تتناول المواجهات بين عبد الحفيظ وعبد العزيز، السلطانين العلويين، أو التي تصف قصف مدينة الدار البيضاء. وبالقدر نفسه، تتردد أغانٍ، تارةً صاخبة وتارةً حزينة، عن معارك الريف الأخيرة، حيث يُشاد بمساندة الجيران بالسلاح، وبشجاعة النساء في أوقات الشدّة.

وتحيط بهذا العالم شاعريةٌ خاصة، تكاد تكون غامضة، تلفّ الرجل الجبلي الصارم؛ ذلك الذي يستخفّ بالحياة البشرية في

واقعه اليومي، لكنه في أغنيته يغدو رقيقًا، مرهف الإحساس، ومشحونًا بالعاطفة. قاسٍ مع الرجل، رقيقٌ مع المرأة ـــ وهي سمةٌ أساسية في تكوينه، كما تتجلى في الأغاني والأمثال، سواء في الدارجة الجبلية أو في الأمازيغية الريفية.

فيما يلي بعض عينات الأغاني. وهي موجودة مع العديد من الأغاني الأخرى في أرشيفات الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم في فيينا، التي كلفتني بجمعها وتسجيلها على أقراص شمعية، وقد تم تدوينها باللغة الأصلية (الدارجة المغربية) وبخط أدبي. وقد تم توثيق النطق الدقيق بالحروف اللاتينية، بالإضافة إلى ترجمة دقيقة قدر الإمكان من حيث الكلمات والمعنى:

كتبتُ إليكم رسالةً، حملتُها نبضَ أيّامي،
وأرسلتُها لتقصَّ عليكم بعض أخباري.
ومنذُ رحيلها، وأنا على عتبةِ الانتظار،
أعدُّ اللحظاتِ شوقًا لردّكم.

فلا تنسوها...
فهي البلسمُ لقلبِ صديقٍ
يعيشُ على رجاءِ كلماتكم.



أثناء وجبة الغداء. حميد الفقيه والكاتب أمام غرفة الضيوف



التصميم الداخلي للبيت الريفي



أدوات الزراعة في منطقة الريف: النير والمحراث وحزمة المحراث الأمامية.



روضة الولي الصالح

أودّ أن أغنّي لكم طويلًا... طويلًا،
حتى تمتلئ الليالي بصوتي،
وإذا ما خَبَتْ أنغامي،
فلتكن بقاياها تذكّركم بي،
وبتلك الساعة التي عشتُها قربكم.

سلامٌ عليكم،
غزيرٌ كريحٍ تعبرُ فوق الأزهار،
تحمل العطرَ وتترك الحنين.

عند شروق الشمس أذكركم،
ومع الغروب
تنساب الدموع على خدي...
يا لمرارة البعد!

لكنّ أمر الله ماضٍ،
يقسّم الأقدار بين عباده،
ويجعل في الفراق
سرًّا لا يُدرَك.

تحيّةٌ تفوحُ كالمسك،
يُهديها إليكم قلبي،
وكلّما ابتعدتَ... ازدادت عبيرًا واشتياقًا.

وإن غبتم عن عينيّ،
فلي لسانٌ لا يملّ،
يرفع لكّم الدعاء،
ويستودعكم الخير عند الله.

فإن حال البُعد بيني وبين لقائكم،
ولم تُسعفني الخطى لأحيّيكّم،
أرسلتُ إليكّم خواطري،
كلماتٍ معطّرةً تسافر مع الرُّسُل.

تأمّل الغيوم في السماء...
فالمحبّ، إن صدق، يليق به البكاء،
وخاصةً أولئك العشّاق
الذين لم ينصفهم الزمان.

لجأتُ إلى اللهِ،
أشكو إليه وجعَ قلبي،
كي لا يستفحل الحزنُ في صدري.

وأعاهدُ نفسي ألا أعودَ
لما اقترفتُه في غفلةٍ من روحي،
حين خانني ضعفي.

كنتُ يومًا حرًّا،
أمشي مرفوعَ الرأس،

فإذا بي اليوم
أسيرُ ذلٍّ وانكسار.

(رد شاب على نصيحة صديق له بأن ينسى حبيبته المفقودة بالبحث عن أخرى.)

يا قلبي، كم عرفتَ الآن،
كنهرٍ يجري فوق قاعٍ من صخر،
تختزن في عمقك الصلابةَ والأسرار.

كثيرون يضمرون لي الشرّ،
لكنني، رغم العتمة،
فضّةٌ تُستخرج من جوف المناجم،
يزيدها الضغطُ صفاءً ولمعانًا.

ولا تقلّ الأمثالُ شأناً في إثارتها للاهتمام؛ بل تحمل في طيّاتها حكمةً مكثّفة وتجارب متوارثة، وفيما يلي نماذج من أكثرها شيوعًا وتداولًا:

كنْ إلى جانبِ أخيك دائمًا، وإن زلّتْ به الخطى.

من لا صديقَ له، كالبندقيةِ بلا ذخيرة.

كلُّ ورقةٍ لا بدّ أن تهوي إلى الأرض، مهما علا الشجر.

من طلبَ فوق ما يشتهي، فليتهيّأ لما يكره.

إذا خدشتَ قلبَ صديق، فقد بذرتَ بذورَ العداوة.

الشرُّ كامنٌ لا يموت، إنما يغفو... فويلٌ لمن يوقظه.

دعوا ما مضى يمضي، وسلوا الله أن يهدي الآتي إلى الخير.

كم من سهمٍ أصاب الهدف، ولم يُحسن راميه الرمي.

قبل أن تلدَ المرأةُ، تكونُ حبيبةَ القلب،
فإذا أنجبتْ، صارتْ أمًّا يعلو قدرُها.

من يُشعل خصامًا مع المخزن،
كأنما يسفكُ دمَه بيديه.

قد يغلبُ رجلٌ واحدٌ أربعين شجاعًا،
إذا صدق العزمُ وقوي القلب.

كُلِ البرتقالَ حين يرخص،
فالأيامُ لا تدوم على حال.

تُسكَتُ الكلابُ بالعظام،
وأهلُ الفتنة لا يُردعهم إلا الحزم.

إذا علا الكبارُ تواضعوا،
وإذا صعد الصغارُ تكبّروا؛
فدعِ الكلابَ في أوحالها،
ودعِ النسرَ يحلّق في السماء.

اتركِ الكنوزَ في باطن الأرض،
فإن إخراجها قد يجلبُ السخطَ إلى الدار.

لم أستخدم جهاز التسجيل الصوتي هذا إلا في مليلية وفي منزلي في تطوان، ولم آخذه معي أبدًا إلى الجبال. لكنني كنت أحمل معي مسجلاً صوتياً عادياً. وما زلت أتذكر بسرور حشود المستمعين الذين كانوا يتجمعون ويطلبون مني مراراً وتكراراً أن أُسْمِعَهم أغنية «فراج».

يا لها من ضجّةٍ أثارتها تلك المرّة التي ضاعت فيها العلبة الصغيرة التي تحتوي على الإبر النظيفة، حين أعلنتُ في لحظة عبثٍ أن الموسيقى قد انتهت إلى الأبد. فما كان من سكان القرية، كبارًا وصغارًا، إلا أن نهضوا جميعًا للبحث عنها، وكأن الأمر يتعلق بسرّ الحياة ذاته. وجاء رجالٌ من أماكن بعيدة، يعبرون الجبال، لمجرّد رؤيتي وسماع الخبر.

ونُظّمت عروضٌ إضافية للنساء، حيث كانت تبدو على الوجوه حالاتٌ متناقضة: سعادةٌ هادئة، وتوترٌ شديد، ورعبٌ خفيّ، ودهشةٌ صامتة، كلما بدأت الآلة الغريبة "تغنّي" فجأةً بصوتٍ عالٍ، أو أطلقت تحيّتها المعهودة في الهواء: "السلام عليكم"!...

حتى إنّ إحدى النساء جاءت بوعاءٍ من الحليب، مشيرةً ببراءة إلى أن يُقدَّم للطفل المختبئ داخل الآلة. وتوالى الزوّار حاملين الفاكهة والدجاج وسلال البيض، كأنهم في وليمةٍ احتفالية غير معلنة. بل إنّ فرسانًا قدموا ذات يومٍ لاصطحاب "المسيحي" وصندوقه الناطق إلى مقام وليٍّ صالحٍ عظيم، من أقارب الريسولي.

كل ذلك كان بفضل تلك الآلة البريئة، التي تحوّلت، على نحوٍ ساخر، إلى مصدر دهشةٍ لا تنتهي، في حين أنها أصبحت منذ زمنٍ بعيد مجرد شيءٍ مألوفٍ ومملّ لدى الأوروبيين.

تنتشر ظاهرة الثأر في منطقة الريف، ويضطلع مجلس السوق بدورٍ أساسي في تسوية النزاعات الناشئة عنها. فعند وقوع حادثٍ دموي، ترسل عائلة الجاني اثنين أو ثلاثة من أكابرها (إمغارن)، ممن عُرفوا بالحكمة والتجربة، إلى السوق الأسبوعي التابع للقبيلة التي ينتمي إليها القتيل، لفتح باب التفاوض وفق أعراف معروفة.

يحظى هؤلاء المفاوضون بنوعٍ من الحصانة العرفية، ويحرصون على الحضور دون سلاح، وغالبًا ما ترافقهم نساء، في إشارةٍ رمزية إلى السلم وحسن النية. وعلى خلاف غيرها من المفاوضات القبلية التي قد تتّسم بالصخب والتوتر، تجري هذه اللقاءات عادةً في أجواءٍ أكثر هدوءً واتزانًا.

وإذا ما أُحرز اتفاق، وهو أمرٌ نادر الحدوث في الجلسة الأولى، يدفع الجاني تعويضًا يتراوح بين 200 و300 تالر نقدًا، بحسب الوضع المادي للعائلة وظروف القضية. وفي إحدى الحالات التي وقفتُ عليها، لم يقتصر التعويض على المبلغ المالي، بل شمل أيضًا ضمان خُمس محصول الحصاد التالي من حقول الجاني لفائدة أرملة المتوفى. وفي الآونة الأخيرة، أصبح من الشائع أن يُطلب ضمن التعويض تسليم بندقيتين إلى أربع بنادق حديثة من طراز "ماوزر"، مرفقة بذخيرتها، على ألا تقل عن مائة طلقة لكل

بندقية، وهو عرفٌ يذكّر بما كان سائدًا منذ عقود لدى بعض القبائل البدوية في الجزائر والمشرق.

ولا شك أن مثل هذه التسويات تتطلب مفاوضات طويلة ومعقّدة؛ غير أنه، إذا تعلق الأمر بقتلٍ غير متعمّد لا بجريمة غدرٍ متعمّدة، فإن إمكانية الوصول إلى اتفاق تظل واردة في الغالب، شريطة أن يغادر الجاني المنطقة فورًا في البداية، وأن يظل متواريًا إلى أن تُستكمل إجراءات الصلح وتُحسم القضية.

قد تُجسّد الحالة التالية هذه الأعراف بوضوح: فقد حصلت قافلة من رجال غمارة على إذنٍ بالمرور الآمن عبر أراضي قبيلة الأخماس، غير أنها تعرّضت، رغم ذلك، لهجومٍ من بعض أفراد القبيلة نفسها، على الرغم من مرافقة دليلين لها. وردّ الغماريون بإطلاق النار، فسقط قتيلين من الأخماس، قبل أن يتدخل رجال هذه القبيلة الذين هرعوا إلى المكان لوقف مزيد من سفك الدماء.

وفي أعقاب ذلك، انطلقت مفاوضات مطوّلة، اتّسع نطاقها لتشمل حكماء من فرق مجاورة، وانتهت—بعد أخذٍ ورد—إلى قرارٍ يقضي بعدم أحقية عائلات القتيلين في المطالبة بالثأر، على اعتبار أن المهاجمين كانوا، ولو عن غير قصد، قد خالفوا الأعراف والعوائد السائدة.

ولم يكن الوصول إلى هذا الحكم بالأمر الهيّن؛ إذ استغرق شهورًا طويلة من النقاش والمداولات. ومع ذلك، ظلّ الناس، حتى اليوم، يتناقلون في سهراتهم حول مواقد الحراسة قصة رجلين أُريق دمهما دون أن يُؤخذ بثأرهما، في حين بقي آباؤهما وإخوتهما

يحتفظون بمكانة معتبرة، لا في مجالس الجماعة فحسب، بل على مستوى القبيلة أيضًا.

ومن اللافت أيضًا أن الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن أو أزواجهن الذين ماتوا ميتة عنيفة، كنّ يوبّخن أبناءهن المراهقين على ما يعدنه جبنًا، ويمتنعن عن مخاطبتهم بلطف إلى أن يأتي اليوم الذي يحمل فيه الفتى السلاح، وينطق "بسم الله"، ثم يغادر في صمت. وإذا كانت هؤلاء النساء قد قلن يومًا إن الله حرمهن من الابن، فإنهن في تلك اللحظة بالذات يحمدنه، ويقلن: "اليوم فقط وُلد هذا الصبي."

إذا عُثر على أحد أبناء القبيلة مقتولًا، يهبّ إخوته وأقاربه للبحث عن الجاني في كل اتجاه. ويُستجوب رجال العائلة التي وقعت الجريمة في أراضيها، ويُطلب منهم "أداء اليمين"، كما يُستدعى لذلك أيضًا رجال القرى المجاورة. فإذا امتنع أحدهم عن القسم، عُدّ ذلك قرينةً على تورطه، أو تورط ذويه، فتُفعَّل حينئذٍ أعراف الثأر.

وينطبق هذا المنطق كذلك على الحوادث البحرية؛ إذ يُلزم رفاق الضحية بأن يقسموا أنهم بذلوا قصارى جهدهم لإنقاذه. ومن يتخلّف عن ذلك، يُتّهم بالتسبّب في موته المباشر، ويغدو منبوذًا، بل يجد صعوبة في العثور على رفاق لرحلات لاحقة.

وفي هذا السياق، تبرز ملامح من "ميثاق شرف" قديم، يضفي على هذه الأعراف طابعًا خاصًا، وإن بدا قاسيًا. ومن أكثر ما يثير الدهشة أن واجب الثأر قد يُؤدّى أحيانًا على يد غرباء، أي أشخاص

لا صلة لهم مباشرة بالقضية، مقابل أجر. وإذا لم تُحسم القضية، قد يمتدّ الثأر عبر أجيال، أحيانًا حتى الجيل الخامس.

وهكذا، قد تتحوّل رصاصة واحدة—ربما طائشة—إلى شرارة لسلسلة طويلة من المواجهات، غالبًا ما تكون دامية على نحوٍ مأساوي، تاركةً وراءها آثارًا عميقة في النسيج الاجتماعي.

لا داعي لإضاعة الكثير من الوقت في الحديث عن الدين؛ فالريفي مسلم، وينتمي إلى المذهب المالكي، وهذا يكفي. ومع ذلك، فليست كل القبائل متدينة بنفس الدرجة، بل إن بعضها لا يلتزم إلا بشكل ضعيف جدًا بتعاليم النبي! اسأل أحد أفراد قبيلة بني زروال أو الأخماس: من كان محمد؟ قد يكون جوابه: " إنه اسم شيخ القرية المجاورة!"، لكن سليل قريش الكبير، مؤسس دين الإسلام، هو آخر من يخطر على بال الريفي! لا سيما في تلك القبائل التي تسكن قلب جبالة، فقد النبي الكثير من هيبته، أو بالأحرى لم يحظى بها أبداً! إلى الجنوب والجنوب الغربي من جبال بني حسان وحتى أبواب فاس، يُكرم المولى عبد السلام بن مشيش، ولا يُكرم أول داعية ومبشر بدين الإله الواحد! وهذا دليل على مدى ضعف تأثير العرب الغزاة وضعف بصمتهم في جبال الريف الشامخة.

لكل مجموعة قروية، ولكل فرع من فروع القبيلة، فقيه مُختار. ولهذا الفقيه تأثير ملموس داخل مختلف التجمعات، سواء في مجالس العائلات أو في اجتماعات القبيلة، وإن كانت كلمته لا ترقى إلى مستوى القرار الحاسم.

ومع ذلك، نادراً ما يبرز أفراد يتجاوز تأثيرهم حدود هذا الإطار التقليدي، ليصبحوا فاعلين أساسيين في توجيه شؤون القبيلة، مثل القائد الحاج عبد السلام، زعيم فرقة مولاي كركر المنتمية إلى قبيلة المطالسة، الذي شكّل دعامة قوية لأهل قلعية في مواجهة الهجمات خلال المعارك الأخيرة ضد الإسبان. وكذلك الأمر بالنسبة لرجل ضخم الجثة، ذي لحية بيضاء، وأب لأحد عشر ابنا، والذي أصبح الزعيم الفعلي لمنطقتي للتسول والبرانس; الشريف حميدو الدرقاوي، وقد عُدّ من أبرز خصوم بوحمارة المطالب بالعرش.

ومثل هذه الشخصيات الاستثنائية لا تظهر بكثرة في هذه المناطق، إذ إن الريفي بطبعه شديد الاعتزاز بنفسه، وتغلب عليه روح الاستقلال الفردي.

بشكل عام، تتمثل المهام الرئيسية للفقيه في قراءة الرسائل وكتابتها، وتعليم الأطفال القرآن، والأذان للصلاة، وإمامة المصلين في العبادات اليومية. وتجدر الإشارة إلى أنه، بخلاف ما هو معمول به لدى بعض القبائل الأمازيغية في المغرب، فإن لقب «فقيه» في الريف يُطلق عادة على الأكبر سناً، في حين يُشار إلى الأصغر سناً بلقب "طالب."

وعلى عكس بعض المناطق الأمازيغية الأخرى، مثل تافيلالت الغنية بالواحات أو مناطق الجنوب المغربي، فإن المرجعية الدينية في الريف لم تكن في حد ذاتها دافعاً لحركات بطولية أو توسعية، بل ارتبطت أساساً بالدفاع عن الحرية المحلية التي كانت مهددة

في فترات متكررة. وفي هذا السياق، فإن مفهوم «الجهاد»، الذي كثيراً ما أُسيء توظيفه في الخطاب الاستعماري الفرنسي والإسباني، كان يُفهم في الريف بمعناه الأصلي المرتبط بالمقاومة والدفاع، وليس بوصفه صراعاً دينياً ضد معتقدات أخرى.

كما أن المواجهات التي دارت حول مليلية سنة 1896[16]، والتي اندلعت في ظاهرها لأسباب ذات طابع ديني، يمكن فهمها في جوهرها ضمن سياق سياسي أوسع. فتذكر بعض الروايات أن جنوداً إسباناً أقدموا، بدافع الاستفزاز أو التهور، على انتهاك حرمة ضريح الولي الصالح سيدي ورياش. وبدلاً من معالجة الحادثة عبر المسار القضائي أو الانضباطي، لجأت القيادة العسكرية للحامية إلى استخدام القوة المسلحة ضد السكان الذين سعوا إلى حماية مقدساتهم من هذا الاعتداء.

وقد أسفرت هذه المواجهات عن خسائر جسيمة، كانت ثقيلة أيضاً على الجانب الإسباني. ولاحقاً، وبفعل ضغوط دبلوماسية، تمكنت حكومة مدريد من دفع السلطان، الذي لم يكن طرفاً مباشراً في الأحداث، إلى أداء تعويض مالي قُدّر بنحو 4 ملايين ريال.

لكن الريفي حرص على الفور على حرمان سكان مليلية من الحرية التي حصلوا عليها بصعوبة آنذاك، وهي القدرة على

---

16 يقصد بـ "حرب مليلية" (أو حرب مارغايو) عادةً الصراع الكبير الذي وقع في أواخر عام 1893 وامتد حتى أوائل 1894 بين إسبانيا وقبائل الريف شمال المغرب. وقد تصاعدت حدة هذه الاشتباكات مجدداً في أواسط تسعينيات القرن التاسع عشر (1895-1896) بسبب انتهاك إسبانيا للسيادة المغربية وتوسيع حدود مليلية.

الخروج بضع كيلومترات خارج أسوار المدينة المحصنة دون أن يصبحوا أهدافاً سهلة لقناصة الريف.

يمر عيد المولد النبوي في الجبال مرور الكرام، تمامًا مثل عاشوراء وغيره من الأعياد الدينية. حتى شهر رمضان يُحتفل به بدرجات متفاوتة من الالتزام. فهناك قبائل لا تكترث به على الإطلاق — حيث يعانون طوال نصف فصل الشتاء بسبب الفقر المدقع —، في حين تلتزم قبائل أخرى، مثل آيث ورياغر وغمارة وتمسمان، بصيام الشهر بشكل صارم. وهناك ترى الرجال الملتحين، وهم ينتظرون في المساء وأعواد الثقاب جاهزة في أيديهم، حتى تلمع أول نجمة في السماء، ليشعلوا السبسي المحبوب. أو كيف يجلس حشد من الرجال حول وعاء الكسكس الكبير ويستنشقون الرائحة بشغف؛ في انتظار الإشارة التي تسمح لهم، حسب تعاليم الإسلام الصارمة، بالانقضاض على محتوى الوعاء. لكن لا تتصرف كل القبائل بالتقوى نفسها. فكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك في مغرب مليء بالتناقضات؟

فبينما يهمس البعض بـ«بسم الله» بخشوع قبل أن يضعوا شيئًا في أفواههم، أو يشرعوا في السير، أو يبرموا صفقة، أو يقتربوا من زوجاتهم، لا يكترث آخرون لا بالله ولا برسوله ولا بآداب الإخوة.

كما هو الحال في مختلف المناطق الشاسعة التي ينتشر فيها الإسلام، يتنقل عدد من الدعاة والمتصوفة بين ربوع المغرب، بما في ذلك منطقة الريف، حاملين معهم أشكالاً متعددة من الخطاب الديني. غير أن استقبالهم في هذه الجبال يختلف عما هو عليه في

مناطق أخرى؛ فالأرض هناك لا تبدو دائماً مهيأة لـ"أولياء الله" بالمعنى الذي يفترضه بعضهم.

فعلى الرغم من وجود فئة من الأشخاص يُفترض فيهم التدين يتنقلون بين القبائل، فإنهم لا يحظون دائماً بالاحترام نفسه الذي يُمنح لهم في مناطق أخرى. إذ إن الإنسان الريفي، المرتبط بالعمل الشاق والمعاش اليومي، لا يُبدي ميلاً خاصاً تجاه من يعيش عالة على الآخرين. وليس من النادر أن يُقابل بعض المرابطين بنوع من الرفض أو حتى العنف، رغم نسبهم أو المكانة الروحية التي يدّعونها، خصوصاً إذا اقترن سلوكهم بشيء من التعالي أو التكبر.

في المقابل، إذا تعلق الأمر بشخص متجول يحمل علما أو معرفة، فإنه غالباً ما يحظى باستقبال أفضل وبتقدير واضح، بل وبالإيواء الدائم. وفي هذا الإطار، تمتلك كل قبيلة تقريباً شخصاً أو أكثر من هذا الصنف، يُعهد إليهم أحياناً بالتحكيم في النزاعات الداخلية، وقد يتولون القيادة في حالات الحرب، دون أن يكونوا بالضرورة جزءاً عضوياً من البنية القبلية.

وهكذا، يبدو أن هذه المجتمعات الجبلية تُظهر قدراً من الانفتاح على سلطة المعرفة أكثر من انفتاحها على السلطة الروحية المجردة. ومن اللافت أن الأولياء الأحياء في الريف يُشار إليهم ببساطة بلقب «فقيه»، باستثناء الحالات التي يُنسب فيها أصحابها إلى سلالة شريفة أو يُعتقد بذلك.

من السمات المميزة لبعض مناطق المغرب وجود أكوام من الحجارة تعلو قبور متصوفة رحالة بعد وفاتهم. فعند مفترقات

الطرق، أو في المواضع المحمية على مسالك القوافل، كان يقيم أحياناً أحد هؤلاء الزهّاد في كهف أو كوخ بسيط، مختاراً حياة الفقر والتقشف، معتمداً في عيشه على ما يجود به عليه المسافرون من هبات متواضعة، ومكرساً وقته، بحسب ما يُنسب إليه، للعبادة والدعاء.

وعندما يُعثر عليه ميتاً في أحد الأيام، يُلفّ في برنسه البسيط ويُدفن بما تيسر، أحياناً في حصير أو في قطعة قماش قديمة كانت من بين ممتلكاته القليلة، مع توجيه وجهه نحو مكة. ثم يؤدي الحاضرون صلاة الجنازة، قبل أن يضعوا حجارة فوق القبر، فتتشكل مع مرور الوقت تلك الأكوام الحجرية التي تميز هذه المواقع.

وكل مسافر يمر من هناك يفعل الشيء نفسه، وسرعان ما يرتفع مخروط حجري شاهق فوق المثوى الأخير لهذا الولي الصالح الغريب. ويمكن رؤية هذه الأكوام بأعداد كبيرة، على جميع ممرات الجبال التي تمر بها مسارات البغال، وعلى الشاطئ، أو وسط التربة الطينية، أو على المساحات الرملية، مما يدل على أن الحجارة غالبًا ما كانت تُحضر من أماكن بعيدة.

يُشيَّد للأولياء الذين يُعترف بمكانتهم بعد وفاتهم قبور مهيكلة تُعرف محلياً باسم «الروضة»، وهي عبارة عن بنايات مكعبة من الطين أو الحجارة، تُطلى باللون الأبيض وتُتوَّج بقبة، وتضم رفات أشخاص تميّزوا، في نظر المجتمع، إما بالنسب الشريف أو بالعلم والتقوى.

غير أن الأمر في الريف يتجاوز هذا الإطار الديني الصرف؛ إذ تُقام القباب أيضاً تكريماً لشخصيات قدّمت خدمات بارزة لقبيلتها، سواء على المستوى السياسي أو التنظيمي أو الاجتماعي، وليس بالضرورة لأسباب دينية بحتة. ومع مرور الزمن، تتحول هذه الأضرحة، بفعل العرف المحلي، إلى فضاءات ذات طابع روحي، تستقطب الزوار من مناطق بعيدة، على غرار قبور الأولياء التقليديين.

كما يكتسب بعض هؤلاء المدفونين، تدريجياً، سمعة خاصة ترتبط بقوى رمزية أو "بركات" يُعتقد أنها تفيد في ظروف معينة من حياة الناس، خصوصاً لدى الفئات الهشة. وتُظهر النساء، على وجه الخصوص، تعلقاً ملحوظاً بهذه المزارات، حيث يقصدنها طلباً للبركة أو لتحقيق أمنيات شخصية، وفي مقدمتها الرغبة في الإنجاب، التي تُعد من أبرز التطلعات في السياق الاجتماعي التقليدي، حيث كانت الأمومة، ولا سيما إنجاب الذكور، تحظى بقيمة رمزية كبيرة داخل المجتمع الريفي.

كما أشرنا سابقاً، تمتلك كل قبيلة وليّها الخاص، وقد تضم أحياناً أكثر من واحد، بحسب تاريخها وخصوصياتها. وبالمثل، فإن لكل مهنة تقريباً شفيعاً يُنسب إليه تأثير رمزي أو حماية معنوية، على غرار ما هو شائع في مجتمعات أخرى. ومن الأمثلة على ذلك سيدي أبو يعقوب باديسي، الذي يُعد شفيع البحّارة، حيث اعتاد أفراد طواقم القوارب على طول الساحل تقديم صدقات باسمه قبل الإبحار، طلباً للحفظ والتوفيق في رحلاتهم البحرية.

كان أهالي بني بشير، كلما استطاعوا، يتوجهون بأنفسهم إلى الضريح الكائن عند مصب وادي تلا ن باديس، حيث يقدمون هدايا متواضعة وفق ما جرى عليه العرف. وبعد ليلة عاصفة شديدة، أرسلتُ بدوري إبريقاً صغيراً من الزيت إلى الضريح، وفاءً بنذر كان قد قطعه أهالي "قريتي" في دعواتهم، أملاً في النجاة من محنتهم. ولهذا الغرض، اختار البشيريون من مؤونتنا أفضل شمعة، مع الحرص على أن تكون سليمة، وتوجهوا بها إلى المكان حيث سلموا الهدية إلى القائم على الضريح.

وسرعان ما انتشر الخبر على نحو لافت بأن مسيحياً قد قدّم هدية لولي مسلم، فتوافد رجال مسلحون من مختلف أنحاء الوادي بدافع الفضول لرؤية هذا "الحدث". غير أن أحد زعماء القرى المجاورة تدخّل موضحاً أن الأمر لا يستدعي كل هذا الاستغراب؛ فشهرة سيدي أبو يعقوب، كما قال، بلغت "بلاد غير المسلمين"، كما أن كوني ألمانياً—في نظره—يجعل الأمر أقل غرابة مقارنة بغيري من الأوروبيين.

وقد عبّر هذا الرجل نفسه، في مناسبة أخرى، عن ملاحظة لافتة، إذ أشار إلى أنني، بملابسي الريفية، وفي منطقة نائية لا يوجد فيها أي أوروبي على امتداد مئات الكيلومترات، كنت قد اندمجت إلى حد كبير في أسلوب عيش السكان المحليين وتقاليدهم .

وكذلك، حين كنت أمدّ يدي إلى الطعام، كنت أحرص على أن أقول بوقار: «بسم الله»، فيردّ الرجل بابتسامة ممزوجة بالتنهيد قائلاً: «وما جدوى كل هذا الورع إذا صدر عن فم نصراني**!**».

وعلى المنوال نفسه، رأى في مناسبة أخرى أنه من غير اللائق أن يطلق عليّ أصدقائي المسلمون لقب «بو اللحية»، معتبراً أن هذا اللقب أقرب إلى تعبيرات أهل المدن. وبرأيه، كان الأنسب أن أُعرف بلقب «الرامي»، أي القنّاص.

غالباً ما تتطور، بفضل الأوقاف والتبرعات الدينية، قبور الأولياء البسيطة إلى مجمعات أوسع تضم أضرحة وزوايا. فإلى جانب الضريح، تُشيَّد مرافق متعددة مثل أماكن لإيواء الزوار، ومدارس دينية، ومساكن للقائمين على المكان. ومع مرور الوقت، ومع ترسّخ السمعة الروحية للموقع، تتزايد الهبات والتبرعات، فيتحول إلى مركز ذي إشعاع يتجاوز محيطه المحلي.

وقد أصبحت كثير من هذه الزوايا مؤسسات ذات موارد مهمة، تمتلك أراضي واسعة وتمارس نفوذاً اجتماعياً ملحوظاً. وفي المقابل، تضطلع أيضاً بأدوار خيرية، من خلال إيواء المحتاجين وتقديم الدعم للفئات الهشة، وهو ما يعكس مكانتها داخل النسيج الاجتماعي في هذه المجتمعات.

ومن بين المزارات المعروفة يُذكر مزار شرفاء تازروت، وضريح سيدي بو خيار الذي سبقت الإشارة إليه، إلى جانب عدد كبير من المواقع الأخرى المنتشرة في المنطقة. كما عملت عدة طرق صوفية على إنشاء مزارات خاصة بها، وسعت من خلالها إلى ترسيخ حضورها واكتساب نفوذ داخل الريف، إلى جانب عائلات ذات مكانة دينية واجتماعية بارزة، مثل عائلة الوزاني وغيرها.

وفي بعض المناطق، يُروى أن مجالات واسعة—من أودية كاملة إلى سفوح جبال—تضم حقول حبوب مزروعة بعناية وحدائق مزدهرة، تُنسب ملكيتها إلى شريف واحد، في دلالة على حجم النفوذ الاقتصادي والاجتماعي الذي يمكن أن تتمتع به بعض هذه الأسر أو الشخصيات.

يُعدّ مولاي عبد السلام بن مشيش، إن جاز التعبير، القطب الروحي الأبرز في هذا المجال، حيث يقوم ضريحه الكبير على قمة جبل تحمل اسمه، مكسوّة بالثلوج، ضمن سلسلة جبال جبالة في بني حسان، والتي يصل ارتفاعها إلى نحو 2200 متر.

وغالباً ما يبدي الريفي، خاصة في المناطق الجبلية، نوعاً من الاعتزاز المحلي حين يسمع في المدن أو على الساحل الغربي دعوات موجهة إلى مولاي إدريس بوصفه شفيع المغرب، إذ يبرز في هذا السياق مكانة مولاي عبد السلام بن مشيش باعتباره الولي الأقرب إلى وجدانهم. ولا يقتصر الإقبال على ضريحه على سكان الريف فحسب، بل يفد إليه سنوياً آلاف الزوار من مختلف المناطق لحضور موسمه، في تعبير عن عمق حضوره الروحي.

كما أن دائرة أتباعه تتجاوز المجال الريفي، إذ تمتد لتشمل مناطق واسعة تصل إلى ما وراء محور فاس–تازة–وجدة، بل وتبلغ تخوم العاصمة التاريخية، مما يعكس الانتشار الواسع لتأثيره داخل النسيج الديني والاجتماعي المغربي.

بشكل عام، يمكن القول إن الجماعات الساحلية تبدو أكثر التزاماً بالممارسات الدينية مقارنة بنظيراتها في الداخل، غير أن هذا

الالتزام لا يصل، في أي حال، إلى حد التعصب. كما أن ما قد يُفهم أحياناً على أنه موقف عدائي تجاه المسيحيين يرتبط، في الغالب، بتجارب تاريخية صعبة عاشتها مناطق واسعة من شمال غرب إفريقيا في سياق الاحتكاك مع القوى الأوروبية.

ففي الجزائر، على سبيل المثال، شهدت تحولات عميقة خلال الفترة الاستعمارية، حيث تغيّرت أنماط الملكية الزراعية، وانتقلت مساحات من الأراضي إلى مستوطنين أوروبيين، ما أدى إلى تدهور أوضاع فئات واسعة من السكان المحليين. وقد وجد كثير من هؤلاء أنفسهم يعملون بأجور في أراضٍ كانت في السابق ضمن ممتلكاتهم أو ممتلكات أسرهم، في ظل سياسات لم تراعِ دائماً حقوق الملكية التقليدية.

ومن يطّلع على هذه الأوضاع، سواء في المدن أو في الأرياف، يمكنه أن يفهم جانباً من الخلفيات التي غذّت حركات المقاومة، مثل تلك التي قادها الأمير عبد القادر، ولاحقاً بو عمامة، حيث ارتبطت هذه الحركات برفض السيطرة الأجنبية والدفاع عن الأرض والموارد.

ولهذا السبب يبذل سكان الريف قصارى جهدهم لإبعاد الزوار غير المرغوب فيهم. والدليل على تسامحهم هو العدد الكبير من المنشقين الذين يجدون ملاذًا في المناطق النائية من الأراضي الريفية. وغالبًا ما يكون هؤلاء مجرمين هاربين من سجن الجزر المحتلة القاسي، الذين تخلوا عن هويتهم الأوروبية، ويعيشون بين سكان الريف كما لو كانوا أفراداً من القبيلة، ويتم قبولهم في القبيلة

بعد فترة. وعلى الرغم من شدّة كراهية الريفيين للإسبان، فإنهم ما إن يطلبوا العون حتى يطووا أسباب العداء، ويُقبلوا على تقديم الضيافة لهم وفق ما تقتضيه أعراف الكرم وحماية المستجير. وسرعان ما يقطع اللاجئون كل صلة بوطنهم الأم. ويتزوّجون من بنات البلد، ويعتنقون الدين المحلي، ويبنون مساكنهم، ويعيشون في الغالب على التجارة أكثر من اشتغالهم بالزراعة. وكما هو الحال في مجتمعاتٍ إسلامية أخرى، يُنظر إلى الأبناء والأحفاد، حتى منذ الجيل الثاني، بوصفهم مسلمين كاملين مندمجين في الجماعة المحلية. ولا يعلم الأحفاد أبداً أن "دماءً" مسيحية تجري في عروقهم. وإذا كان المنشق يمتلك بعض المهارات الفنية، كإجادة إصلاح البنادق، فإن القبيلة تهتم برفاهه أكثر من اهتمامها بأبنائها، ويصبح المسيحي الذي كان مكروهاً في السابق رجلاً محترماً. لكن، مثل جميع سكان جنوب إسبانيا، نادراً ما نجد بينهم أذكياء استثنائيين.

لن أنسى أبداً ذلك الرجل الذي التقيته في خليج النكور: كان يرتدي جلباباً بالياً، ويحمل بندقية جيدة بين يديه، بينما كانت قبعته مملوءة بالعنب. اقترب مني رجل قصير القامة، متواضع المظهر، وسألني إن كنت ذلك المسيحي الذي يرسو قاربه عند مصب وادي غيس. أجبته بالإيجاب، وسألته بدوري عن هويته، فأجاب بلهجة أندلسية ثقيلة: "أنا أحمد السلامي (المنشق)، لكن دعنا نتحدث بالإسبانية، فأنا لا أفهم لا العربية ولا الريفية."!

وخلال حديثنا، تبيّن لي أنه يقيم في المنطقة منذ ست سنوات كاملة، وله زوجة وأبناء، بل ويملك عقاراً في أجدير، ومع ذلك لم يكن

قد أتقن أياً من اللغات المحلية في موطنه الجديد. أما كيف كان يتواصل مع زوجته وأطفاله، فقد ظل ذلك لغزاً يحيرني إلى اليوم.

كما يتضح، لا يُبدي الريفي تحفّظاً كبيراً تجاه قبول المنشقين المسيحيين واندماجهم في المجتمع. غير أنه ينظر إلى اليهود بدرجة من الريبة. ويُختزل هذا الموقف في مثل شائع في مناطق أخرى المغرب يقول: "اليهودي يبقى يهودياً، حتى في الجيل الأربعين."

لا يتمتع يهود الريف بأي حال من الأحوال بحريات أكبر من تلك التي يتمتع بها يهود المدن المغربية أو المناطق الغربية. لكن طبيعة سكان الريف لا تسمح بوقوع أعمال عنف كثيرة. وما يملكه اليهودي يبقى ملكه، شريطة أن يكون قد حصل عليه بطريقة مشروعة. وتنتشر الجماعات اليهودية في جميع أنحاء المنطقة الجبلية، ولا سيما في الأماكن التي توجد فيها تجمعات سكانية كبيرة. وهم يسيطرون في كل مكان على جميع الأنشطة التجارية، ويمارسون القليل من الصناعات الموجودة في الريف. يمتلكون قوارب الفلوكة وحيوانات النقل، ويستأجرون الأراضي الزراعية والمراعي، ويعملون في صناعة النعال وصياغة الفضة، ويديرون معظم المحلات التجارية في المدن، ويزودون الأسواق الأسبوعية بمختلف الحاجيات. ولديهم صلات بجميع المدن الساحلية في المقاطعة والجزر المحتلة وفي المناطق الداخلية. ويسافرون إلى إسبانيا لإبرام صفقات تجارية كبيرة، ويقومون بترتيب الأمور عندما يتعلق الأمر بتهريب الأسلحة. وفي مختلف المناطق، يوجد أبناءُ طائفتهم ممّن يقدّمون ليهود الريف أشكالًا متنوّعة من الدعم

والمساندة. وكثيراً ما يقرضون المال بفوائد معقولة (للأسف لا أستطيع تحديد المبلغ بالضبط. على أي حال، ليس كما هو الحال في المدن: 20 أو 40% لإخوانهم في الدين، و60 و80% للآخرين (الغوييم)، وفقاً لجودة الضمان الذي يقدم. 100 و150% للذين لا يقدمون ضماناً).

وربما يُعزى هذا الوضع، في جزء منه، إلى أن الريفي، رغم طيبته، يتسم بالحزم، فلا يتسامح مع المطالبة بفوائد مفرطة، وقد يواجهها برد فعل مباشر. كما أن كل عائلة يهودية كانت غالباً ما ترتبط بشخص نافذ يتولى حمايتها مقابل تعويض مادي، بما يضمن عدم تعرضها للظلم أو الاعتداء.

وفي هذا الإطار، كان من المعتاد أن يرافق الريفي التاجر اليهودي في تنقلاته خارج المنطقة، أو يعهد بهذه المهمة إلى أحد المقربين منه، خاصة إذا كان يحمل بضائع ذات قيمة. وقد يصل الأمر إلى مرافقته حتى صعوده إلى القارب، ثم استقباله عند عودته، لا سيما في الرحلات المتجهة إلى إسبانيا أو إلى الجزر المحتلة.

وبناءً على هذه المعطيات، يمكن القول إن أوضاع يهود الريف كانت أقل قسوة مقارنة بنظرائهم في مناطق أخرى، مثل جنوب المغرب.

يتحدثون العربية حصراً دون استثناء، ولا يستعملون الإسبانية إطلاقًا (على خلاف بعض إخوانهم في العقيدة في مدن مغربية أخرى)، وإن كان ذلك بلكنةٍ خاصة. ويُعدّون عمومًا أناسًا طيبين. صحيح أنهم لا يمثلون، كما هو الحال في بعض مدن المغرب،

الحاملين الوحيدين لما يُسمّى "الثقافة" في التصور الأوروبي، إلا أنهم يتولّون، في الغالب، الأنشطة التجارية. وغالبًا ما يرتدون الزيّ الأسود: الجلباب الطويل، والحذاء المطابق، والشاشية السوداء. غير أنّه تجدر الإشارة إلى أنني، في شمال المغرب وحده، عاينت يهودًا يرتدون الجلباب الأبيض، بالطبع بنفس الطول والهيئة. ولا يملكون مقبرةً خاصة إلا في المدن الكبرى، حيث تُغطّى المدافن بألواحٍ حجرية يرقد تحتها يهود المناطق المجاورة كافة. (أما ما يورده هوبنر بشأن مواكب جنائزية يهودية بمرافقة عسكرية، فغير دقيق).

وتجدر الإشارة إلى أنه، عقب أحداث بوحمارة، هاجرت الجاليات اليهودية من تازة ومكناس نحو مليلية، حيث استقرت في إحدى ضواحيها، وحققت لاحقًا قدرًا من الازدهار المادي.

6. الحياة المهنية، التجارة والنقل والقرصنة.

تربية الماشية. - الحيوانات البرية (الحيوانات البرية، الطرائد) - النباتات - التجارة، النقل (الأسواق) - العملة - المقاييس والأوزان - الطرق البرية - بناء السفن - الملاحة الساحلية - القرصنة - الأسلحة.

تنتشر الحيوانات الأليفة بكثرة، كما هو الحال في مناطق واسعة من الشرق. غير أنّ تربية الخيول البربرية الكبيرة والجميلة، المعروفة في سهول الساحل الأطلسي، تكاد تغيب هنا، حيث يُعتمد أساساً على حيوانات نقل صغيرة لكنها شديدة التحمّل (اكيدار). وتتراوح أسعار هذه الحيوانات في أسواق الريف بين 20 و30 دورو، بينما ترتفع بطبيعة الحال في المراكز الحضرية.

أما الخيول المخصّصة للركوب فقط، والتي لا تُستخدم في الحمل، فهي نادرة في هذه المنطقة، وتوجد أساساً في الشرق، وحتى هناك لا تُعد من أجود السلالات.

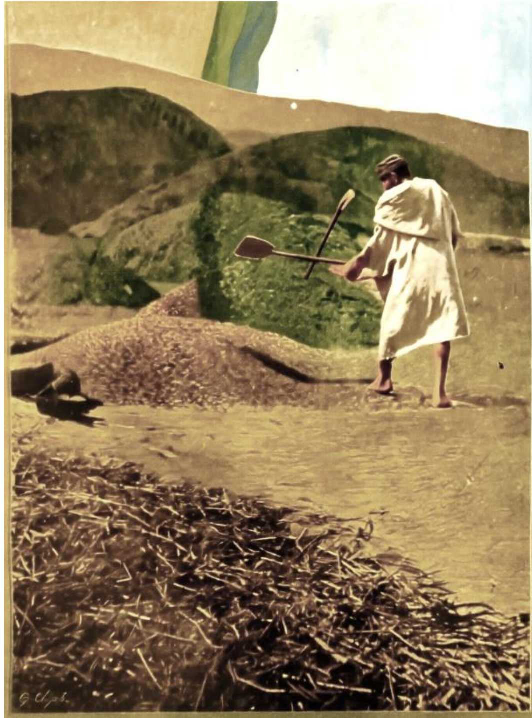
الأبقار في هذه المنطقة تنتمي إلى سلالة صغيرة الحجم ونحيفة البنية، لكنها تُعد، رغم ذلك، أفضل نسبياً من بعض السلالات الأخرى، مثل الأبقار السورية. فهي لا تُدر كميات كبيرة من الحليب، غير أن لحمها يُعتبر جيداً من حيث الجودة. ويبلغ سعر

اللحم في تطوان نحو 3 إلى 3.5 صُولْدِي لكل 510 غرامات، بينما يكون لحم الغنم أعلى سعراً بقليل.

أما أسعار الأبقار في أسواق الريف، فتتراوح بالنسبة للبالغة منها بين 14 و18 ريالاً، في حين يمكن اقتناء الأصغر سناً بحوالي 10 ريالات. ويصعب تحديد أعدادها بدقة، بل إن ذلك أكثر تعقيداً من إحصاء أعداد الخيول. وغالباً ما تُترك الأبقار والماعز، إلى جانب الدواب، لترعى في الهواء الطلق طوال الوقت، تحت مراقبة الكلاب وأطفال القرية.



جثة بقرة على قارعة الطريق (الريف الشرقي)



ذر الحصاد في مهب الريح

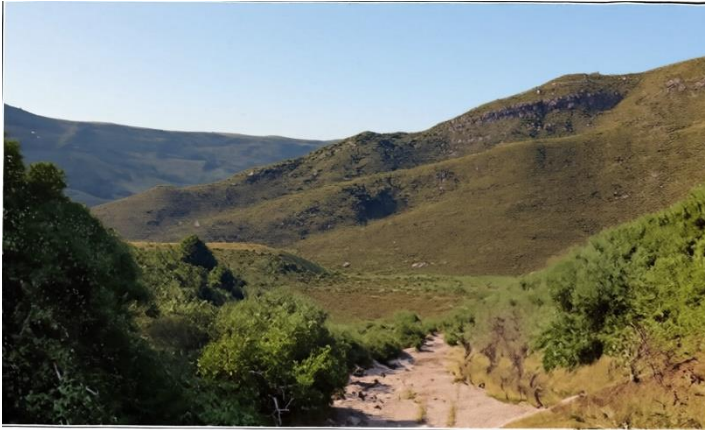


درس الحبوب





الموزونة، الوجهان.



مسالك البغال. رحلة عبر قبيلة قلعية.

البغال صغيرة الحجم لكنها شديدة التحمل، وتُعدّ أقل ثمناً بقليل من الخيول، وتُربّى أساساً لأغراض النقل. لذلك، لا جدوى من البحث

في المدن عن البغال الكبيرة مرتفعة الثمن، المعروفة بخطواتها الهادئة، والتي تُستخدم في مناطق أخرى من المغرب للركوب.

وتمتلك كل قبيلة أعداداً مهمة من الأغنام، وأعداداً أكبر من الماعز. وليس من المبالغة، على الأرجح، تقدير عدد الماعز بنحو مليوني رأس. وتتميّز هذه الماعز بأنوف مقوّسة وشعر خشن، وتُنتج حليباً جيداً، في حين أن لحمها قليل وغالباً ما يكون قاسياً ومليئاً بالألياف. ورغم ذلك، يحتفظ هذا اللحم بقيمته في منطقة الريف التي تعاني نسبياً من نقص في الموارد الحيوانية، لكنه لا يحظى بنفس الإقبال في أسواق تطوان أو الشاون.

وعادةً ما يُحضَّر هذا اللحم عن طريق تقطيعه إلى شرائح رقيقة وتجفيفه في الهواء الطلق، مع الحرص على تجنب تعريضه المباشر لأشعة الشمس[17].

يوجد عدد كبير من الدجاج في كل بيت تقريباً، إذ تملك كل أسرة دجاجها الخاص، سواء كانت تقيم في كوخ خشبي أو خيمة أو بناء حجري. وتنتمي هذه الدواجن إلى سلالة صغيرة الحجم، كما هو الحال في معظم مناطق الشرق، ويمكن الحصول عليها بأسعار زهيدة جداً في المناطق الداخلية، حيث كنت أدفع في الغالب صُولْدِياً واحداً للدجاجة. أما في المدن، فيرتفع السعر بسرعة، خاصة خلال موسم الأمطار في أشهر يناير وفبراير ومارس.

[17] معلومة مشكوك في صحتها.

وينطبق الأمر نفسه على البيض. ففي العديد من الأماكن لم يكن من الممكن شراء سلة بيض بالنقود مباشرة، بل كان يُفضَّل تقديم الهدايا، التي غالباً ما تكون أكثر كلفة من الدفع النقدي نفسه. وفي طنجة، على سبيل المثال، كان ثمن 10 إلى 12 بيضة يُدفع ببسيطة حسنية.

أما عند نقل القوارب للمواد الغذائية من الريف نحو جزيرتي باديس والنكور، فقد كان سعر الدجاجة يتراوح بين 2 و3 ريالات، في حين كان ثمن دزينة البيض (التي يقدّرها الإسبان في الغالب بما يعادل عشر وحدات) يبلغ نحو ريالين.

لكن رجال الريف، المعروفين بطبعهم الصلب، نادراً ما يُبدون استعداداً لتقديم المساعدة لجيرانهم المسيحيين غير المرغوب فيهم.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن القطط المنزلية نادرة في الجبال؛ فلم ألاحظ وجودها، كما سبق أن ذكرت، إلا في حالات محدودة، بينما تنتشر في تطوان بأعداد كبيرة تتجول في الأزقة الضيقة والمتعرجة. وينطبق الأمر نفسه على الكلاب المنزلية، التي توجد في جميع القرى، لكنها أقل عدداً بكثير مما هي عليه في مناطق الغرب أو الشاوية أو غيرها.

وهذه الكلاب متوسطة الحجم، نحيفة البنية، ذات رأس يشبه رأس الدب القطبي وذيل طويل، وهي دائمة النباح، تبدو جائعة في معظم الأوقات، ومستعدة دائماً للانقضاض على أرجل الغرباء. أما السلوقي النحيف، فظهوره نادر؛ إذ يأتي أساساً من السهول

الجنوبية، ولا يُربّى إلا في بعض قبائل الريف "الأصلية" الأكثر ثراءً في الشرق، ويُستخدم حصراً لأغراض الصيد.

تنتشر أعداد كبيرة من الحمام في محيط القرى، وغالباً ما يطاردها الصبية باستخدام مقاليع بسيطة تُصنع من خيوط اللحاء. وفي بعض مناطق الشرق، يمكن أيضاً مشاهدة عدد محدود من الجمال المتفرقة، التي تأتي عادة من تافيلالت أو من الجزائر، ولا تقتصر تربيتها إلا على سكان قلعية وعلى بعض الرحل من كبدانة (مع الإشارة إلى أن كبدانة الواقعة وراء نهر ملوية لم تعد تُعدّ جزءاً من منطقة الريف).

وتجدر الإشارة كذلك إلى ازدهار تربية النحل في هذه الجبال. إذ تنتشر خلايا النحل في مختلف أنحاء الريف، وتكاد كل قرية تضم عدداً منها، حيث تُوضع الأسراب غالباً داخل جذوع أشجار مجوفة. ويحظى عسل جبال الريف بتقدير كبير في مختلف أنحاء المغرب، ويُباع في حالته الطبيعية ويُقبل عليه الناس بشغف، حيث يُستهلك عادة مع الخبز.

عندما يخرج سكان الريف إلى الصيد، فإنهم لم يعودوا اليوم يطمعون في صيد الأسود أو النمور، إذ إن هذين الحيوانين قد انقرضا من المغرب. ويُذكر أن آخر أسد قُتل سنة 1892 على الحدود الجزائرية–المغربية[18]، بالقرب من عين الصفراء، وكان حيواناً هرِماً ومنعزلاً فقد منذ زمن طويل قدرته وقوته.

[18] معلومة خاطئة.

ومنذ ذلك الحين، أصبح الخنزير البري أكبر الطرائد المتاحة، وقد يصل أحياناً إلى أحجام كبيرة. وتوجد منه قطعان كثيرة عبر مساحات واسعة، على طول المسار من تطوان إلى مليلية وصولاً إلى ممر تازة؛ إذ تعج به مناطق الريف "الحقيقي"، كما تنتشر أعداده أيضاً في جبال جبالة الوعرة، وفي المنحدرات والوديان الأخرى من سلسلة جبال الأطلس.

يحتلّ الخنزير البري، ذكراً كان أم أنثى، مكانة بارزة في روايات الصيد في منطقة الريف، كما هو الحال لدى سكان جبال الأطلس عمومًا، حيث يضاهي في حضوره الرمزي حيوانات مثل الأسد والضبع. أمّا النمر، فيُلاحظ أن سكان هذه السلاسل الجبلية الوعرة لا يملكون عنه معرفة تُذكر، وهو أمر يثير الاستغراب، خاصة إذا ما أُخذ بعين الاعتبار احتمال وجود النمر الأسود تاريخيًا في شمال إفريقيا، وما قد يستتبعه ذلك من إمكانية وجوده في بعض المناطق المعزولة من الأطلس.

وتكثر في هذا السياق الحكايات المتداولة شفهيًا حول الضبع والأسد والخنزير البري، إلى درجة يصعب معها حصرها، كما تتنوع التسميات المحلية التي تُطلق على كل من هذه الحيوانات، بما يعكس غنى المخيال الشعبي المرتبط بعالم الصيد والحياة البرية.

الغزلان نادرة في المنطقة، ولا تُشاهد إلا في نطاق غارت، إذ تفضل هذه الحيوانات الرشيقة والخجولة البيئات السهبية المفتوحة. في المقابل، تحتضن التلال أعدادًا معتبرة من الأرانب البرية

بأنواعها المختلفة، وتصطاد كلها تقليديًا خلال رحلات الصيد الجماعي باستعمال العصي، في ظل ندرة استخدام الأسلحة النارية بسبب ارتفاع كلفة الذخيرة كما سبقت الإشارة إليه. ومع ذلك، يُحضَّر لحمها القليل نسبيًا وفق وصفات محلية تُضفي عليه نكهة مميزة، غالبًا في مرق بني غني بالتوابل.

أما خروف الماهن، الشائع في جبال الأطلس الكبير، فلا يوجد في منطقة الريف. وفي المقابل، تنتشر الثعالب والضباع بأعداد ملحوظة، وإن كانت كثافتها أقل مما هو معروف في مناطق السهوب.

وعندما تكثر هذه الحيوانات في محيط القرى، يلجأ بعض السكان إلى تنظيم عمليات صيد ليلية، حيث يخرج رجلان عند اكتمال القمر لوضع عظام وقطع لحم في فضاء مفتوح كطُعم. ثم يتمركزان على مقربة، في انتظار اقتراب الحيوانات البرية التي تجذبها الرائحة، ليتم استهدافها.

ومن اللافت أن الخنزير يُعد "نجسًا" في التصور المحلي، ولا يُستفاد منه سوى في إطعام كلاب القرية، في حين لا يتردد بعض سكان الريف في استهلاك لحم الذئب، مع امتناعهم في المقابل عن أكل لحم الضبع.

دعونا نروي قصة صيد خنزير بري بالقرب من تطوان:

في ظهيرة أحد الأيام، امتطينا البغال ـــ مفضلين عدم تعريض خيولنا لمخاطر التسلق على المنحدرات الوعرة لجبل عبد السلام ـــ وانطلقنا نحو أصدقائنا من قبيلة بني سعيد. وعلى الرغم من

أن أراضيهم تندرج إداريًا ضمن عمالة تطوان، فإنها كانت تتمتع بقدر من الاستقلال الفعلي، قلّما امتدت إليه يد المخزن.

نصبنا مخيمنا ليلًا في دوار أحد الأصدقاء، ومع بزوغ الفجر، وبعد وجبة خفيفة من اللبن الرائب والخبز الجاف، استأنفنا المسير تاركين الدواب وراءنا. كما تركنا الجلاليب في المخيم حتى لا تعيق حركتنا داخل الغابة الكثيفة، بينما تولّى بعض رفاقي قيادة الكلاب.

وبعد مسيرة طويلة عبر أحراش كثيفة من أشجار الفلين والسنديان، بارتفاع يقارب قامة الإنسان، عُثر على آثار خنازير برية، فأُطلقت الكلاب لتعقبها. وسرعان ما اهتدت إلى أكثر من حيوان، لتنطلق في مطاردة محمومة، يتعالى فيها نباحها وهي تشق طريقها بصعوبة عبر الأدغال المتشابكة.

"اخرج أيها الكافر! كم رصاصة يحتملها بطنك السمين؟ الله يمنح النصر! قف مكانك حتى نخاطبك! ستكون وليمة لكلابنا حين تقضم عظامك!" — هكذا كانت صيحات الصيادين تتعالى وتتداخل في زخم المطاردة.

وفي المقابل، عبّر آخرون عن قلقهم على كلابهم، إدراكًا منهم لخطورة الخنازير البرية كخصوم شرسين. وكان من بين النداءات التحذيرية: «احذروا، فأنتم تواجهون خصمًا عنيدًا...!» بينما استمرت الأصوات في التردد بين الحماسة والحذر داخل الغابة الكثيفة.

"سوف ينتقم أعداؤكم من جرأتكم، ولكن الله هو العليّ القدير، فاحذروا!" ـــ هكذا تعالت الصرخات، دون اكتراث بوجودي بينهم.

كانت الحيوانات المحاصَرة قد اندفعت نحو أحد الأركان، ولم يبقَ سوى ذكر ضخم طوّقته كلابنا، وقد احتمى داخل تجويف صخري، مدافعًا عن نفسه بضراوة. لم يكن من الممكن إطلاق النار، إذ كانت الكلاب تتدافع وتقفز حوله في فوضى عارمة، ما جعل احتمال إصابة إحداها أكبر من إصابة الحيوان المحاصر.

وفي لحظة خاطفة، اندفع الخنزير إلى الأمام، فمزّق خاصرة أحد الكلاب التي اقتربت منه بتهور، ثم ما لبث أن ارتدّ بها إلى مخبئه قبل أن يتمكن الباقون من الانقضاض عليه. وقد دفع ذلك الكلب ثمن اندفاعه، إذ أصيب بجروح بليغة سرعان ما نزف منها بغزارة.

أخيرًا تمكن الحيوان من الإفلات، فاستأنفنا مطاردته، لكنه سرعان ما اختفى عن أنظارنا. وتتبعنا نباح الكلاب، فاندفعنا في أثره حتى عثرنا على المجموعة مجددًا، هذه المرة في فسحة صغيرة داخل الغابة.

هناك، استدار الحيوان ليدافع عن نفسه بضراوة، قبل أن يتراجع نحو شجيرة من التوت البري، حيث طوّقته الكلاب التي كانت تنبح بشدة. وفي خضم هذا الاشتباك، تمكنا من الإجهاز عليه باستخدام سيوفنا الطويلة. ولم تُطلق خلال المواجهة سوى ثلاث طلقات،

أصابت إحداها الهدف دون أن تكون قاتلة. لقد كان حيوانًا قوي البنية، ذا أنياب ضخمة تعكس شراسته.

أمسك رجلان بالخنزير من أذنيه وسحباه عبر المرج إلى مكان المخيم. وبينما كان يتم سلخ الغنيمة، مات الكلب المصاب متأثراً بجروح بالغة. تم حفر حفرة بالسكاكين الكبيرة، ووضع الحيوان داخلها وغطيت بالحجارة. تم تضميد الكلاب المصابة وخياطتها بطريقة احترافية، واستخدمت أطراف وألياف الصبار بدلاً من إبر وخيوط الجراح. ثم أشعلوا الموقد. تم شوي قطع كبيرة من اللحم جزئيًا وإلقائها للكلاب! تناولنا الخبز والفاكهة وانطلقنا في طريق العودة، حاملين أنياب الخنزير وجلده كغنائم. بشكل عام، غالبًا ما يستسلم الخنزير لمهاجميه، خاصةً عندما يُقذف بالحجارة، وهو ما يحب الريفي فعله.

كما يجدر ذكر ثعلب الفنك ذي الفراء الفاتح، وهو ثعلب صحراوي يعيش على وجه الخصوص في السهوب الشرقية المكسوّة بالأشجار. وتوجد أيضًا بعض حيوانات المرموط، إلى جانب نوع من القرود، وهي جميعها كائنات خجولة قليلة العدد، لا تُرى إلا من مسافات بعيدة، ولم أتمكن قط من تصوير أيٍّ منها. ووفقًا لما يرويه السكان المحليون، فإن هذه القرود تنتمي إلى فصيلة المكاك، المشابهة لتلك التي تعيش في كهوف جبل طارق.

أما السحالي والجرذان القافزة والثعابين، فتنتشر في السهول، ولذلك فهي أقل حضوراً في الغرب مقارنةً بالشرق. وتتكرر آفة الجراد بصورة مروّعة عبر السنين، ولا تخفّ حدتها إلا في فترات محدودة. وبفضل وفرة الغذاء، تظهر أنواع خضراء نشطة منه؛

ففي الربيع، يغطي ملايين الجراد الطرق الضيقة بين الشجيرات، إلى درجة يُسمع صوت قضمه بوضوح، وما إن تقترب منه كائنات أخرى حتى يقفز مبتعدا في كل اتجاه.

ومن اللافت أنه لا يقترب من الفاصوليا أو الكتان ما دام يجد غذاءً آخر، غير أن هذا الوضع نادرًا ما يستمر طويلًا.

يقف المغاربة مكتوفي الأيدي، يرقبون الدمار الذي يخلّفه. فأين ذلك الجبّار الذي يجرؤ على مقاومة هذا "السلطان الجراد"؟ لا شيء يردعه؛ فلا الجدران، ولا النيران، ولا المياه، ولا الغابات، ولا الصحاري قادرة على وقف زحف جحافله المدمّرة. ومع ذلك، وبالمقارنة مع المناطق الجنوبية، فإن أسرابه لا تبلغ سواحل البحر الأبيض المتوسط إلا وهي ضعيفة وهزيلة.

وقبل أن يضع الجراد بيضه، يُعدّ في جنوب المغرب طعامًا شهيًا. تُنزع أرجله وأجنحته، ويُغلى جسده في الماء لبضع دقائق، ثم يُتبّل المرق بالملح والتوابل، وأحيانًا بالخل، فيكتسب طعمًا يُشبه طعم أذرع الأخطبوط المسلوقة، التي تُعدّ بدورها من الأطعمة المستساغة في مناطق عديدة من حوض المتوسط. كما يمكن شويه على صفيحة ساخنة، فيصبح مذاقه قريبًا من المكسرات المحمصة، وإن كان أقل جودة.

ومع ذلك، يصعب على الأوروبي التغلب على نفوره من هذا النوع من الطعام، حتى لو اضطر إلى تناوله، وهو أمر غير نادر الحدوث في المناطق الصحراوية.

ومع ذلك، يلتهم البدوي هذه الحشرات في أطباق وفيرة دون أن يشعر بأدنى نفور. فجميع أنواع الطيور، بل وحتى الحيوانات الرباعية كالخنزير البري والثعلب والضبع وغيرها، تتغذى على يرقات الجراد. وفي المقابل، يبذل الأوروبيون كل ما في وسعهم لمكافحة هذه الآفة، غير أنّ جهودهم لا تُحدث أثرًا يُذكر.

ويبقى "السلطان جراد" أقوى من كل مقاومة. ويزعم أهل المشرق أن الجراد يسير في ترحاله وفق نظام عسكري، يقوده قادة وسلطان يتمايز بضخامته وألوانه الزاهية ونهمه الشديد.

ومع ذلك، وكما أسلفنا، تظهر هذه الآفة أيضًا في منطقة الريف، لكنها تظل أقلّ وطأة بكثير مما هي عليه في المناطق الواقعة وراء جبال الأطلس وجنوب المغرب، كما أن سكان الريف لا يستسيغون حساء الجراد على الإطلاق.

تزخر الأنهار بأنواع مختلفة من الأسماك تمامًا مثل الخلجان الهادئة المحاطة بالصخور في المياه الساحلية. فقد كنتُ دائمًا أصطاد خلال ربع ساعة من الإبحار بالصنارة ما يكفي من الأسماك ذات الأحجام المختلفة لتوفير وجبة بسيطة لي ولجميع رفاقي. تتواجد أعداد هائلة من السلاحف في المياه العذبة الجارية، والتي لا يأكلها السكان المحليون.

لا تعجّ الأجواء إلا بعدد محدود من أنواع الفراشات، في حين تضجّ الأرض بكائنات من مراتب أدنى. وفي بعض الأحيان، تغمر المروجَ أسرابٌ هائلة من الفراشات الصغيرة ذات الأجنحة

البيضاء، فتتعلق بالأعشاب والشجيرات بكثافة. ويبلغ عددها حدًّا يجعل تلك المروج تبدو، من بعيد، كأنها مستنقعات ملحية جافة.

تبدو الطيور أقلّ تنوّعًا مما قد يتوقّعه المرء. يظهر اللقلق بأعداد ملحوظة، لكنها تبقى أقلّ بكثير مما هي عليه على سفوح جبال الأطلس. ويمكن صيد السمان والطيهوج، بل وحتى بعض أنواع البط البري الصغير والدراج البني في أحيانٍ متفرقة.

وتنشط الغربان والعصافير الرمادية الفاتحة بحيوية ومثابرة، فيما تحلّق العقبان والصقور عاليًا في السماء، وتؤوي الغابات الكثيفة طيور البوم. كما تظهر النسور وطيور البقر على نحوٍ لافت، إذ ترافق القطعان الراعية باستمرار، في حين ترتفع طيور اللقلق من الحقول والمروج بين الحين والآخر.

وفي غابات العرعر الكثيفة، يصدح صوت العندليب العذب، بينما نادرًا ما يُسمع صوت البلبل، كما أن النورس الأزرق قلّما يُرى. ولا يكاد يلفت الانتباه، إلى جانب ذلك، ما يستحق الذكر من مظاهر خاصة.

وبوجه عام، لا يسعني إلا أن أؤكد أن النباتات والحيوانات ذات الطابع المتوسطي تنتشر في منطقة الريف أكثر مما هي عليه في سائر أنحاء المغرب.

وإذا كانت منطقة الريف تختلف اختلافًا جوهريًا عن سلاسل جبال الأطلس، فإن هذا التباين لا يُعزى إلى السكان المحليين فحسب، بل يرتبط بدرجة كبيرة بالبنية الجيولوجية نفسها. إذ تتجلّى التضاريس البركانية في جبال الريف بوضوح أكبر من أي منطقة

أخرى، وقد أُشير مرارًا إلى ما تزخر به من ثروات معدنية. فهي تختزن كميات هائلة من مختلف أنواع الخامات، تنتظر فقط من يستخرجها ويكشف عنها.

غير أنّ الظروف المحلية، بما فيها ضعف الوسائل وقلة الإمكانات، تجعل استغلال هذه الكنوز أمرًا بالغ الصعوبة، إذ لا تتوفر لدى السكان القدرة الكافية ولا الحافز العملي الكفيل بتحويلها إلى واقع ملموس.

يساهم الغنى النباتي ذي الطابع المتوسطي بدوره في إضفاء طابع فريد على هذه المنطقة. ولا أجد وصفًا أدق لها من «سويسرا المغربية». فتنوع تضاريس الأودية والمنحدرات يتيح نمو مختلف أنواع الفاكهة والحبوب دون حاجة تُذكر إلى الأسمدة، حتى إن المزارع قد يحصد محصوله مرتين أو ثلاث مرات في السنة.

وتنتشر المروج الخضراء والمراعي الوفيرة في مشهد من الخصوبة الدائمة، تمتد خضرتها حتى المرتفعات، في حين يتجلى تنوع نباتي غني، يكاد يشبه عالمًا قائمًا بذاته من الأشجار والنباتات.

وقد حظي الريف، بين بلدان العالم الإسلامي، بنصيب وافر من الحظوة الطبيعية، إذ لا يبدو أن هناك حاجة ملحّة إلى إمدادات مائية إضافية في المستقبل؛ فكل وادٍ يحتوي على ينابيع لا تنضب، وكل قرية تقريبًا تتوفر على آبار خاصة بها.

لذلك، من الطبيعي أن نلاحظ أن مساحات النباتات الطفيلية أقلّ مما هي عليه، على سبيل المثال، على سفوح جبال الأطلس.

وحيثما تنتشر هذه النباتات، يلجأ المزارعون — كما هو الحال في مناطق أخرى — إلى إحراقها في فصل الخريف.

ويعود ذلك إلى سببين رئيسيين: أولًا بهدف تخصيب التربة، وثانيًا للتخلص من الأعشاب الضارة والشجيرات التي تنمو بسرعة كبيرة، فتغزو الطرق وتضيّق مساحة الحقول الصالحة للزراعة.

وتتكوّن السهوب النباتية من أشجار التمر الهندي، وشجيرات الدوم، ونبات الشيح والرتم العطري، في حين تنمو شجيرة الزفيزف في المناطق الساحلية المنبسطة والحارة. كما يكثر نبات السبيل في السهول الرطبة، حيث يُستفاد منه لأغراض علاجية.

وبالقرب من السبخات الملحية، تنمو النباتات الخاصة بهذه البيئات بشكل متناثر. ومن اللافت أن شجرة الأركان تغيب عن هذه المنطقة. وفي المقابل، ترعى قطعان كبيرة من الماعز ذات الشعر الخشن في الأحراش على نحو دائم.

تنتشر المساحات المزروعة بعناية في الوديان الطويلة العديدة، حيث تتواصل تقاليد الزراعة عبر العصور. وكما كان أسلاف هؤلاء الفلاحين قبل ألفي عام يسيرون خلف المحراث لتوفير الحبوب، لا يزال أحفادهم اليوم يفلحون التربة الحمراء باستخدام أدوات بسيطة من فروع الأشجار الملتوية، ومع ذلك يحققون محاصيل وفيرة تُجنى مرتين في السنة.

ويزرعون الذرة والذرة الصفراء بدرجة أقل مقارنة بإخوتهم الأمازيغ في جبال الأطلس، في حين يكثرون من زراعة الحنطة والشعير والقمح الصلب والفاصوليا، إلى جانب القنب والتبغ في

بعض المناطق. ولا تظل الحقول مكشوفة، إذ تُحاط في كثير من الأحيان، شأنها شأن القرى، بسياج من الصبار الشائك، التي تصل ثمارها الحلوة إلى حجم قبضة يد صبي. وفي فصل الصيف، تتفتح نباتات الصبار طويلة الأوراق عن أزهار كبيرة لافتة.

أما في المناطق الغربية، فتمتد سهول واسعة مكسوّة بأجمل أنواع الأعشاب البرية، تشبه في جودتها تلك التي تصان ويعتنى بها في الأراضي الجزائرية من قبل الشركة الفرنسية الجزائرية (Société franco-algérienne).

وكما تزدهر النباتات البرية، كذلك تنمو النباتات النافعة ونباتات الزينة بوفرة. فالبرتقال، الذي يمكن اقتناؤه في سوق تطوان خلال شهر دجنبر مائة حبة مقابل ريال واحد، كثيرًا ما يترك على الأشجار حتى يتعفن لعدم الإقبال على جنيه.

وعلى ارتفاع يقارب 800 متر، رأيت شجرة تين اتسع ظلها لمائة شخص، رغم أنها لم تكن ضخمة على نحو لافت. وبوجه عام، يتميز التين الصغير بجودة استثنائية، وكذلك العنب الذي ينمو بكثرة في المرتفعات، وإن كان في بعض الأحيان لا يبلغ تمام النضج.

أما أشجار التفاح، فتعطي ثمارًا صغيرة الحجم، لكنها تكون وفيرة إلى حدّ أن الأغصان تكاد تتكسر تحت ثقلها في موسم الجني، في حين تنمو ثمار الزيتون والرمان كبيرة الحجم دون عناية تُذكر. كما تنتج أشجار اللوز والخروب والجوز محاصيل موجهة

للتصدير، تُنقل غالبًا على متن المراكب الشراعية نحو جبل طارق.

وبالإضافة إلى ذلك، يلقى كلٌّ من البطيخ والقرع رواجًا كبيرًا، ويزرعان على نطاق واسع.

تُربط هذه الثمار في جزئها السفلي أثناء مرحلة النضج الجزئي، مما يحدّ من استمرار نموها في ذلك الموضع. وعند تفريغ لبّها اللذيذ بعناية لاحقًا، تتحول إلى ما يُعرف بقنينات القرع الشهيرة، التي ترافق المسافرين في أنحاء إفريقيا الإسلامية تحت اسم "القرعة[19]."

أما نخيل التمر، فيُعدّ وجوده نادرًا جدًا في هذه المنطقة.

تغطي شجيرات الدفلى معظم الأودية التي تشق جبال الريف. وفي شهر مايو، حين تتفتح أزهارها الحمراء، تبدو قيعان الأودية كأنها جداول متوهجة بالحياة. شجيرة تلو أخرى، وزهرة إثر زهرة، ترسم مشاهد خلابة تأسر الأبصار.

وفي أعماق البرية، تمتد غابات كثيفة من أشجار البلوط، تفوق في كثافتها غابات المعمورة الشهيرة على الساحل الغربي، وتنتج لحاء الفلين الذي يُشبه ذلك الذي كان يُنقل سنويًا من السواحل الجزائرية والإسبانية إلى موانئ مثل تريستي والموانئ الإنجليزية.

---

[19] يرتبط لفظ "القرعة" في الدارجة المغربية بالإحالة الى القنينات المصنوعة قديماً من القرع عبر تجويفه.

ومع ذلك، يظل هذا المورد، شأنه شأن وفرة الفواكه والثروات المعدنية، غير مستغل على النحو الكافي، بسبب محدودية الوسائل وضعف أنماط الاستغلال السائدة. وغالبًا ما لا يلتفت السكان إلى قيمة هذه الموارد إلا عند احتكاكهم بالعالم الخارجي، حيث يلاحظون الاهتمام الكبير بمثل هذه المنتجات.

تتمايل أشجار الحور النحيلة مع هبوب الرياح، وتنتشر بينها أشجار الأرز والبلوط التي ينساب منها حفيفٌ كئيب. وتمثل شجيرات البلوط الحدّ الأعلى للغطاء النباتي، إذ لا يتجاوز انتشارها ارتفاعًا يقارب 1500 متر فوق سطح البحر.

ولا تقتصر ثمار البلوط على غذاء الحيوانات فحسب، بل تجمعها بعض القبائل الفقيرة بشغف، لتطحنها وتخبز منها خبزًا خشنًا يقيها الحاجة.

أما تين الصبار، فيُعدّ من أكثر الأغذية رواجًا، وهو ثمرة كبيرة لحمية تنتشر بكثرة في مختلف أنحاء الشرق، حيث تُستخدم نباتاته لتحديد البساتين والحقول وتشكيل حواجز طبيعية واقية. وتمتاز هذه الفاكهة بطعمها المنعش، لكنها مغطاة بقشرة تحمل أشواكًا دقيقة بالكاد تُرى، تنكسر عند أدنى لمس، وتخترق الجلد بعمق، مسببة إحساسًا لاذعًا يدوم طويلًا.

يُزرع التبغ في بعض الأماكن، على الرغم من أن الريفي يرفض تدخين التبغ. فهو يفضل الكيف، وهو ما يتم تناوله بالتفصيل في موضع آخر.

استنادًا إلى إحصاءات التجارة المتوفرة، قد تبدو منطقة الريف من الناحية الاقتصادية محدودة الموارد، كما أن حجم التبادل التجاري داخلها يظل ضعيفًا نسبيًا. ولا يكاد السكان يمارسون أنشطة صناعية تُذكر، كما أن إنتاجهم يبقى دون الإمكانات التي تتيحها المنطقة، الأمر الذي قد يؤدي، في بعض الظروف، إلى نقص في بعض ضروريات الحياة.

غير أنّ نمط الحياة القائم على البساطة والتقشف يخفف من حدة هذه التحديات، إذ تظل حاجاتهم محدودة نسبيًا، ويتمكنون في الغالب من تلبيتها بالاعتماد على مواردهم الذاتية.



أزهار الباهرة في ذروة الإزهار.

وبناءً على ذلك، تظلّ التجارة محصورة في الغالب في المواد الغذائية. فكل قبيلة تقريبًا تمتلك من الماشية ما يكفي لاستهلاكها الذاتي، كما تُزرع الحبوب بكميات وفيرة تلبّي حاجات الأسر. وغالبًا ما تتولى النساء نسج الأقمشة بأنفسهن، مما يعكس نمط عيش يقوم على الاكتفاء الذاتي.

وهكذا، فإن هذه الجماعات التي تعيش في هذه الجبال، بطابعها المتقشف، لا تحتاج إلى الكثير من الكماليات.

وبطبيعة الحال، تُشكِّل المدن والمراكز السكنية المستقرة على طول السواحل الشمالية للمغرب نقاطَ تبادلٍ تجاريٍّ حيوية. وتحظى أيامُ الأسواق في تطوان ومليلية وأجدير وأدوز بإقبالٍ واسع من سكان المناطق المجاورة. غير أنّ عدد البلدات الكبيرة يظل محدودًا؛ ولذلك تُقيم كلُّ قبيلةٍ عدةَ أسواقٍ أسبوعية في الهواء الطلق، تُنظَّم في ساحاتٍ فسيحة كأودية الأنهار، والأراضي المنخفضة، وسفوح الجبال، والمساحات الساحلية المفتوحة، حيث يجتمع الناس من مختلف الأنحاء للبيع والشراء وتبادل السلع.

تُعرَض الحبوب — من شعيرٍ وقمحٍ ودخنٍ وسميد — في أكوامٍ كبيرة، إلى جانب الملح الصخري، والعسل على هيئة أقراصٍ أو مُصفّى، وسلالٍ مجدولةٍ من اللحاء مملوءةٍ بالفحم. كما تُعرض الزبدة، الطازجة منها والحامضة، فضلًا عن الدجاج والبيض، والماعز والضأن، والحمير والماشية والبغال والخيول. وبين هذه المعروضات، وتحت أكواخٍ بسيطة من الأغصان أو خيامٍ

متواضعة من الكتان البالي، تنتشر منتجاتٌ متنوعة من الصناعات اليدوية.

ومن بين هذه الصناعات: الأقمشة المخصَّصة لصناعة الجلاليب المقاومة للعوامل الطبيعية، وحصائر الدوم المتينة التي يشتدّ عليها الطلب وتُصدَّر حتى إلى إسبانيا، وغالبًا ما تكون بأبعادٍ تقارب نسبة 1 إلى 3، إلى جانب الحصائر المستديرة التي يبلغ قطرها نحو مترين. كما تُعرض سلالٌ من القصب مشدودة بشرائط من القطن أو الجلد، وشواري متينة تُحمَّل على الدواب، وهي مطلوبة بكثرة نظرًا لاعتماد البغال والحمير كوسيلةٍ رئيسية للنقل.

إلى جانب ذلك، تُعرض أوانٍ فخارية متنوعة، تشمل أواني الطهي والدلاء ذات القاع المستدير، وأباريق الماء المزودة بمقابض، وأطباقًا محدبة القاع. وغالبًا ما تُزيَّن هذه القطع بخطوط سوداء بسيطة، لكنها مع ذلك تضفي عليها مسحةً من الأناقة والجمال.

تحظى قواريرُ القرع ــــ وهي قشورُ قرعٍ مجففة جرى تفريغها بعناية ــــ بإقبالٍ كبير بوصفها أوعيةً لحفظ الماء أثناء الرحلات، نظرًا لخفة وزنها وسهولة حملها. كما تُعرض نعالٌ جلدية متينة للرجال والنساء، ووسائدُ جلدية محشوة بالقش، وكمياتٌ وفيرة من الجلود، فضلًا عن ملاعقَ خشبيةٍ منحوتة تشبه ملاعق الطهي المعروفة. وتُعرض أيضًا طاولاتٌ صغيرة مصنوعة من صناديق قديمة، لا يتجاوز ارتفاعها مترين، إلى جانب أصنافٍ متنوعة من الفاكهة. تلك هي أبرزُ المعروضات التي يجدها الريفي في السوق.

أما السلع الأخرى المعروضة في السوق، فهي موجَّهة أساسًا لتلبية الحاجات اليومية لسكان الريف. إذ يجلب التجار اليهود من طنجة أكياسًا من الدقيق المستورد من فرنسا، إلى جانب معلبات وعلب مرهم للشعر، يعيد السكان استخدامها كأوعية لحفظ الشاي والكيف وأوراق الكتابة وغيرها. كما تُعرض أسلاك حديدية متفاوتة السماكة، وقد علاها شيء من الصدأ، ومسامير لحوافر الدواب، قديمة وحديثة، فضلًا عن دبابيس سلكية مماثلة.

ومن تطوان تصل، إضافةً إلى ما سبق، حقائب جلدية مزينة بأهداب، وأحزمة مستعملة، وأربطة صوفية مخصَّصة للخناجر والحقائب والسبسي، فضلًا عن علبٍ من الخيزران لحفظ التبغ؛ وهي تشكّل مجتمعةً بضاعة البائع المتجول. وإلى جانب ذلك، تتوفر أقمشة قطنية إنجليزية مطبوعة، وشاش مخصَّص لعصائب الرأس، وزجاجات على اختلاف أنواعها. وهذه الأخيرة تأتي من بوهيميا، شأنها شأن كؤوس الشاي المغربية السميكة المعهودة، التي تُشترى من الميناء بثمن خمسةٍ وستين بسيطة حسنية للألف.

كما تُعرض غلايات ماء نحاسية — وهي من السلع النفيسة — وأباريق شاي من القصدير بمقابض خشبية مستوردة من إنجلترا، لا يُستعمل هذا الطراز منها إلا في المغرب. ويُضاف إلى ذلك خناجر من منطقة الريف، وسكاكين جيب نمساوية، شائعة الاستعمال حتى في أعماق الصحراء، ويتراوح ثمنها بين سبع وثماني بسيطات للمائة.

كما يمكن العثور على خيوطٍ خشنةٍ سميكة، وإبرِ خياطةٍ ذات عيونٍ واسعة، وصابونٍ رخيص مرقّط بالأزرق والأبيض من أصلٍ إنجليزي، مع أنّ الريفي كثيرًا ما يصنعه بنفسه من الأعشاب المحلية. وتُعرض كذلك حُليٌّ نسائية بسيطة، وأحيانًا سجادٌ مستعمل قادم من الدار البيضاء أو فاس، إضافةً إلى منافيخ صغيرة لإذكاء الجمر، وقوارير صغيرة زهيدة الثمن من العطور المتواضعة، تُحضَّر في طنجة من قبل اليهود المحليين باستخدام خلاصاتٍ أوروبية. وهذه العطور لا تُستعمل عادةً من قِبل النساء، بل تُرشّ على الضيوف في المناسبات.

وفضلاً عن ذلك، يستطيع ربّ الأسرة الريفي أن يوفّر حاجته من الكيف، سواء كان مجففًا أو طازجًا، إلى جانب التبغ الجاهز للاستعمال.

أما هذا الأخير، فلا يتوافر منه في الأسواق سوى النوع الإسباني العادي، وهو قليل، ويقلّ الإقبال عليه بدرجةٍ أكبر.

لا شكّ أن السلع الأساسية في السوق الأسبوعية تتمثل في الشموع، والسكر، والشاي. ويأتي هذا الشاي جزئيًا من الهند وجزئيًا من الصين، ويدخل البلاد عبر طنجة، غير أنّه كثيرًا ما يتعرّض للغش من قِبل التجار بخلطه بأوراق الصفصاف، الأمر الذي يجعل أسعاره متفاوتة تبعًا لنسبة الخلط. ويمكن الاستدلال على تدني جودته من كون الإبريق الذي يُصبّ منه مرتين قد يحتاج إلى ما يصل إلى عشرة غرامات من هذا الشاي الأخضر.

أما الشموع فتأتي حصريًا من إنجلترا، في علب زرقاء محكمة الإغلاق تزن نصف رطل، وتحتوي بحسب حجمها على قطعتين أو أربع أو ثماني قطع. ويبلغ ثمن العلبة نحو صُلْدِيَيْن اثنين، وتُستعمل فوانيس زيتية معدنية بسيطة ملحومة بالقصدير، وهي من أكثر وسائل الإضاءة شيوعًا، شأنها في ذلك شأن سائر أنحاء الشرق.

وبخصوص الدقيق، فهو مستورد بالكامل تقريبًا من فرنسا ـــ مع وجود كميات محدودة من الدقيق البلجيكي والألماني والنمساوي ـــ ويُفرَّغ في تطوان وتُنتج منه أرغفة صغيرة تزن نحو خمسة أرطال، وفق هيئة مألوفة على طول الساحل المغربي، وتحتفظ بقيمتها التجارية حتى في أعماق الصحراء. وتتفاوت أسعاره؛ إذ يزيد ثمنه في تطوان قليلًا على خمسة صُلْدِيَات، بينما يصل في الريف إلى ستة صُلْدِيَات. أما في سنوات القحط وسوء المحاصيل، فيُتاح في أسواق الريف دقيقٌ فرنسي أقل جودة، يُعرف بلونه الداكن.

لا تُباع السلع الأوروبية المصنَّعة إلا على يد السكان المحليين، وهم أنفسهم الذين يتولّون القسم الأكبر من المبادلات التجارية مع تطوان ومسطاسة والشاون، وكذلك مع الحصون الإسبانية. ولهذا الغرض يحصلون على تصاريح رسمية من زعماء القبائل. وتمتلك هذه الفئة قوارب خاصة ترسو عند مصبات الأنهار، يستخدمونها للتنقّل من الريف إلى المراكز الخاضعة للنفوذ المسيحي أو المدن المغربية. كما قد يسلكون الطريق البرّي، غير

أنهم يحرصون في جميع الأحوال على اصطحاب مسلّحين من أبناء قبيلتهم لضمان حمايتهم.

إنها أرض محفوفة بالمخاطر تلك التي يعيشون فيها؛ فسكّان المغرب، ولا سيما في الريف، كانوا يعتقدون أن سلب "الكفار" عملٌ لا يتعارض مع مشيئة الله. لذلك، كان على المسافرين إمّا عبور أراضي القبائل بسرعة فائقة، أو الاستعانة بمرافِقين يُعرفون باسم «الزطّاط»، يقومون مقام ضمان حيّ لقاء أداء رسوم المرور.

ومع ذلك، لم تكن القوافل التجارية في مأمن دائم، إذ كانت تتعرض أحيانًا لهجمات ونهب، حتى وإن كانت برفقة «زطّاط». غير أن مثل هذه الحوادث كانت تُعدّ استثناءً، وغالبًا ما تُعاد البضائع المسلوبة لاحقًا. وكانت هذه القوافل المسلحة تنطلق من تطوان أو مليلية، محمّلةً بمختلف السلع، وعلى رأسها البارود والخراطيش التي تُستخدم في النزاعات المتكررة.

كما كانت تُشاهد قوافل أخرى محمّلة بالأخشاب، قادمة من الداخل نحو المناطق الساحلية التي تفتقر إلى الغابات، رغم نشاطها في صناعة المراكب. وهناك، تتم مبادلة الألواح والعوارض الخشبية بمنتجات محلية مثل الأسماك والملح والكتان والحُلي النسائية، بل وحتى بالخراطيش. وكانت هذه الأخيرة متوفرة بكثرة في أسواق الساحل، إلى درجة أن تهريب الأسلحة كان يُعدّ من أكثر الأنشطة ربحًا في تلك المناطق.

لا تقتصر الأسواق الأسبوعية على المغرب وحده، بل تنتشر في مختلف أنحاء إفريقيا الإسلامية. وفي المناطق التي تغيب فيها سلطة قائمة، كان يحدث أحيانًا أن يُقدم بعض الغرباء على إطلاق ثلاث أو أربع طلقات نارية وسط الزحام لإثارة الفوضى وتفريق الحشد، تمهيدًا للسرقة. عندها يسارع الناس إلى جمع ما يقع في متناول أيديهم، وينشغل كل فرد بحماية نفسه، فيُفسَح المجال للصوص؛ وهو ما يُعرف بـ"إخلاء السوق."

غير أن الوضع في منطقة الريف كان مختلفًا تمامًا. فقد أُتيحت لي مرتان فرصة مشاهدة مشهد من هذا النوع. فعندما كانت الطلقات تتردد من أعالي المرتفعات المجاورة، كان الرجال يمسكون بهدوء بأسلحتهم التي لا تفارقهم، أي «الخماسية»، ويتخذون مواقعهم خلف جذوع الأشجار أو أكوام البضائع القريبة، ثم يردّون بإطلاق النار في الاتجاه المعاكس. وكان كل شيء يتم بهدوء وانضباط، كما لو كنا في ساحة تدريب عسكرية. وبفضل خبرتهم في استعمال السلاح، كان هؤلاء الرجال يُفشلون محاولات اللصوص، إذ لم تكن أرضهم «أرض تساهل» يُسمح فيها بالنهب والغش دون رادع.

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأسواق لا ترتادها سوى النساء. ونظراً لعدم وجود أي سجلات، فإنه من المستحيل تقديم بيانات موثوقة عن حجم المبيعات اليومية لأحد الأسواق الأسبوعية أو عن إجمالي حجم التجارة في سلسلة جبال الريف بأكملها.

ومع ذلك، يمكن القول إن أهمية الأسواق تختلف بشكل كبير، بل إن عدد مرتادي بعضها يتقلب بصورة ملحوظة. وتلعب الأحوال

الجوية والنزاعات دورًا حاسمًا في هذا التفاوت، إذ قد يحدث أن تظل ساحة السوق في بعض المناطق مهجورة لأشهر متتالية.

وفي هذا السياق، يبرز دور التاجر اليهودي بوصفه فاعلًا أساسيًا في تنشيط المبادلات. فالريفي، رغم كونه صيادًا ماهرًا ومحاربًا شجاعًا، ومجتهدًا في فلاحة أرضه بأدوات بسيطة، لا يُعدّ تاجرًا بطبعه. ولهذا السبب، تعرف بعض الأسواق الأسبوعية—وخاصة في أقصى غرب منطقة غمارة—إقبالًا ضعيفًا، لا سيما حين تُقام أيام السبت، وهو ما يجعل يهود الريف يعزفون عن ارتيادها.

ورغم ما قُدّم من وعود وتسهيلات لتغيير يوم انعقاد هذه الأسواق، فإن الطابع المحافظ للسكان حال دون ذلك، كما أن العمل يوم السبت يتعارض مع المعتقدات الدينية لليهود السفارديم. وهكذا ظلّ الطرفان غير قادرين على الالتقاء في إطار تجاري منتظم.

تشكل الأسواق، في الآن ذاته، فضاءً للتواصل الاجتماعي ورابطةً معنوية داخل مجتمع الريف. ففيها يحضر المعالجون، وتتداول الأخبار، وتُنقل الرسائل بين أفراد القبيلة. وإذا كانت قبيلة ما خاضعة لسلطة سلطان فاس، فإن بلاغاته تُتلى في السوق الأسبوعي ليطّلع عليها الجميع.

كما تُناقش في هذه الأسواق القضايا السياسية، وتُتخذ القرارات الجماعية، ويجري اختيار القادة، والبحث عن معلمي القرآن لتعليم النشء، فضلًا عن الترتيب لزيجات أبناء القبيلة. ولا تقل أهمية عن ذلك وظيفةُ تسوية النزاعات، بما في ذلك الخلافات الدموية، التي تجد في السوق مجالًا للحل والوساطة.

تنتشر الأسواق الأسبوعية في مختلف مناطق المغرب، بل وفي عموم منطقة المغرب الكبير، وهي ظاهرة شائعة تُسمّى عادةً باسم اليوم الذي تُقام فيه، مثل سوق الأربعاء وسوق الثلاثاء وسوق السبت وغيرها.

وباستثناء أسواق قبائل قلعية وكبدانة وغمارة، إضافة إلى المناطق الواقعة فعلياً في جبال الريف، فإن تزويد هذه الأسواق يتم عبر الطرق البحرية. إذ تنقل القوارب، المجهزة بطواقم وأحياناً بمرافقة مسلّحة، منتجاتها المحلية، وتعود محمّلة بالمواد الأساسية والسلع الضرورية.

غالبًا ما يبحرون في منتصف الشهر، حيث يُتوقع حدوث تغيّر في القمر. وعادةً ما يتبدّل اتجاه الرياح في ذلك الوقت — ولكن ليس دائماً! ولساعات طويلة، تتمايل في الميناء قوارب كبيرة صالحة للإبحار، يملكها رجال الريف من غمارة ومتيوة والقبائل الشرقية، وهي قبائل تفضّل قطع مسافات بحرية قد تستغرق أياماً على التعامل مع الإسبان المكروهين في الحصون إلا عند الضرورة.

وينقل هؤلاء الجلود والفحم وثمار الأشجار والماعز والدجاج والبيض وغيرها من السلع إلى طنجة، حيث يعاني سكانها من اضطهاد المسيحيين، ليشتروا من عائدات هذه التجارة ما يرغبون في إحضاره إلى ديارهم. وعندما يرسو الرجال مجدداً على شواطئهم بعد غياب دام أسابيع، تحمل مراكبهم أقمشة ملوّنة وأساور فضية رفيعة للنساء والبنات، إلى جانب أكياس صغيرة

ثقيلة تحتوي على كميات كبيرة من الخراطيش الجديدة لمختلف بنادق القبيلة.

مسألة المال غريبة حقاً.



منظر السوق في كبدانة.



حشد من الناس في سوق السبت، على الحدود بين بني سعيد وغمارة.



قوارب الريف في خليج واد لاو.



"حوض بناء المراكب".

في المناطق الداخلية، تُستعمل بطبيعة الحال العملة الحسنية، أي نفس العملات المعدنية المتداولة في مختلف أنحاء المغرب، مثل الريال ونصف الريال وربع الريال، إضافة إلى عملات فضية منخفضة القيمة. ويتم التعامل بهذه العملات في عموم البلاد، باستثناء بعض المدن الساحلية التي تعتمد العملة الإسبانية، والدار البيضاء حيث يسود الفرنك منذ فترة الاحتلال الفرنسي. أما العملة المغربية التي تعادل "بسيطة" واحدة فهي في الغالب ذات قيمة رمزية، ومع ذلك لا تزال تُستعمل في الحسابات على الساحل الغربي. في المقابل، تبقى العملات النقدية الصغيرة نادرة الوجود، ومن بينها عملة مزيج من النحاس والنحاس الأصفر تُسمى "الموزونة"، حيث يعادل ما بين 25 و32 منها أصغر عملة فضية متداولة.

كما لا تتداول عملة حسابية أصغر، وتُعرف باسم «فلس» (وجمعها فلوس)، وتساوي خمس سنتيم. وقد أدى النقص الحاد في النحاس إلى انتشار العملة الإسبانية في منطقة الريف، كما هو الحال في معظم السواحل المغربية، ولا سيما العملات المعدنية من فئة العشرة والخمسة سنتيموس، المعروفة محلياً باسم "Pera"و "Perita". ويستغل التجار المقيمون في منطقة الريف هذه الاختلالات والتغيرات في الأسعار الناجمة عنها بشكل واسع.

تتباين تسميات العملات باختلاف المناطق. فغالباً ما يُطلق على الريال اسم «دورو» وفق التسمية الإسبانية، وفي هذه الحالة تُسمّى أيضاً أصغر عملة فضية، التي تمثل عشرين جزءاً من الريال،

باسم «ريال» بالصيغة الإسبانية كذلك. وبالمثل، يحدث خلط متكرر بين «فلوس» و«موزونة»، غير أن «فلس» تظل في الغالب أصغر وحدة نقدية، إذ يعادل ما بين خمسة وستة منها "موزونة."

وعلاوة على ذلك، كان يُستخدم في الماضي—وبدرجة أقل في الوقت الحاضر—مصطلح «مثقال الذهب» للتعبير عن المبالغ الكبيرة، وهو بدوره وحدة حسابية غير مسكوكة.

العملات النحاسية ذات الوزن الكامل التي سُكت قبل بضع سنوات غير معروفة في منطقة الريف.

في المناطق النائية المحيطة بالحصون الإسبانية، يجري تداول النحاس والفضة بشكل طبيعي، غير أن العديد من العملات المعدنية من فئة «2 بسيطة» تختفي هناك بشكل ملحوظ، مما يجعل المراكز الإسبانية في المغرب تعاني من نقص دائم منها. وتُعد مناطق الريف الشرقي، ومنطقة آيث ورياغر، وكذلك كبدانة وقلعية، من أبرز المناطق التي تتعامل بالريال الإسباني. كما يمكن العثور هناك أيضاً على عدد كبير من العملات الفرنسية من فئة خمس فرنكات، التي يجلبها المهاجرون العائدون من الجزائر.

ويُحسب الفارق الطفيف بين الفرنك الكامل القيمة و«البسيطة»، التي تقل قيمتها بنحو 10 في المائة عن سعر الصرف، بدقة مماثلة لتلك التي يُحسب بها الفرق بين العملة الحسنية والعملات الأخرى. وتبلغ قيمة العملة المحلية اليوم أكثر من 70 في المائة من قيمتها الاسمية، بينما كانت قبل بضع سنوات لا تتجاوز 65 في المائة أو

أقل. أما داخل الحصون الإسبانية، فلا يتم تداول سوى العملة الإسبانية، ومن يرغب في الحصول على العملة الحسنية هناك يتعين عليه دفع سعر مرتفع.

يوضح الجدول التالي متوسط أسعار صرف الفرنك والبسيطة والريال "دورو" الحسني في طنجة بين عامي 1908 و1910:

السنة	البسيطة مقابل الفرنك		الريال الحسني مقابل البسيطة		الريال الحسني مقابل الفرنك	
	شراء	بيع	شراء	بيع	شراء	بيع
1908	109-110	110-111	138-140	139-140	150-151	152-154
1910	106-107	107-108	135-136	136-137	144-146	145-146

يُرجَّح أن تكون كمية النقود المتداولة في منطقة الريف أكبر مما يُفترض عادةً. ففي إحدى المناسبات، وعند مغادرتي، طلب مني أحد زعماء القرى المقربين أن أساعد أبناء قبيلته في شراء الذخيرة عند عبوري إلى جبل طارق. ولهذا الغرض، سلّمني كيساً يحتوي على 100 ريال حسني. وعندما أبديت ملاحظة مفادها أن العملة الإسبانية هي الأكثر تداولاً هناك، غاب لبعض الوقت ثم عاد حاملاً كيساً آخر، أفرغ ما فيه من عملات فضية ألفونسية في حقيبتي.

وفي حادثة أخرى، كنت أبحر على متن مركب شراعي كبير قبالة ساحل الريف، حين طلب مني ريفيين أن أُقِلّهُمَا إلى طنجة، ووعدا بتقديم المساعدة عند الحاجة. وبما أن المركب كان يضم عشرة

أشخاص، ولم يكن أحدهم يشعر بالأمان الكافي، فقد سلّمني أحدهم كيسه للاحتفاظ به طوال الرحلة، وكان مملوءاً بالنقود من مختلف الأنواع، الفضية منها والنحاسية.

وخلال تلك الرحلة، واجهت أزمة مالية، إذ أبقتنا الرياح المعاكسة عالقين في ميناء أحد الحصون الإسبانية.

شكوت من ضيقي في المقهى الوحيد بالجزيرة، الذي كان يديره رجل أسود، وكان يُعدّ نقطة التقاء للزوار القادمين من الريف عبر تطوان. عندها قال لي رجل ذو لحية رمادية، لم أكن أعرفه من قبل، إن عليّ الانتظار حتى المساء، فربما يتمكن من تدبير أمر النقود. ولم يمهلني فرصة للرد، إذ غادر المكان متوجهاً نحو الميناء، قبل أن يعبر المضيق إلى البرّ الرئيسي.

ومع غروب الشمس، وصل زورق قادماً من جبل سيدي بو يعقوب. نادى ركابه وسألوا عمّا إذا كنت والد الرجل ذي اللحية القادم من تطوان. ولما أجاب مرافقيّ بالإيجاب، اقتربوا من القارب وسلّموني حقيبة ثقيلة، قائلين إنها من فرقة آيث زيان التابعة لقبيلة آيث ورياغر. وعندما فتحتها، تبيّن أنها مليئة بقطع نقدية نحاسية إسبانية، بلغ مجموعها مئة بسيطة بالتمام. فقلت إن هذا المبلغ سيكون كافياً بحمد الله، وإن كان من الأفضل، بطبيعة الحال، أن يكون ضعف ذلك .عندها سألني أحدهم إن كنت لا أزال أرغب في ذلك، فقلت: «هل ما زال بإمكانكم توفير المزيد؟» فأجاب: «ما يكفي لإغراق قاربك!». وفي صباح اليوم التالي، مع بزوغ الفجر، وُضع بين يدي كيس ثانٍ من العملات النحاسية من

فئة 5 و10 سنتيموس، وهذه المرة احتوى أيضاً على بعض القطع الفضية.

وقد سلّمني الناس هذا المبلغ مقابل ورقة بسيطة لم يكونوا قادرين على قراءتها، وكان بإمكاني أن أدوّن عليها ما أشاء، مكتفين بثقتهم في جنسيتي. فقد كانت فكرتهم: إنه ألماني، إذن فهو موثوق! وهي طريقة تفكير قد تبدو غريبة، وربما يصعب على كثير من الأوروبيين استيعابها.

ومن الصعب أيضاً تصوّر ما كان يدور في ذهني آنذاك، حين وجدت نفسي في خليج منعزل وهادئ على ساحل الريف، أحرّر سند دين باللغتين الألمانية والعربية، مستحق الدفع في تطوان عند تقديمه من طرف ورياغري! ولعلّ هذه الواقعة تصلح، في الوقت نفسه، دليلاً على ما كانت تحظى به كلمة «ألماني» من ثقة واحترام في المغرب.

أما وحدة قياس الطول، فكما هو الحال في سائر أنحاء المغرب ومعظم بلدان الشرق الأوسط، فهي «الذراع». ويُقدَّر طول الذراع في المغرب بنحو 57 سنتيمتراً (مقابل 67,7 سنتيمتراً في تركيا وفلسطين)، غير أن المتداول عملياً هو القياس التقريبي، أي الطول من مرفق البائع إلى منتصف إصبعه. ونظرًا لأنه نادرًا ما يتشابه شخصان في البنية الجسدية، فإن هذا يسبب الكثير من الخلافات في كل مكان. ولقياس الكميات المطلوبة من البضائع، يمتلك كل تاجر قطعة خشب مستطيلة الشكل، ينظر إليها المشتري دائمًا بعين الريبة مسبقًا.

تُقاس المساحات، كما هو الحال في معظم أنحاء الشرق، بوحدة «الفدان»، وهي تعادل مساحة العمل الذي ينجزه محراث يجرّه ثور خلال يوم واحد، وتوازي تقريباً فدانين ألمانيين. وفي منطقة الريف، لا يُعتمد عادةً أي مقياس لمساحة أصغر من الفدان.

يعدّ «القنطار» الوحدة القياسية للوزن، وهي تعادل 100 كلغ. غير أن الأوزان المعيارية، كقطع الحديد أو الأقراص النحاسية، لا تتوفر إلا في مدن مثل تطوان وغيرها من الحواضر. أما في أسواق الريف، فيُستعاض عنها في الغالب بالأحجار التي تُستخدم كأدوات للوزن.

وعندما تفد النساء من المناطق البعيدة لشراء الشاي والسكر وبيع الحبوب، يحرصن أولاً على البحث عن أحجار مناسبة للوزن. وغالباً ما تكون صاحبة الحجر الأكبر—أو الأصغر، بحسب طبيعة المعاملة—هي الأكثر قدرة على تحقيق مبيعات أكبر.

كما أن المقاييس الحجمية لا تقلّ افتقاراً إلى الدقة. فالصاع يتكوّن من أربعة أمداد (أي ما يعادل نحو 16 لتراً)، وهذه بدورها تُقسَّم إلى وحدات أصغر، لكنها تظل غير مضبوطة وتخضع لتقديرات اعتباطية. وقد أتيحت لي، في أكثر من مناسبة، معاينة مقاييس سعة صغيرة في الأسواق الأسبوعية، تبلغ سعتها نحو ديسيلترين، ويبدو أنها من أصل إسباني. وكانت تُستعمل أساساً لقياس الزيت، غير أن اسمها لم تحتفظ به ذاكرتي.

في الحصون الإسبانية، لا تُعتمد سوى المقاييس والموازين الإسبانية، وقد استُغلت أحياناً في التعامل مع الزبائن الريفيين

البسطاء بطرق غير منصفة، من قبيل استخدام أوزان مجوّفة، وأكواب ميزان غير متكافئة، أو أواني قياس ذات قاع مزدوج.

وينطبق الأمر نفسه على قياس الطول، إذ يُحدَّد السعر بالمتر عند الاستفسار، سواء من طرف الإسبان أو اليهود الخاضعين لحمايتهم، بينما يتم القياس فعلياً بالذراع، وهو ما يؤدي إلى نقصان يقارب 20 في المائة. وكثيراً ما لا ينتبه الزبون الريفي إلى هذا الفارق.

لا توجد في هذه السلسلة الجبلية طرق بالمعنى المتعارف عليه، كما أن طرق القوافل، وفق المفهوم المغربي، تظل محدودة. ومع ذلك، تنتشر مسالك عديدة للبغال تمتد من قبيلة إلى أخرى، وغالباً ما تمر عبر مرتفعات شاهقة، بمحاذاة منحدرات حادة، أو على طول أودية عميقة، وفوق تلال صخرية، وأحياناً تتعرج داخل الوديان نفسها.

وتشق هذه المسالك طريقها بين شجيرات الزيتون البري وغابات البلوط، مروراً بالحقول وعلى امتداد الجداول، بل وأحياناً عبر مجاريها، التي نادراً ما تتسع بما يكفي لمرور بغلين محمّلين جنباً إلى جنب بسهولة. وتنتشر في هذه البيئة مواضع لا تُحصى يمكن أن تُستغل لنصب الكمائن أو لتنفيذ أعمال الثأر بعيداً عن أعين الشهود.

في مثل هذه المنعطفات بين الوديان، وعلى الممرات الضيقة المحفورة في جدران الصخور الشاهقة، وفي عزلةٍ بعيدة عن العالم، كثيرًا ما تقع أحداثٌ درامية لا يكاد العالم المحيط يسمع بها،

أو لا يسمع بها إطلاقًا. وسأورد هنا بعض الأمثلة الصغيرة، حوادث سمعتها أو عشتها بنفسي، مقتطفات عفوية ومتفرقة من مذكّراتي خلال عامي 1908 و1909، مشاهد وقصصًا كما هي شائعة في مختلف مناطق الريف.

ركبتُ أنا وحميد الفقيه عبر بني سعيد. وعند عبور أحد الأودية، انضمّ إلينا رجل، فأجاب باقتضاب عند سؤاله عن موطنه قائلاً: "من الفوق". وكان يمشي بخطوات واسعة، فيتوقف فجأة إلى جانب خيولنا، ثم يتركنا نتقدّم أمامه عند كل منعطف. ومع كل التفاف في الطريق، كان ينحرف جانبًا ويسلك مسارًا جانبيًا قصيرًا، ثم يعود فيلتحق بنا من جديد.

كان الرجل، على ما يبدو، لا يبحث إلا عن رفقة خلال عبوره المناطق التي لا تربطه بها علاقات أو تربطه بها علاقات محدودة، وهو أمر كان واضحًا. وعند المنحدر الشمالي لجبل سيدي رحمون، دوّى فجأة صراخٌ من مسافةٍ قريبة في اتجاهنا.

رفعنا جميعًا بنادقنا دون وعي، لكن سرعان ما دوّى صوت طلقة، فسقط رفيقنا الغريب. قفزنا من على السروج كالصاعقة، وانطلقنا خلف خيولنا بحثًا عن قاطع الطريق. وفي تلك اللحظة، سمعنا صوت إعادة تعبئة بندقية، ثم جاء النداء: "السلام عليكم... السلام عليكم، أهلًا بكم!". عندها أدركنا حقيقة الموقف، فعُدنا إلى خيولنا وواصلنا طريقنا.

بعد ذلك، خرج رجلٌ من قبيلة بني سعيد من بين الشجيرات، وبندقية ماوزر معلّقة على كتفه، فأخذ بندقية القتيل وجلبابه. ثم

قال: "إذا رأيتم في طنجة أو غيرها رجالًا من العشيرة... فقولوا إن الشيخ قد عثر عليه جثة هامدة"!

الثأر! ماذا كان يعني له هذا الأمر؟ ما واجب الدم؟ وما شأن الغريب بكلّ ذلك؟ شجعانٌ وجريئون هم رجال الريف.

لكن يُقال أيضاً: «لا تشترِ أبداً ما لا تحتاج إليه!». فهل كان ينبغي لنا أن نشتري ثأر الدم؟

كان أحد سكان قرية من الشرفاء قد خرج من منزله ممتطياً حماره الصغير، متجهاً شمالاً نحو سبتة، حين ناداه رجلان من قبيلة أنجرة. طلبا منه أن ينزل عن حماره، وأن يخلع جلبابه، ويتخلى عنهما، على أن يُسمح له بعدها بمواصلة طريقه دون عائق.

نزل الرجل بالفعل عن حماره، لكنه بدلاً من تنفيذ ما طُلب منه، استلّ سكينه وانقضّ عليهما. أطلق الاثنان النار فأخطآ الهدف، ولم يُتح لهما الوقت لإعادة تعبئة سلاحهما، إذ كانت السكين قد غُرست في صدر أحدهما، بينما تدحرج المهاجم مع الآخر بين الشجيرات في عراك عنيف. وما هي إلا لحظات حتى نهض المسافر، وركل الضحية مرة أخرى، واستولى على السلاحين والملابس، ثم عاد بهدوء ليجلس على حماره الرمادي الصغير ويواصل طريقه.

كان ذلك في يوم رأس سنة عام 1909. وكانت النتيجة المباشرة زيادة الطلب على البنادق متعددة الطلقات، إذ لو كان بإمكانهما إطلاق النار عدة مرات متتالية، لربما كانت النهاية مختلفة تماماً.

غالباً ما يلقمنا القدر إحدى حيله. فقد تتعرض قرية صغيرة، في أي لحظة، للسرقة والنهب على الطريق الرابط بين الفنيدق والشاون، وهو أمر ليس بالاستثنائي في تلك النواحي. غير أن ما هو أقل شيوعاً هو أن يُهاجم أفراد من عشيرة أخرى الجناة الخمسة المنتمين إلى قبيلة الأخماس، لا لردّ الاعتداء، بل للمطالبة بمشاركتهم الغنائم.

ومن يعرف الأمازيغ عمومًا، وأهل الريف على وجه الخصوص، يدرك أن مثل هذه "الرغبة الودية" لم يكن من المرجّح أن تُقابل بالاستجابة، وأن الأمور سرعان ما آلت إلى مواجهةٍ مسلّحة. وقد أسفر الاشتباك عن مقتل أربعة رجال وإصابة آخرين بجروح، الأمر الذي دفع المنهوبين، الذين كانوا يراقبون من بعيد ذلك الصدام الدموي، إلى التقدّم واستعادة أموالهم بعدما رجحت كفّتهم عدديًا.

وقد روى لي هذه الحادثة أفرادٌ من قافلة حميرٍ قادمة من واد راس، وذلك في مقهى الحاج منصور الشهير بتطوان، قبيل مغادرتي المدينة بوقتٍ قصير.

خلال إقامتي في مليلية سنة 1908، كانت الأوضاع شديدة الاضطراب، تتخللها المعارك المتواصلة ضد بو حمارة، الذي أصبح موقفه حرجًا بعدما توحّدت قبائل الريف الشرقي في مواجهته. وفي أحد الأيام، كنت أمتطي حصاني برفقة مساعدي الشخصي علي، متجهين جنوبًا نحو سلوان. وعند تجاوزنا تلةً في الثلث الأخير من الطريق، لمحنا غربانًا تنعق عند حافة مجرى

نهرٍ جاف، فيما كانت النسور تحلّق فوق المكان. هه! جثة حيوان. لكن عندما اقتربت، أدركت أنها جثة بشرية. كان الجسد العاري ممدداً بلا حراك في دماء متخثرة، وحنجرته مقطوعة وجرح طلق ناري في رأسه. قفزت عن دابتي دون وعي، وكذلك علي.

وكانت حقيبته ومعطفه ملقيين إلى جواره. فتّش علي جيوبه وأطراف ملابسه، فعثر على بعض المال وحزامٍ جميل، ما دلّ على أنّ الحادث لم يكن بدافع السرقة. عندها قال بأسى: "يا للمسكين"، ثم استقبل القبلة وتمتم بصلاة الجنازة.

وعند المنعطف التالي للطريق، اعترضتنا مجموعةٌ من الفرسان. فتقدّم أحدهم نحونا قائلاً: "ما الذي تريدونه من رجلٍ لم يعد بين الأحياء؟ دعوا الموتى يرقدون بسلام وواصلوا طريقكم، فالمترصّدون لا يعرفون دائمًا من تكونون. ولولا وجودي هنا، لكان إخوتي قد أطلقوا النار من بنادقهم بدل أن أحدثكم الآن. والسلام"!

فأجبت: "الله أعلم... الله وحده يعلم!"، وأنا أتأمل الوجوه العابسة للرجال الملتحين.

وعندما مررت بالمكان نفسه بعد بضعة أيام، كان جثمان القتيل قد غُطّي بالأعشاب والأغصان. ولم أتمكّن قطّ من معرفة هويته.

ويُظهر الحادث التالي أن المرء قد يتلقّى درسًا قاسيًا حتى من غير قصد. فقد قمت برحلةٍ على الأقدام برفقة اثنين من رجال قبيلة قلعية، عبر جبل ورك في اتجاه منطقة آيث سعيد الشرقية. وكنا لا نزال في نطاق آيث بوغافر ــــ الذين كانوا أول من هاجم الإسبان

لاحقًا ـــ في السهل المتموّج الممتد شمال مصب وادي كرط نحو البحر، حين سمعنا إطلاق نارٍ كثيف.

بدافع الفضول، حاولتُ استكشاف ما يجري خلف سلسلة التلال، غير أنّ جموعًا من الناس بدأت تتدفّق من الأعلى في حالة من الفوضى: بعضهم سيرًا على الأقدام، وآخرون على ظهور الحمير والبغال، إذ كانت مجموعتان متنازعتان على وشك الاشتباك. وأخذ الفارّون والمطاردون يتبادلون إطلاق النار، فاستدرتُ على عجل محاولًا اللحاق بمرافقيّ.

وفجأةً، شعرتُ بضربةٍ قوية على السرج، تلاها صوتٌ حادّ كارتطام رصاصةٍ بمعدن، مع وخزةٍ خفيفة في قدمي. وكان أول ما خطر ببالي: "لحسن الحظ أنّ الناس في إفريقيا يفضّلون السروج العريضة!". وعندما توقّفنا لاحقًا في مكانٍ آمن قرب الساحل، لفت أحد رفاقي انتباهي إلى أثر دمٍ كان يمتدّ على طول الطريق. عندها أدركتُ أنّني أُصبتُ بجُرحٍ طفيف؛ إذ ارتطمت الرصاصة بالجانب الداخلي من السرج الأيسر ثم ارتدّت لتصيب قدمي.

كان الدم ينزف بغزارة من جرحٍ واسع، غير أنّه لم يكن عميقًا. مزّقتُ شرائط من القماش وضمّدتُ بها الجرح. وقد التأم منذ زمنٍ بعيد، غير أنّ أثره سيظلّ ظاهرًا إلى الأبد.

طلقةٌ خفيفة، جرحٌ آخر في الجسد ـــ لم يكن ذلك يعني الكثير. لم تكن الأولى، وربما لن تكون الأخيرة، فهذه الأراضي الواسعة يسكنها بشرٌ قلقون. غير أنّ تلك القطعة الصغيرة من الرصاص

كان يمكن أن تصيب موضعًا آخر، وعندها... "كان لا بدّ أن يأتي أحد إخوتك ليأخذ بثأرك، إن شاء الله"!

كان أحد أصدقائي الريفيين يردد ذلك من حينٍ لآخر. غير أنّ حكمة الله لم تمنحني أخًا، ولو كان لي أخ، لكان من الصعب—وفق التصوّر السائد هناك—أن تتوافر فيه الشروط اللازمة للوفاء بمثل هذا الواجب.

لقد حدث غير ما مرة أن كنت أسير أو أمتطي دابتي عبر قيعان الوديان، بينما كانت مجموعتان متناحرتان تتبادلان إطلاق النار فوق رؤوسنا. في حدّ ذاته، لم يكن ذلك بالغ الخطورة، نظرًا لما يُعرف عن دقّة تصويب أهل الريف. غير أنّ الخطر كان يكمن في احتمال أن يظنّ من يوجد على المنحدر المقابل أننا من أنصار الطرف الآخر، وعندها قد يصبح الموقف حرجًا. وفي مثل هذه الحالات، كنت ألوذ أنا وحيواناتي بأقرب شجيرة، وننتظر حتى يفرغ "الجيران" من حل خلافاتهم.

وقد تكرر معي أيضًا أن سمعت فجأة صوت طلقة، ثم تسقط الرصاصة على مقربةٍ مني. في البداية، كنت أهبط بسرعة من على السرج، أو أندفع—إن كنتُ ماشياً—نحو أقرب ساتر، موجّهًا بندقيتي نحو الجهة التي صدرت منها الطلقة. ولم أكن أفهم لماذا لا يفعل رفاقي الشيء نفسه، بل كانوا يضحكون ملء أفواههم.

إلى أن أدركتُ أخيرًا أنّ تلك الطلقات لم تكن سوى "تحيّة" من أصدقاء يراقبوننا من مرتفعٍ قريب بعد أن تعرّفوا علينا. ولا شكّ أن مثل هذه التحيّة تبدو أقرب إلى عادات رجالٍ اعتادوا القتال،

غير أنّ المهارة في الرماية لا تعني العصمة من الخطأ دائمًا. ولتفهم مثل هذه العادات، ينبغي أن تكون إسبرطيًا—عفوًا، أعني ريفيًا.

ولا بد من ذكر تجربة أخرى غريبة للغاية.

في صيف عام 1908، اضطررتُ، برفقة خادمي علي، إلى عبور جبال أنجرة انطلاقًا من طنجة في اتجاه الحامية الإسبانية بسبتة. وقد تلقيتُ نصائح متكررة تحذّرني من الإقدام على هذه الرحلة، إذ لم أكن معروفًا في تلك المناطق آنذاك كما أصبحتُ لاحقًا.

كنتُ أعلم أنّ الأمور قد تنفلت بسهولة، لذلك حرصتُ على حمل أقلّ قدرٍ ممكن من المال، ولم آخذ معي أيّ سلاح، بل اخترتُ أسوأ الخيول التي استطعتُ العثور عليها. ومع ذلك، ساءت الأمور فعلًا: فلم أجد مأوىً للمبيت، وأظهر سكان القرى التي مررنا بها جانبًا قاسيًا من طباعهم.

وفي اليوم التالي، وقبل دخولي مجال جماعة بلعيش، اعترضني عددٌ من رجال الحراسة التابعين لهذا الفرع المقاتل من القبيلة. سألتهم عن قيمة الغرامة المفروضة، فجاءني الجواب هادئًا لكنه حازم: "كل ما معك!". حاولت التفاوض بما أستطيع من دبلوماسية، دون جدوى. عندها تنهدت، وأفرغتُ حقيبتي، وسلّمت ما كان بحوزتي من بضع بسيطات بالعملتين الإسبانية والمغربية.

وإلى جانب ذلك، سلّمتُ لهم سكين جيب وساعة يد كنتُ قد اشتريتها في فيينا بثمن 4.30 كرونات. ولم يخلُ الأمر، بطبيعة

الحال، من تضرّعٍ جهيرٍ إلى الله بأن يُنزل غضبه على من ينهبون المسافرين المسالمين.

عندها قال قائدهم: "من الذي دعاك إلى هنا؟ ولماذا لا تبقى بعيدًا أنت وإخوتك من بلاد المسيحيين؟ أينما حللتم نشرتم الفساد وأيقظتم أسوأ الشهوات، وأفسدتم ما غرسه النبي في قلوبنا من خير. فلماذا تشتكي إن كنت أفعل الشيء نفسه؟ هنا لا يسري إلا كلام العربي بلعيش. لو بقيت في طنجة التي تعاني من وجود المسيحيين، أو في الشرق حيث يقيم الإسبان (سبتة)، لما اضطررتَ إلى الخضوع لما نفعله هنا. ولو لم تكن ألمانيًا، لأخذنا خيولك أيضًا، بعون الله! السلام"!

فأجبته: "السلام"، ثم ابتعدتُ وأنا ألعن حظّي. وبعد نحو ساعة، أوقفني مجددًا ثلاثة مسلّحين، وتكرّر الأمر ثماني مرّات، فكنت أجيبهم بأسى أنني قد جُرّدتُ من كل ما أملك منذ قليل.

لم يَرُق ذلك لهؤلاء السادة الأوغاد، فقالوا: "يمكنك أن تعطينا الخيول". فأجبت: "لا أستطيع، إذ ينبغي لنا أن نصل إلى سبتة، إن شاء الله!". فقالوا: "إذن عليك أن تدفع فدية، وإن لم يكن لديك مال، فسلّم الدواب."!

فقلت: "هذه ليست ملكي، بل تعود لأرملةٍ فقيرة—حفظها الله— وعليّ أن أعيدها إليها."

وفي النهاية، اتُّفق على عرض الأمر على سيدي حسين، أحد رجال القبيلة المقيمين في الجوار.

كان ذلك المحتال العجوز يتمتّع بنفوذٍ كبير، وقد عُرف ببخله الشديد. ومع ذلك، كان من الممكن التفاهم معه بعقلانية. وعندما صعدنا إليه، دخل الرجل الطيّب في جدالٍ مع رفاقي اللصوص حول الغنيمة؛ إذ ادّعى أنّه ينبغي منحه سكين الجيب، غير أنّ الآخرين لم يوافقوه. وكاد الأمر أن يصل إلى حدّ استدعائي للتحكيم. وفي النهاية، مقابل هديةٍ صغيرة، استقبلنا في منزله، وقدّم لنا عنبًا لنأكله، وعيّن رجلًا عجوزًا لمرافقتنا إلى سبتة كضمانٍ حيّ.

خلف "الفندق" الضخم، الذي يرتفع عالياً فوق ممرٍّ جبليٍّ مغطّى بالأشجار، كأثرٍ باقٍ من حكم السلطان إسماعيل (القرن الثامن عشر)، اندفع نحوي ثلاثة رجال من أنجرة قائلين: "اسمع أيّها المسيحي، تعال معنا!". فأجبت: "لا أفكّر في ذلك حتى في أحلامي!". فقالوا: "لكن عليك أن تفعل، لأن الشيخ العربي يحتاج إلى مساعدتك!". فقلت: "وماذا به؟". فأجابوا: "لا شيء، غير أنّ بطنه أُصيب بعددٍ كبير من الرصاصات". فقلت: "الرحمة والعون من عند الله! لكنني لن أذهب معكم، فقد أساء إليّ إخوانكم". نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض في دهشة، ثم سأل أحدهم: "هل أنت الألماني الذي مر بجبالنا؟". فقلت: "نعم، والذي نهبتموه. فليشوِ آباؤكم في أشدّ الأماكن حرارة. أنا صديقٌ لجميع المؤمنين إذا كانوا صادقين، لكن لا أريد أن تكون لي أيّ علاقة باللصوص! هيا يا علي، لنكمل رحلتنا!". وفي اليوم التالي، تناقلت مقاهي طنجة قصة الشيخ العربي وبو اللحية. والعدل عند الله، الرحمن الرحيم. السلام!

هذه حكايات صغيرة من الحياة اليومية في منطقة الريف، وتجارب عشتها على طرقاتها.

تخترق قيعان الأودية مساراتٌ طويلة كثيفة الاستعمال، تتقاطع معها دروبٌ مخصّصة لمرور الحيوانات. أمّا الطرق الكبرى التي تعبر المنطقة بأكملها، فيُشار إليها عادةً عند تناول كل قبيلة على حدة. ورغم أن العديد من المجاري المائية المتجهة نحو البحر الأبيض المتوسط تبدو صالحة للملاحة، فإنها لا تُستغل لهذا الغرض، باستثناء مصباتها، حيث تقتصر الحركة على القوارب البحرية التي تبحث عن مراسٍ آمنة أو تنتظر استئناف رحلاتها.

ولا يكاد يوجد مجرى مائي صغير يُستعمل فعليًا للملاحة. أما نقاط العبور الممكنة فهي معروفة جيدًا لدى أفراد القبائل، وغالبًا ما يتطلّب الوصول إليها سلوك مساراتٍ جانبية طويلة. وتُعبر الأنهار الأوسع بواسطة قوارب خفيفة، وقد صادفتُ في وادي لاو، في هذا السياق، طوفًا صغيرًا مصنوعًا من الأغصان والقصب. غير أنّ الريفيين لا يستعملون الطوافات المصنوعة من القش، كما هو شائع في مناطق جنوب المغرب.

تزدهر صناعة القوارب في المنطقة بشكلٍ لافت، إذ توفّر غابات البلوط الكثيفة مادّة الخشب بوفرة. وعلى الرغم من أنّ قارب "الفلوكة" الريفي قد لا يبدو للوهلة الأولى موثوقًا، فإنه يتمتّع بقدرةٍ مدهشة على الإبحار. تمتدّ العوارض المصقولة بانسياب من مؤخرة القارب إلى مقدمته، فيما تشكّل العارضة السفلية الأعرض عموده الفقري، وتتجاوز أطرافها جانبي الهيكل. وتربط الألواح

القوية داخل القارب بين هذه العوارض الطولية الخشنة، بينما تغلّف ألواحٌ ملساء هيكله من الخارج.

تُحشى الفجوات بين الألواح بالصوف والقماش، ثم يُطلى القارب بالقطران، وأحيانًا باللون الأبيض. ونادرًا ما تُزيَّن هذه القوارب بخطوطٍ زخرفية بيضاء وحمراء، وهي ألوان مصدرها تجّار إسبان في طنجة أو مليلية.

وعند مصبّ وادي مارتيل تُبنى قوارب أكثر جمالًا، وغالبًا ما تُستكمل صناعتها في طنجة. وينطبق الأمر نفسه على الساحل الغربي للمغرب حتى مدينة آسفي، في حين تبدو القوارب جنوب ذلك أكثر بساطة، على غرار قوارب الريف. غير أنّني أشكّ في أن فلوكات طنجة الجميلة قادرة على الصمود أمام العواصف التي يتعيّن على القوارب المبنية على السواحل الصخرية للريف أن تتحمّلها.

يمتدّ الصاري عادةً من الثلث الأمامي للقارب، مائلًا نحو الخلف، ويحمل على عارضةٍ واحدة شراعًا كبيرًا مثلث الشكل، يمكن قلبه بسرعة عند تغيير اتجاه الإبحار. ويُرفع هذا الشراع بواسطة بكراتٍ خشبية بسيطة. أمّا في الميناء، فتُشدّ القوارب الطويلة بحبالٍ محكمة على طول هيكلها.

وكلّ قارب، حتى أكبر المراكب الشراعية، مُجهّز للتجديف؛ ففي حال هبوب رياحٍ معاكسة أو سكونها التام، يتولّى رجال الريف، بما يملكونه من قوّةٍ بدنية، دفع القارب الثقيل بالمجاديف، في عملٍ

قد يستغرق أيّامًا لنقله من مكانٍ إلى آخر، لمسافات قد تصل إلى مائة كيلومتر أو أكثر.

تتكوّن المجاذيف عادةً من جذوعٍ رفيعة مصقولة، تنتهي بألواحٍ خشبية طويلة في أسفلها. وعلى خلاف ما هو شائع في مناطق شرق البحر الأبيض المتوسط، لا يُثقَل المقبض لتسهيل العمل. وترتكز المجاذيف على مسامير خشبية داخل حلقاتٍ متعددة، ونادرًا ما تُستخدم الشوكات الحديدية. يعمل الطاقم بتناغمٍ إيقاعي، ويشجّع بعضهم بعضًا بالغناء خلال الرحلات الطويلة. فبعد كلّ ضربة مجذاف، ينهض البحّار ويميل إلى الأمام بقوّة ليتمكّن من السحب، ثم ينحني إلى الخلف ليستقر جالسًا على العوارض العرضية التي تربط جانبي القارب وتُستخدم كمقاعد.

أمّا التوجيه فيتمّ بواسطة مجدافٍ عادي، في حين تكون المرساة في الغالب حجرًا بحجم الرأس مربوطًا بحبل، أو أحيانًا شبكة صيدٍ مملوءة بالحجارة، ونادرًا ما تكون قطعةً حديدية كبيرة أو مرساةً حقيقية من أصلٍ إسباني أو فرنسي. ويمكن استخدام قدرٍ من صنع أوروبي أو أقماع القرع المجفّفة لتصريف المياه المتسرّبة.

من اللافت أنّ العديد من الكلمات والمصطلحات الإسبانية لا تزال متداولة في الملاحة البحرية بمنطقة الريف، ولا سيّما في ما يتعلّق بالمجاديف والتجهيزات والقوارب. فيطلق البحّارة على مقدّمة القارب اسم *Prua*، وعلى المجاديف *Remos*، وعلى الصاري *Palo*.وتُعرف أوعية الماء باسم *Tonela*، وتُسمّى الأشرعة غالبًا

Vela، أمّا حبل رفع الصاري فيُعرف بـ(*Schuga*وأصله *soga* في الإسبانية)، إلى جانب تسمياتٍ أخرى كثيرة لم تُنقل دائمًا بدقّة.

وتكتسي التقاليد البحرية لدى هؤلاء البحارة أهمية خاصة، إذ تشكل جزءاً أساسياً من ممارساتهم اليومية وهويتهم المهنية.

لا يشرع البحّارة أبدًا في رحلةٍ طويلة دون استحضار وليٍّ خاصّ يحظى بثقتهم. فالقِباب الكثيرة التي تعلو الصخور وتلمع فوق سطح البحر تحظى باحترامٍ عميق، حتى من قِبل أولئك الذين لا ينتمون إلى القبيلة التي يقع فيها الضريح.

وخلال عاصفةٍ شماليةٍ شديدة، تجاوزت فلوكتنا ذات مرة، بشقّ الأنفس، رأسًا صخريًا تعلوه قبةٌ بيضاء لامعة. عندها أخذ اثنان من رجالي قطعًا من الخبز وألقيا بها في الأمواج الهائجة وهما يهتفان: "باركنا يا سيدي**!** كن معنا**!**". وكان ذلك بمثابة قربانٍ حقيقي.

ومن جهةٍ أخرى، تُقدَّم للأولياء، على الطرق البرية والبحرية، الشموع والزيت والصدقات للفقراء. وقبل انطلاقنا في رحلةٍ بحرية طويلة، قدّمتُ ذات مرة قنينة زيت إلى ضريح سيدي أبو يعقوب قرب حاضرة باديس القديمة، طالبًا البركة في السفر، وهو ما أكسبني ودّ رجالي.

وعندما وصلنا سالمين إلى مارتيل بعد رحلةٍ شاقة، عزى الجميع ذلك إلى أنني، على الرغم من كفري المثير للشفقة، أقترب—ولو قليلًا—من مواقف المسلمين الأتقياء. بل إن رجال الميناء القساة

في تطوان أبدوا لي احترامًا لافتًا، وهو أمرٌ نادر، إن لم يكن مستحيلًا، بالنسبة لمسيحيّ على الساحل الشمالي للمغرب. وكان كلّ ذلك بفضل مقدارٍ بسيط من زيت الزيتون.

لا يعرف سكان الريف عن أدوات الملاحة البحرية ما يعرفه سكان سواحل المغرب الأخرى. صحيح أن لديهم معرفة فلكية محدودة، ويسترشدون أحيانًا بالنجم القطبي أو (في أغلب الأحيان) بنجم الكلب الجبّار، لكنهم يكرهون الإبحار ليلاً. ويفضلون بدلاً من ذلك البحث عن خليج هادئ عند غروب الشمس. وإذا كان على متن القارب شخص لديه معارف بهذا الموقع الساحلي، فإن القارب وركابه يكونون موضع ترحيب. وإلا، فإن الأمر يتطلب مشادات كلامية مطولة وصاخبة، فليس هناك قبيلة تحب غرباء على شواطئها، خاصةً أثناء الليل.

غالبًا ما يُطرد الوافدون فورًا من قبل حُرّاس كلّ قبيلة على امتداد المنطقة الجبلية، وإن لم يحدث ذلك سريعًا، فإن البنادق سرعان ما تتكفّل بحسم الموقف. فالريف منطقةٌ وعرة وغير آمنة، يسكنها أناسٌ شديدو البأس، يحملون من الأسباب ما يجعل الحذر وعدم الثقة سمةً بارزة في تعاملهم مع الغرباء، بل وحتى فيما بينهم!

يتّضح مما سبق أنّ الملاحة تظلّ في الغالب محصورة ضمن نطاق السواحل. وتمتدّ أطول الرحلات انطلاقًا من مصبّات الأنهار والموانئ الرئيسية على طول الساحل الصخري، من رأس هرك مرورًا بتطوان، وربما وصولًا إلى طنجة—تلك المدينة التي يُنظر إليها بازدراء، والتي يعاني سكانها من اضطهاد المسيحيين، لكنها مع ذلك تحتفظ بجاذبيةٍ خاصة.

ويُلمّ ابن الساحل بمعالم الطريق البحرية إلمامًا دقيقًا؛ فهو لا يعرف فقط نتوءات الجبال، بل يميّز أيضًا البيوت البيضاء المنتشرة هنا وهناك، والتي تلمع فوق الصخور الداكنة أو وسط الخضرة الباهتة، فتؤدّي دور علاماتٍ إرشادية لا غنى عنها للبحّارة. كما يعرف كلّ مسافر وربّان قارب العائلات المنتمية إلى الفصائل القبلية المختلفة التي تقطن المواقع التي يمرّ بها.

وكثيرًا ما يُنادى من الشاطئ على القارب لنقل رجلٍ إلى الميناء التالي، أو حتى إلى موضعٍ لا يُمكن بلوغه برًّا إلا بعد رحلةٍ شاقة أو محفوفةٍ بالمخاطر. وغالبًا ما يُستجاب لمثل هذه النداءات، إذ يرتبط الأمر بحرمة الضيافة، وهي قيمةٌ راسخة لا يُستهان بها؛ فلا يكاد يوجد ريفيّ يتجاهل طلب الضيافة دون سببٍ وجيه.

وأحيانًا، تجرؤ بعض القوارب المتينة على عبور المضيق نحو جبل طارق، حيث يمكن مشاهدة أبناء الجبال بزيّهم التقليدي، يتجوّلون بدهشةٍ ظاهرة، يراقبون الشوارع النظيفة وحركة المرور الكثيفة بفضولٍ وإعجابٍ لا يكادان يُخفَيان.

يبدو شديد التفاعل مع النظام الصارم السائد في هذا الملاذ الصخري الإنجليزي، بل ويستحسن، بشيءٍ من الرضا، أن يُفرض على كلّ إسباني لا يحمل تصريحًا خاصًا مغادرة المدينة عند غروب الشمس والتوجّه إلى بلدة لا لينيا الحدودية، في مشهدٍ يذكّره، على نحوٍ لافت، بما يفرضه خصومه في سبتة ومليلية على أبناء الريف.



حقيبة كتف (الشاكوش)

وبالفعل، يمكن ملاحظة أن الموظفين الإنجليز ومن تأثّروا بثقافتهم هناك لا يعاملون تجّار الريف بالطريقة نفسها التي يُعامل بها التجّار المغاربة الآخرون، الذين يقيم نحو مائةٍ منهم في جبل

طارق. كما تُظهر المدينة قدرًا أكبر من الاحترام للقنصل المغربي الوحيد الموجود بها، مقارنةً بما يُمنح لنظيره الإسباني في تعاملاته اليومية.

ومن جهةٍ أخرى، نادرًا ما يُشاهد أحد أبناء الريف في حالة سُكر يتمايل في الأزقة، أو يثير الفوضى في الشوارع، أو يتخلّف عن دفع مستحقات مشترياته. ولم يُعثر قطّ على سكينٍ خطير بحوزة أحدهم، بل غالبًا ما لا يحملون سوى سكاكين جيبٍ عادية. وإذا ما حدثت مشكلات مع سلطات جبل طارق، فإنها تُعزى في الغالب إلى أعمال احتيال يقف وراءها مجرمون إسبان، لا إلى سلوك أبناء الريف أنفسهم.

لكن قوارب الريف لم تقتصر دائمًا على الإبحار في مياهها القريبة. فقبل بضعة عقود فقط، كانت هذه المراكب الشراعية البسيطة، على تواضع تجهيزها، تبثّ القلق في أرجاء واسعة من غرب البحر الأبيض المتوسط. وقد ظلت، منذ عصورٍ بعيدة وحتى ظهور السفن البخارية، قوةً يُحسب لها حساب في مضيق جبل طارق.

ورغم أنّ غاراتها لم تمتدّ إلى بحر الشمال، فإنها كانت تظهر مرارًا على السواحل الإسبانية، حيث تهاجم وتنهب وتحرق، وتقضي على كلّ من يحاول مقاومتها. وعلى الرغم من ضعف تجهيزها بشكلٍ يكاد لا يُصدّق، فقد كانت تهاجم بجرأةٍ لافتة سفنًا تجارية أوروبية تفوقها حجمًا وتسليحًا. وكان مجرّد رفع الراية الحمراء القانية كفيلًا بإثارة الذعر في نفوس البحّارة المسيحيين،

حتى كأنهم ينسون قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم. هكذا كان وقع الرعب الذي خلّفه قراصنة الريف.

ومع ذلك، لم يحظَ هؤلاء القراصنة بالدعم الذي ناله نظراؤهم في مناطق مغاربية أخرى من سلاطينهم. بل على العكس، فقد أقرّ سلاطين فاس، في أكثر من مناسبة، بعجزهم عن إخضاعهم. وبينما كانوا يعقدون تحالفات مع قراصنة الرباط والعرائش وغيرها، ويضمنون قدرًا من الدعم مقابل نصيبٍ من الغنائم، ظلّ من المتعذّر عليهم فرض أيّ سلطةٍ رادعة على رجال تلك المنطقة الأمازيغية التي عُرفت بروحها الاستقلالية.

أدّت المفاوضات المطوّلة، التي نتجت عن الخلافات المستمرة مع الدول الأوروبية، إلى التوصل أخيرًا إلى اتفاقٍ مُرضٍ؛ فقد حصل سلطان المغرب على وعدٍ بأن السفن التي ترفع أعلامًا معيّنة ستبقى في مأمن كلّ عام، مقابل أن يدفع أمير المؤمنين مبالغ محددة لقراصنة الريف. وبطبيعة الحال، كان على الدول المعنية أن تساهم بـ"حصة" تجاوزت المبلغ الإجمالي بشكلٍ كبير، بحيث حقّق السلطان أرباحًا لا بأس بها. ومن المثير للاهتمام حقًّا معرفة المبالغ التي تدفّقت إلى المغرب، سواء كجزيةٍ معترف بها، أو كهدايا سنوية، أو بأيّ شكلٍ آخر. وهكذا دفعت الإمبراطورية البريطانية، التي تفخر بقوتها البحرية، 600 جنيهٍ إسترليني عند كلّ تغييرٍ لقنصلها، وكان القنصل المسكين يتغيّر مع كلّ مناسبة مولد نبوي. كما دفعت جميع الدول الأخرى ما بين 15 و20 ألف دورو سنويًا، بما في ذلك فرنسا وهولندا رغم أساطيلهما الضخمة،

وأمريكا الشمالية، ورابطة مدن هانزا[20]، وجميع الدول الأخرى. أمّا النمسا، التي كانت لها مصالح ملاحية ضئيلة في هذا الاتجاه، لكنها بصفتها وريثة البندقية اضطُرّت إلى الدفع لمدة عقدٍ من الزمن في مطلع القرن الثامن عشر، فقد تحرّرت لاحقًا بوساطة الباب العالي، وليس بقوتها الذاتية.

لعلّهم كانوا يحقّقون بالفعل مكاسب مالية لا يُستهان بها، غير أنّ ذلك لم يمنع وقوع حوادث كانت تُؤسر فيها، "عن غير قصد"، بعض السفن الشراعية، حتى وإن كانت دولها تؤدّي الجزية بانتظام. ومن الطبيعي أن تُفضي مثل هذه الوقائع إلى أزماتٍ حادّة، لكنها لم تؤدِّ في كثيرٍ من الأحيان—كما تُظهر ذلك أيضًا أحداث حرب الريف (حرب 1909) لاحقًا—إلّا إلى ممارسة ضغوطٍ دبلوماسية على السلطان.

فمن تجرّأ على الدخول في صراعٍ مباشر مع الريف، غالبًا ما تكبّد خسائر قاسية. ويُذكر في هذا السياق الأدميرال النمساوي بانديرا، الذي أُوكلت إليه سنة 1829 مهمة معاقبة قراصنة الرباط على الساحل الغربي، إثر استيلائهم على سفينةٍ تجارية. وعلى الرغم من توفّره على ثلاث سفنٍ حربية مجهّزة بالمدافع، فقد مُني بهزيمةٍ

---

[20] الرابطة الهَنزِيَّة أو عُصبة هَنزا أو عُصبة الهَنزة (بالألمانية: die Hanse) هي رابطة ضمت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال (شمال ألمانيا) والبلطيق، استمرت من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر. ضمت في البداية ثلاث مدن ألمانية هي: لوبيك، وهامبورغ وكولن، ثم تزايد عدد المدن المنضوية تحت لوائها حتى بلغ 80 مدينة في القرن الـ14 للميلاد. شكلت هذه المدن نواة الرابطة الهَنزية، أقامت لها عدة محطات تجارية في نوفغورود (روسيا)، برجن (النرويج)، لندن وبروج (بلجيكا). بدأت مرحلة الأفول عندما تلقت لوبيك وهي المدينة التي كانت مركزا لها هزائم قاسية على يد الدانمارك سنوات 1543-1535 م

مهينة، واضطر إلى الانسحاب على عجلٍ من البر، فيما وقع عددٌ من رجاله في الأسر لدى المغاربة، حيث بيعوا عبيدًا.

وقد لقي الأمير البروسي أدالبرت مصيرًا سيئًا مماثلاً، حيث خاض مغامرة بمفرده على متن سفينة حربية صغيرة لمعاقبة قراصنة على نهب سفن تجارية بروسية. صحيح أنه رفع العلم الأسود والأبيض[21] عند رأس هرك، لكنه عاد أدراجه أسرع مما اعتلى القمة، وترك نصف رجاله قتلى وجرحى كغنيمة سهلة لأعدائه الباحثين عن العبيد. قبل ذلك بعامين، كان الإنجليزي رابيير قد واجه نفس الحظ السيئ، ولم يكن حال الآخرين أفضل منه.

ومن يدرك هذه الحقائق، يسهل عليه أن يصدّق أنّ معظم الدول المطلّة على البحر كانت تؤدّي نصيبها من الجزية في مواعيده، كما يفهم كيف أنّ مدن الرابطة الهانزية، بل وحتى الأفراد في بعض البلدان الأوروبية، ظلّوا حتى منتصف القرن الماضي[22] يساهمون في صناديق مشتركة خُصّصت لفدية البحّارة الأسرى في المغرب.

غير أن هذا النشاط أخذ في التراجع مع دخول التقنيات البحرية الحديثة على الخط. فقد أصبحت السفن البخارية أكبر حجماً وأسرع حركة، ولم يعد لرفع الراية الحمراء فوق زرقة البحر ذلك الأثر الذي كان يثير الرعب في السابق. لم يعد البحارة يتوقفون أو يرفعون الدعاء كما كانوا يفعلون من قبل، إذ تغيّرت موازين

---

21 علم بروسيا

22 التاسعة عشر

القوة، وتلاشى ذلك العالم القديم الذي كانت فيه أفعال القراصنة تُدوَّن كأنها ملاحم، قبل أن تطويها تحولات العصر.

كانت البنادق طويلة الماسورة التي تعمل بآلية الإطلاق بالحجر (المكحلة) تبعث الرهبة في نفوس قبائل الريف، سواء على سواحل البحر الأبيض المتوسط أو في شمال المغرب. ولا تزال هذه الأسلحة تُصنع في تطوان، حيث يُستخدم الحديد المصبوب يدوياً لصناعة القفل والماسورة الرفيعة، بينما يُزيَّن العقب الثلاثي بزخارف دقيقة من أسلاك فضية مسطحة تُطرَق بعناية داخل خشب الجوز الصلب.

ويتميّز القفل نفسه بنقوش فضية أنيقة، في حين تُحفَر على الساعد عبارات دينية أو اسم المالك، وتُطعَّم بزخارف عاجية ملوّنة تضفي عليها مزيداً من الجمال. إنها قطع فنية آسرة تستميل هواة جمع الأسلحة في أوروبا، غير أنها فقدت اليوم معظم قيمتها العملية في بيئتها الأصلية.



المكحلة

أصبحت بنادق الريف الشهيرة، التي كان دويّها يثير الرعب في نفوس البحارة الأوروبيين وقوات السلطان على حد سواء، تُستعمل اليوم في الغالب ضمن ما يُعرف بـ«ألعاب البارود» ذات الطابع الاحتفالي. أما الريفي المعاصر، فقد اتجه إلى تفضيل البنادق ذات التلقيم الخلفي، التي يحصل عليها من مصادر متعددة.

ومن بين هذه الأسلحة، نجد بندقية ريمنجتون الثقيلة، وبندقية هنري-مارتيني ذات العيار الكبير، على غرار تلك التي يستخدمها الجيش المغربي، إضافة إلى بنادق وكرابيلات غراس المنتشرة في المغرب، وحتى بندقية شاسبو وغيرها من البنادق أحادية الطلقة. كما توجد أيضاً ما يُعرف محلياً بـ«اتناشية»، أي البنادق ذات الاثني عشر طلقة، وعلى رأسها بنادق وينشستر، غير أنها لا تحظى بالتقدير نفسه لدى الريفيين مقارنة ببقية الأمازيغ.

ويعود ذلك إلى أن الرامي الريفي يفضّل الدقة على سرعة الإطلاق، كما يدرك المتمرّسون في القتال أن رصاصة وينشستر، رغم قوتها الظاهرة، لا تكون دائماً فعّالة بالقدر المطلوب. لذلك، يميلون في الريف إلى تفضيل ذخيرة ماوزر، وخاصة تلك المزودة برصاصة نصف مكسوّة، لما توفره من دقة واختراق أفضل.

كما وصلت بعض البنادق العسكرية الفرنسية الحديثة إلى أيدي سكان الريف، ويُشار إليها اختصاراً باسم «لَكْلَاطَا». غير أن الأسلحة الأكثر انتشاراً تظل بنادق وكرابيلات ماوزر، ولا سيما الطراز الحديث التي أُدخلت إلى إسبانيا منذ منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر.

وقد اعتُبر تزويد أهالي الريف بهذه البنادق، عبر شبكات تهريب نشطة، أمراً مسكوتاً عنه في بعض الأوساط، بل يُنظر إليه أحياناً كواقع قائم أكثر منه خرقاً يجب وقفه. وفي هذا السياق، اكتسبت شركة بلجيكية مستقرة في وهران، تُعرف باسم "لودرو إي رولان"، سمعة واسعة. كما نشطت شبكات تهريب انطلقت من

السواحل الإسبانية، حيث جرى إدخال بنادق ماوزر وذخائرها إلى الريف، وهي الأسلحة التي فتحت أبواب جهنم أمام العديد من الجنود الإسبان في صيف عام 1909!

وعلى مدى سنوات، كان من المألوف رؤية قوارب ريفية ذات منشأ إسباني تقترب ليلاً من الساحل، لا لتفريغ شباكها من السمك، بل لإنزال حمولات غير اعتيادية. وكثيراً ما كانت سفينة خفر السواحل المغربية الوحيدة تضبط هؤلاء المهربين متلبسين، غير أن مثل هذه الحوادث كانت تنتهي في الغالب باحتجاجات رسمية من مدريد، التي كانت تصف هؤلاء بأنهم مجرد صيادين «أبرياء» تعرّضوا للمضايقة.

وفي كل مرة كان يُزعم أن البنادق الخمسمائة أو الستمائة التي عُثر عليها على متن سفينة شراعية إنما خُصّصت «للدفاع» عن طاقم لا يتجاوز خمسة أو ستة رجال. ومن الطبيعي، في ظل هذا التبرير المتكرر، أن يتلقى القبطان كارو[23] في نهاية المطاف تعليمات تقضي بعدم التدخل في مثل هذه القضايا، والاكتفاء بتجاهل سفن التهريب.

غير أن لحظة الحساب لم تتأخر، إذ سرعان ما تحولت تلك الأسلحة نفسها إلى مصدر موت ودمار في صفوف القوات الإسبانية أمام مليلية. وبالنظر إلى التجربة الطويلة التي راكمها

---

[23] قائد سفينة "التركي" المغربية

الإسبان في تعاملهم مع الريفيين على مدى أربعة قرون، لم يكن من الصعب توقّع مثل هذا المآل.

في مختلف أنحاء المغرب، ولا سيما في منطقة الريف، كانت البنادق المعروفة باسم «الخماسية»ـــنسبة إلى سعتها التي تبلغ خمس طلقاتـــتُباع بأسعار مرتفعة. وكان من المعتاد أن تُباع كل بندقية مرفقة بما لا يقل عن مائة طلقة، مقابل مبلغ يتراوح في المتوسط بين 100 و120 دورو حسني. أما البنادق ذات الطلقة الواحدة، مثل «غراس» أو «شاسبو»، فكان سعرها يقارب 30 ريالاً في سوق فاس، وما بين 30 و35 من العملة المحلية في منطقة الريف.

وفي هذا السياق، كان بالإمكان كسب ولاء فرقةٍ قبلية كاملة عبر تقديم عددٍ من البنادق متعدّدة الطلقات كهبة، كما كان بعض المستثمرين الأوروبيين الساعين إلى استغلال مناجم الفحم يلجؤون إلى هذا الأسلوب للحصول على أراضٍ غنية بالفحم. وحتى قضايا الثأر كان من الممكن تسويتها بسهولةٍ أكبر إذا عرضت عائلة الجاني بندقية "ماوزر"، إذ كان الريفي، المعروف بولعه بالسلاح والقتال، يرى في ذلك وسيلةً مقبولة للتعويض.

وكان من العسيرـــبل من العسير جدًاـــشراء أرض، أو إنهاء خصومة ثأرية، أو فرض زعيمٍ قبلي لا يحظى بقبول بعض العائلات. غير أنّ تحقيق مكاسب ملموسة كان كفيلًا، في كثيرٍ من الأحيان، بتليين المواقف ودفع السكان إلى القبول بتسوياتٍ مختلفة،

بل وإلى السماح أحيانًا بتزويج البنات لأبناء المدن، رغم ما كان يسود بينهم من نظرةِ ازدراءٍ متبادلة.

يُعرف الريفي بمهارته الكبيرة في الرماية. فعند مداخل الأودية، كان رجال القبائل المقيمة في المناطق المجاورة ينصبون خيامهم ويتولّون الحراسة، وفي الوقت نفسه يمارسون تدريباتٍ تنافسية على الرماية. وكان يكفي حجرٌ فاتح اللون أو جذعُ شجرةٍ ليغدو هدفًا مناسبًا، فيما كانت عشرات العيون الحادّة تتابع مسار كلّ طلقةٍ باهتمامٍ بالغ.

وقد رأيتُ أحد الريفيين يصيب بيضةً ويحطّمها من مسافة أربعين خطوة، بينما كان شقيقه يثبّتها بين كاحليه.

ولعلّها لم تكن سوى طلقةٍ عادية في نظرهم؛ إذ كان كلٌّ من الأخوين، قبل ذلك، يفضّل أن يكون هو الهدف، تاركًا للآخر شرف إطلاق النار. وفي مناسبةٍ أخرى، قدّم أحد أبناء غمارة، المعروفين بمهارتهم في الرماية، عرضًا أكثر غرابة؛ إذ نادى صبيًا كان جالسًا قرب حافة بئرٍ مجاورة. وما إن وقف الصبي حتى أطلق الرجل النار، قبل أن يدرك ما الذي كان ينوي فعله.

رفع الصبي يده بشكل غريزي نحو رأسه المكشوف، لكن الفحص السريع أظهر أنه لم يُصب بأذى. عندها التفت الرامي قائلاً: "هل تستطيعون أنتم، أيها المسيحيون، أن تفعلوا ذلك؟ أن تصيبوا أحد مخلوقات الله من غير أن تجرحوه"!

لقد مرّت الرصاصة على مسافة قريبة جداً من الهدف، إلى حد أن الصبي شعر بها، ومع ذلك لم تترك أي أثر. ومع مثل هذه الدقة في التصويب، يمكن فهم لماذا كان الرامي يتمتم بخشوع: «بسم الله»، وهو يرفع بندقيته إلى كتفه.



سكين مع غمده

يتم إعادة تعبئة الخراطيش (القرطاس) بعد كل إطلاق باستعمال بارود كثيف الدخان، من النوع الذي كان يباع في طنجة أو تطوان أو مليلية، ثم تُغلق بقطع من الرصاص المستخرج من المناجم المحلية. غير أن الخرطوشة الجديدة كانت، لأسباب واضحة، أكثر رواجاً وأعلى ثمناً.

وكانت تُستخدم طلقات كبيرة وعريضة، يُباع المائة منها مقابل ثلاثة صُلْدِيّات. أما في المناسبات السارة والاحتفالات، فكان الريفي يفرغ الرصاصة من الخرطوشة بأسنانه، ثم يسدّها بورق أو بقطعة قماش، ليحوّلها إلى طلقة فارغة تُستعمل في ألعاب البارود والاحتفالات التقليدية.

كان كل من يقطن الجبال يحمل خنجراً طويلاً ومعقوفاً، يتميز بنصل يُعدّ أجود من نصل السكين المغربي التقليدي المعروف بـ«الكمية»، وإن كان غمده أقل جودة من حيث الصنع والزخرفة.

على الساحل الشمالي الوعر للمغرب، لم يكن للمظهر الخارجي الأهمية نفسها التي كانت تُمنح لجودة السلاح وفعاليته. غالبًا ما يُربط السكين بحزام جلدي، ونادرًا ما يُحشر في الحزام أو يُعلق بحبل خاص به. أما المسدسات، فهي بالكاد معروفة بأسمائها وليست مطلوبة على الإطلاق.

كانت البندقية الرفيق الدائم لكل رجل؛ فلا يكاد يُرى، حتى على بُعد خطوات قليلة من منزله، من دون سلاحه العزيز. بل إنه كان يصحبها معه حتى أثناء الصلاة. وما إن يبلغ الصبي سن الرشد حتى يتلقى من والده أو أحد أقاربه بندقية قديمة من نوع الحشو الخلفي، في مناسبة تُحتفى بها بشكل رسمي داخل الجماعة.

وفي ذلك اليوم، يعفيه الفقيه من نوبات الحراسة الصباحية، ويقدّم له جملة من النصائح الدينية والأخلاقية التي سترافقه في حياته، مؤكداً له أنه أصبح رجلاً، وأن آباءه وأجداده خاضوا المعارك دفاعاً عن الوطن والعائلة، وأن كثيرين من أبناء قبيلته سقطوا "كرجال"، وعليه أن يبرهن بدوره على أنه جدير بالانتماء إليهم.

وإذا كان الشاب قد نشأ على سماع ملاحم أبطال القبيلة، فإنه يصبح، منذ تلك اللحظة، مطلعاً أيضاً على قضايا الثأر العالقة، التي يغدو ملزماً بالمشاركة فيها شأنه شأن سائر الرجال البالغين في قبيلته. ومنذ ذلك الحين، يصبح همه الأكبر هو استبدال سلاحه

القديم ببندقية «خماسية»، سواء عبر شرائها، أو سرقتها، أو الحصول عليها مقابل عمل يؤديه.

أمّا القبائل الفقيرة الواقعة جنوب مرتفعات جبالة، وصولًا إلى ممر تازة، فهي وحدها تقريبًا التي كان رجالها البالغون يفتقرون إلى الأسلحة متعدّدة الطلقات.

ويجدر التنبيه إلى أن الريفي لم يكن معروفاً بالمهارة نفسها في استعمال العصا، تلك التي اشتهر بها أمازيغ منطقة القبائل في الجزائر أو العرب القاطنون شرق المغرب. كما أنه لم يكن يميل إلى ارتداء أفخر ملابسه عندما يخرج للقتال؛ وربما يعود ذلك إلى بساطة لباسه أصلاً، إذ نادراً ما كان يرتدي أكثر أفخم من الجلباب.

بل على العكس من ذلك، وكما يفعل أثناء العمل أو في مختلف الأنشطة اليومية، كان غالباً ما يخلع لباسه الخارجي قبل الدخول في القتال.

أو يرتدي جلبابًا قديمًا باليًا، يكاد لا يتميّز عن خلفية الصخور.

وقد تلقي بعض الوقائع التي حدثت في مطلع القرن العشرين ضوءًا على الجرأة الجسدية التي اشتهر بها هؤلاء الرجال. ففي سنة 1904، كنتُ جالسًا في جدة على ساحل البحر الأحمر، حين وصلت مجموعة تضم نحو مئتي رجل من أبناء جبال الريف، أقوياء البنية، متجهين إلى الديار المقدسة في الحجاز لأداء فريضة الحج ونيل لقب "الحاج."

وأثناء عبورهم السواحل الرملية لشبه الجزيرة العربية، طالبتهم بعض القبائل المحلية، مثل الأنس والشمان والوهابيين وغيرهم، بدفع رسوم المرور المعتادة. وكان حتى ممثّل الدولة العثمانية في المنطقة، باشا إسطنبول، يؤدي هذه الإتاوات سنويًا لحماية الحجاج العزّل—الذين كانت شعائر الحج تمنعهم من حمل السلاح—من ابتزاز القبائل الصحراوية المعروفة بنزعتها إلى السلب.

غير أنّ الريفيين لم يطيلوا التشاور. فقد مزّق أحدهم قطعةً من جلبابٍ خشن، ملأها بالخراطيش، ثم سلّمها إلى المبعوثين الذين قدموا لتحصيل الإتاوة قائلاً: "قولوا لإخوانكم إن جبالنا لا تُنبت الذهب، بل تُنبت رجالًا لم يخضعوا قطّ لأيّ سيد، ويعرفون جيدًا كيف يستخدمون مثل هذه الأشياء. فإذا أردتموها، فتعالوا وخذوها بأنفسكم."

وهكذا خاطبوا رجالًا هاجموا، في العام الموالي، قافلة حجٍّ كبيرة مدعومة بفرقةٍ عسكرية وعدّة مدافع، وتمكّنوا، رغم ذلك، من نهبها.

خلال معركة وادي راس، في سياق حرب تطوان بين المغرب وإسبانيا، لفت أحد رجال الريف الأنظار وهو يمتطي حصانًا مزينًا بزخارف فاخرة، مرتديًا جلبابًا بنيًا، ويتنقّل جيئةً وذهابًا بين خطوط النار، ملوّحًا ببندقيته مرارًا في اتجاه مواقع العدو.

وبعد انتهاء المعركة، وخلال مفاوضات السلام التي أعقبتها، اقترب هذا الرجل من أحد ضباط الأركان الإسبان واعتذر له لأنه لم يتمكن من العثور على "صديقه"، مؤكداً أنه بذل كل ما في

وسعه. وعند الاستفسار عن قصده، تبيّن أن أحد الجنود الإسبان كان قد ودّع الضابط قبل القتال بعبارة: "إلى اللقاء في ساحة المعركة."

لقد فهم القائد الريفي هذه المجاملة كأنها تحدٍ للقتال!

في سنة 1896، دخلت قبائل قلعية في مواجهة مع مليلية عقب اعتداءات ارتكبها جنود إسبان، من بينها تدنيس ضريح أحد أولياء القبيلة بطريقة أثارت غضب السكان. وسرعان ما ظهرت سفن حربية إسبانية في الميناء، حيث كانت كشافاتها الضوئية تُستخدم لتعقب تحركات الريفيين خلال عملياتهم الليلية.

وفي إحدى الليالي، سبح رجلان تحت جنح الظلام حتى وصلا إلى إحدى السفن، ثم تسلقا سلاسل المرساة وأطلقا رصاصتين عطّلتا مصادر الضوء المزعجة. وبينما عمّت الفوضى على متن السفينة، تمكنا من القفز إلى الماء والعودة سالمين إلى الشاطئ.

في خريف سنة 1908، أصبح بو حمارة، الذي كان يتخذ من قصبة سلوان مقراً له، مصدر تهديد وإزعاج متزايد للقبائل المجاورة. وعلى إثر اجتماع تشاوري عقدته قبيلة آيث ورياغر وقبائل أخرى، تقرر الاستعداد لمواجهته والتصدي له.

وردّ بو حمارة على هذا التحدي بإرسال قائده الجلالي مول الوضو على رأس فرقة من الفرسان. غير أن المواجهة الأولى انتهت سريعاً بكارثة لقواته، إذ سقط نحو ثلث الفرسان قتلى في الميدان،

بينما فرّ الباقون على عجل، يشدّون لجام خيولهم عائدين من حيث أتوا.

وخلال الشهرين التاليين، اندلعت مواجهات أخرى واشتباكات قرب قصبة سلوان، إلى أن تمكن الريفيون، ببنادقهم الدقيقة وتنظيمهم القتالي، من تحقيق ما عجزت عنه جيوش السلطان طوال ست سنوات. ففي نهاية أكتوبر، اضطر بو حمارة إلى الفرار نحو ممر تازة هرباً من ضغط المقاتلين الريفيين.

وربما لا يعلم كثيرون أن الريفيين—على نحو قد يبدو صعب التصديق—تمكّنوا من طرد الإسبان من بعض مواقعهم باستخدام السلاح الأبيض. ولم يُعرف عن أيٍّ من الشعوب المحلية الأخرى أنها أقدمت على مواجهة مماثلة ضد جنودٍ أوروبيين مدرّبين ومجهّزين.

بل إن المقاتلين الريفيين تمكنوا، يوم 27 يوليو 1909، من اجتياح المدينة الجديدة والتقدم حتى أسوار الضاحية المحصنة.

ومن الأمثلة الدالة على أسلوبهم في القتال والرماية، أن الجنود الإسبان ظلوا يطلقون النار بلا انقطاع لمدة ساعتين تقريباً على موقع لا يبعد سوى نحو ألف خطوة، بعدما لمحوا عند الفجر أشخاصاً يرتدون جلاليب بين الصخور. وحين توقفت النيران أخيراً، نهض ضابطان من وضعية الانبطاح لمحاولة تفقد المكان بواسطة المنظار.

وفي اللحظة نفسها، تصاعدت خيوط رقيقة من الدخان الأبيض بين الحجارة، أعقبتها طلقات حادة نبهت الجميع إلى ضرورة الحذر. وبعد دقائق قليلة، كان المسعفون يسحبون الضابطين من الخندق، وقد أصيب أحدهما برصاصتين في الرأس.

هؤلاء هم الريفيون، أشجع رجال المغرب.

7. الخاتمة

الجرمان الأفارقة؟

وقد أُشير مرارًا في سياق هذا العمل إلى أنّه، رغم وجود فئاتٍ سكانية داكنة البشرة، بل وسمراء، في مختلف مناطق المغرب الكبير، فإنّ سكان الريف—شأنهم في ذلك شأن أمازيغ منطقة القبائل في الجزائر—يتميّزون ببشرةٍ فاتحة على نحوٍ لافت. كما أنّ نسبةً كبيرةً منهم شُقرُ الشعر، ويملك عددٌ مهمٌّ منهم عيونًا زرقاء.

وقد أثارت هذه الخصائص، التي بدت استثنائيةً في السياق الإفريقي ونادرةً بين شعوب القارة، اهتمامَ علماء الإثنوغرافيا منذ وقتٍ مبكر، فوجهت أنظارهم إلى الريف وسكانه باعتبارهم جماعةً ذات سماتٍ مميّزة على تخوم أوروبا.

ولا تكاد هذه الظاهرة تُلاحظ لدى المجموعات الأمازيغية الأخرى، باستثناء ما كان معروفًا قديمًا لدى الغوانش، سكان الجزر الخالدات الأصليين. غير أنّ هذه الخصوصيات بدأت تختفي هناك بعد حملات الاسترقاق والمجازر التي رافقت الغزو الإسباني للجزر، إلى أن اندثرت لغة الغوانش وملامحهم الثقافية والعرقية منذ زمنٍ بعيد.

وإذا ما ربطنا هذه الخصائص الإثنية ببعض العادات والتقاليد المميّزة لسكان الريف الأصليين، فإنّ الفرضية القائلة بوجود بقايا

سكانية تعود إلى القوط أو الوندال، الذين استقرّوا في سواحل شمال إفريقيا قبل أن يختفوا مع بدايات القرن السادس، تبدو، في نظر بعض الباحثين، أكثر قابليةً للتصوّر.

صحيح أن أحفاد تلك الجماعات لم يتمكنوا، في أي مكان، من الحفاظ على ما يُسمى "نقاء العرق"، كما أنهم لم يفرضوا تأثيراً حاسماً على الشعوب المجاورة، غير أنهم تركوا، على الأرجح، أثراً ملحوظاً في بعض الفئات المحلية.

وربما كان المناخ الجبلي المنعش أكثر ملاءمة للجماعات الجرمانية ذات البنية الصلبة، المنحدرة من بيئات أكثر قسوة، مقارنة بالسهول الخصبة والمشمسة. كما يُحتمل أنهم وجدوا في المناطق الجبلية المعزولة فضاءً يوفر لهم قدراً أكبر من الأمان، الأمر الذي سمح لبعض خصائصهم الاجتماعية والثقافية بأن تؤثر في السكان المحليين.

فبينما اقتصر الوجود الفينيقي على إنشاء مراكز تجارية ساحلية، واكتفى الرومان بإقامة مواقع عسكرية في أجزاء من البلاد ــــ دون أن يمتد نفوذهم بشكل فعلي إلى منطقة الريف ــــ جاء الوندال والقوط مصحوبين بنسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم، في صورة جماعات مهاجرة كبيرة أقرب، في نمط عيشها، إلى القبائل الرعوية المتنقلة.

ومع ذلك، تبقى آراء الباحثين والمؤرخين متباينة بشأن مدى صحة هذه الفرضيات وحدود تأثير تلك الجماعات في التكوين السكاني والثقافي للريف.

هل كان عددهم لا يتجاوز ثمانين ألف نسمة، أم أن الرقم كان يشير إلى ثمانين ألف محارب، أي ما يعادل ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف شخص، عبروا البحر الأبيض المتوسط قادمين من تلك الأرض التي حملت اسمهم لاحقاً، أي الأندلس؟[24] لا يزال هذا السؤال، إلى اليوم، دون جواب حاسم وموثوق.

غير أن هذه المسألة قد لا تكون ذات أهمية كبرى في نهاية المطاف. فالريف منطقة جبلية واضحة المعالم، وسكانه يتميزون بخصائص تختلف عن سكان المناطق المجاورة، لكن عددهم ظل محدوداً نسبياً، بحيث إن الفارق بين وصول جزء من ثمانين ألف محارب أو جزء من ثمانين ألف شخص لا يبدو حاسماً بالقدر الذي قد يُتصور.

ومع ذلك، تظل هناك أسئلة أخرى أكثر أهمية تستحق البحث: هل تبعت الموجة الأولى موجات هجرة لاحقة بعد استقرارها؟ وهل تفرقت بقايا الإمبراطورية الجرمانية الإفريقية، بعد انهيارها

[24] تشتَقُّ أقدمُ نظرية لتأثيل اسم الأندلس من اسم شعب الوندال (أو "الفندال" في مصادر أخرى)، وهم قبيلة جِرمانيَّة استعمرت أجزاءً من شبه الجزيرة الإيبيرية ما بين عامَيْ 409 و429م؛ فقد عُرفوا وقتَها باللغة اللاتينية تحت مسمَّى "Vandalus" (نقحرة: فَنْدَلُس)، وأصل هذا المسمى قبل اللاتينية يعود إلى اللغات الجرمانية، وله بعد ذلك جذور في اللغات الهندية الأوروبية. أقرَّ رينهارت دوزي (1860م) بعيوب النظرية، ومع ذلك قبلها، واقترح أن الاسم أشار جغرافيًّا فقط إلى الميناء الذي غادر منه الوندالُ إيبيريا وهم ذاهبين إلى شمال أفريقيا عام 429م، حيث أسَّسوا المملكة الوندالية (435–534م). حاول ويرنر ويشيكل (1952م) أن يضع نظرية الوندال على أرض أكثر صلابة؛ فاقترح أن "وَنْدَلُس" كان الشكل المستخدم لدى الأمازيغ، والذين يُعَرِّفون أسماءهم بـ"وَ"؛ فظن العرب أن مقطع الاسم الأول كان أداة تعريف الأمازيغ، فبدَّلوه بأل التعريف العربية، فصار "الْأَنْدَلُس".

بقرابة قرن، داخل مناطق مختلفة وامتزجت بالسكان المحليين، أم أنها اتجهت غرباً بشكل جماعي؟

وإذا صح الاحتمال الأخير، فهل استقر جزء منها في منطقة "القبائل" الحالية، بينما واصل القسم الآخر هجرته نحو الريف الغني بأوديته؟ تبقى هذه الأسئلة من القضايا التي لم تُحسم بعد، وما تزال الآراء الأكاديمية بشأنها متباينة.

قضيت ما يقارب ثلاث سنوات في المغرب، وكان نصف هذه المدة مخصصاً حصرياً لمنطقة الريف. ومنذ اليوم الأول كنت مستعداً للعمل، إذ لم أكن بحاجة إلى فترة "تأقلم" عند وصولي؛ فقد كنت أتقن العربية، كما أن رحلاتي الطويلة السابقة منحتني معرفة مسبقة بالشخصية والثقافة الإسلاميتين.

ومع ذلك، لا أستطيع الادعاء بأنني قدمت مساهمة كبيرة فيما يتعلق بمسألة "الجرمانيين الأفارقة". فمهمة الحسم في مثل هذه القضايا تبقى من اختصاص الباحثين المتخصصين في الدراسات الجرمانية والمقارنات التاريخية، من خلال مقارنة العادات والتقاليد الواردة في هذا العمل بما كان معروفاً عن الشعوب الجرمانية القديمة.

ولهذا السبب أدرجتُ عدداً من المشاهد اليومية والتفاصيل الصغيرة والحوادث المتفرقة، لا على سبيل الاستطراد، بل لأنها قد توفر مادة يمكن أن تُستثمر في دعم هذا الرأي أو ذاك. وأكرر هنا ما أشرت إليه في المقدمة: إن الملاحظات الأنثروبولوجية التي خرجت بها من هذه الرحلة تظل محدودة القيمة من الناحية العلمية.

فالأشخاص الذين أتيح لي الاحتكاك بهم لم أكن أستطيع دائماً الجزم، بضمير مطمئن، بأنهم يمثلون "العنصر الريفي الخالص". وحتى في الحالات التي كنت أعتقد فيها ذلك، كان إجراء القياسات والدراسات المباشرة أمراً متعذراً. كما أنني لم أُمنح حرية القيام بتحديدات جغرافية دقيقة داخل منطقة الريف نفسها.

قد أُهدرت الكثير من الحبر في محاولة إثبات أو نفي إمكانية وجود بقايا من دماء أسلافنا المهاجرين في هذا العالم الفريد القابع على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. وقد عبّر عدد من الباحثين والشخصيات البارزة، تباعاً، عن مواقف مؤيدة أو معارضة لهذه الفرضية.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الأمازيغ الريفيين يبدون، في نظر بعض الدارسين، وكأنهم يشتركون في عددٍ من السمات مع تلك الشعوب الجرمانية القديمة التي اندثرت آثارها التاريخية. غير أنّ الحسم العلمي في مسألة القرابة أو التأثير المتبادل لا يمكن أن يتحقق إلا على يد باحثٍ تتاح له فرصة الإقامة في الريف مدةً أطول بكثير مما أتيح لي، ويتمكن، قبل كل شيء، من إتقان اللغة المحلية بدرجةٍ أعمق مما سمحت به إقامتي القصيرة نسبيًا في المنطقة.

كما يتطلب الأمر دراسة دقيقة للعادات والتقاليد في البيئات التي حافظت، بفعل العزلة الطويلة عن العالم الخارجي، على خصائصها القديمة دون تغيّر كبير، إلى جانب القيام بأبحاث أثرية وحفريات ميدانية قد تكشف عن شواهد تعود إلى عصور سحيقة.

غير أن الطريق إلى ذلك لا يزال طويلاً، وعندها فقط قد يحين الوقت لتوجيه أبحاث أكثر عمقاً نحو جبال الريف. فحلّ مسألة انتشار العيون الزرقاء وبعض السمات الجسدية ذات الطابع الأوروبي في بيئة إفريقية لا يمكن أن يعتمد على جهود الباحث المتخصص في شؤون الإسلام وحده.

إذ تقتصر مهمته، في مثل هذه الحالات، أساساً على جمع المعطيات والمواد الميدانية، أما إصدار الأحكام العلمية النهائية فيبقى من اختصاص باحثين آخرين، وفي مقدمتهم علماء الأنثروبولوجيا، بالتعاون مع المتخصصين في دراسة الشعوب الجرمانية القديمة واللغات المرتبطة بها.

المراجع

يجدر التنبيه منذ البداية إلى أنني لم أعتمد بشكل مباشر على مصادر مكتوبة بالمعنى التقليدي. فما يرد في بعض المؤلفات الأخرى لم يُستحضر هنا إلا بصورة عابرة، في حين أن جانباً مهماً مما تم تناوله في هذا العمل لا يكاد يجد له حضوراً في الكتب المتداولة.

كما ينبغي الإشارة إلى غياب دراسات متخصصة ومفصلة حول منطقة الريف نفسها. فالمتوفر في الغالب يقتصر على أعمال تتناول الأمازيغ في المغرب بصفة عامة، أو مؤلفات تاريخية تعالج بلدان شمال غرب إفريقيا بشكل شامل. ولذلك، كان لا بد من الاعتماد على المعطيات المتعلقة بالمغرب وموريتانيا فيما يخص الجوانب التاريخية، وعلى الدراسات الخاصة بالأمازيغ فيما يتعلق بالمسائل الإثنوغرافية.

وفيما يلي قائمة بأبرز الأعمال التي يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها:

غوستاف ديرش، المغرب، مواد عن الإمبراطورية الشريفة. برلين 1894، دار نشر كرونباخ. -- كتاب ممتاز يحتوي على مواد تم جمعها بعناية، وهو مفيد من الناحيتين التاريخية والإثنوغرافية.

ماكس كويدنفيلد، «تصنيف وتوزيع الشعوب الأمازيغية». مجلة علم الأعراق البشرية، المجلدان 20 و21، برلين 1888. -- عمل جيد، غير مكتمل، لكنه ذو قيمة إثنوغرافية.

أوغست موليبراس، المغرب المجهول، مجلدان: استكشاف الريف، 1895، واستكشاف جبالة، 1899. وقد سجّل موليبراس، أستاذ اللغة العربية في وهران بالجزائر، معلومات استقاها من رحالة جزائري، يمكن اعتباره بمثابة ليون إفريقي ثانٍ، وإن كان أقل ثقافة منه. وعند عودتي الأولى من المغرب، بدا لي أن كثيراً من المعطيات الواردة في ذلك العمل لا تخلو من أخطاء، إذ إن وصف الأوضاع والظروف فيه يختلف في جوانب عديدة عما هو معروف لدى الأمازيغ في باقي مناطق المغرب.

غير أنني، خلال رحلة لاحقة، اقتنعت بأن هذا المؤلف، رغم طابعه الغريب، لا يتضمن في مجمله قدراً كبيراً من المبالغة، بل إن ما يورده من معلومات حول قوة القبائل وممتلكاتها وخصائصها يبدو إلى حد كبير دقيقاً، بالقدر الذي أتيح لي التحقق منه. كما أنه يقدم بعض الإشارات ذات القيمة العلمية.

ومع ذلك، يكتب المؤلف من منظور قومي فرنسي، ويتطرق إلى قضايا يتجنبها آخرون أو يفضلون عدم إثارتها.

ماكس هوبنر، «مناطق مجهولة في المغرب». برلين 1905، دار نشر بانش. يتناول الجزء الأول منطقة الريف. وهو في معظمه مقتطف من الكتاب السابق. لكنه مليء بالأخطاء الناجمة عن سوء فهم المادة وتفسيرها. في بعض الأماكن، ترجمة أمينة

لأعمال فرنسية، وفي أجزاء أخرى نسخ حرفي لتقارير صحفية قديمة عفا عليها الزمن منذ وقت طويل. مليء بالتناقضات والأخطاء المروعة. علاوة على ذلك، أقام الملازم أول هوبنر في باريس لأكثر من عقد من الزمان، وخلال تلك الفترة تعلم أن ينظر إلى الأمور من منظور فرنسي بحت.

هاينريش فون مالتزان، «ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا». لايبزيغ 1863. يقدّم هذا الكتاب، شأنه شأن بقية مؤلفات هذا الباحث المتخصص في الدراسات الإسلامية، لوحات إثنوغرافية واضحة عن ساحل الريف، رغم أن هذا المجال لم يحظَ منه، للأسف، إلا بمعالجة سطحية ومحدودة.

س. خيمينيز، «الريف الإسباني». مقال جدير بالقراءة في المجلة الألمانية الشهرية للسياسة الاستعمارية، ترجمه و. كومبل. خيمينيز هو، في رأيي، أحد الإسبان القلائل الذين يمكن القول إنهم يعرفون المغرب المجاور معرفة حقيقية.

يتناول **موريتز شانز** أوضاع شمال إفريقيا في مجلة «الجغرافيا التطبيقية»، العدد الثاني/6، هاله 1905.

يُسلِّط **بول مور** الضوء، بأسلوب واضح للغاية، على علاقة الإسبان بالمغرب في دراسته السياسية والاقتصادية الموجزة «المغرب»، الصادرة عن دار سيمينروث للنشر، برلين 1902.

ولا بد من الإشارة إلى المقالات الرائعة التي كتبها **أوغست هورنونغ**، المراسل الخاص لصحيفة «كولنيشه تسايتونغ». وقد نُشرت هذه المقالات منذ بضع سنوات. كنتُ آنذاك في بلدان أفريقيا

الاستوائية، ولذلك لم أطلع على هذه الأعمال. وبناءً على معرفتي بهورنونغ، أعتقد أن بإمكاني التأكيد على أنها دقيقة ومفصلة. بعد أن أبحروا على متن السفينة الحربية المغربية «التركي» على طول ساحل الريف، يُرجَّح أن يكون هو وقائدها الألماني، النقيب كارو، إلى جانب كاتب هذه السطور، الأوروبيين الوحيدين الذين تمكنوا من مشاهدة الساحل الريفي بأكمله، وإن كان ذلك من على متن السفينة فقط.

وقد نشر ل. كارو بنفسه كتيباً حول هذه التجربة بعنوان: «تسع سنوات في خدمة المغرب»، برلين، 1909.

نشر **هوبنر** في مجلة «Pe?» مقالاً مماثلاً بعنوان «Rif». وترد فيه تركيبات فرنسية غير رسمية. -- وفي صحيفة « Freie Presse»، كتب المؤلف معلومات جديدة، لكنها صحيحة.

الأب بيدرو ساريونانديا هو الوحيد الذي عمل على مدار السنين، حيث كان يتنقل في المنطقة، كما يقول، حوالي عام 1920، ربما من أجل إعداد قاموس للغة الريفية. وقد صدر كتابه مؤخرًا.

«**El telegrama del Rif**» هي صحيفة يومية تصدر منذ فترة طويلة، وتتألف من أربع صفحات. وهي تسرد أحيانًا أخبارًا موجزة عن الزوار القادمين من منطقة الريف، «يمكننا الاستفادة منها».

أخيرًا، كتاب **هـ. دوفيرييه**: "آخر جزء مجهول من ساحل البحر الأبيض المتوسط، الريف" 1888. لم أتمكن من العثور عليه رغم كل محاولاتي؛ لذا لا يمكنني إبداء رأي بشأنه.

الفهرس